

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

# نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي

للقرآن الكريم

الجزء الثالث

طرق معرفة الله

بمساعدة  
مجموعة من الفضلاء

## **هوية الكتاب**

نفحات القرآن / ج ٣	□ الكتاب
آية الله العظمى مكارم الشيرازي	□ المؤلف
٢٠٠٠	□ عدد النسخ
٣٧٤ صفحة	□ قطع وزيري
الحيدري	□ المطبعة
مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة	□ الناشر

## **الاهداء:**

إلى الذين يعشقون القرآن

إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر

إلى الذين يريدون أن يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر

بمساعدة العلماء الأفضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الأشتياني

محمد جعفر الامامي

عبدالرسول الحسني

محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدی الاشتہاردی

## المقدمة

### الطرق إلى الله...:

كما ورد في بداية هذا الكتاب فإن هناك حبلاً ممتدًا من أعماق قلب كل إنسان متصلًا بالله عزوجل، فتنطلق في روضة روح كل إنسان أنسودة تعبّر عن هذا الإرتباط، ولهذا السبب، ونظراً لكثرة النفوس الإنسانية، فإن الطرق إلى الله لا حصر لها، ولكل إنسان نوع خاص به من الإدراك والشعور بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

ولكن مع كل هذه الاختلافات فإن وجهة الجميع واحدة، العالم بأسره منقاد له، وينمو في أعماقِ روحِ كل إنسانٍ برعِمَ من معرفة ذاته وصفاته، وتُنَزَّهُ في قلب كل إنسانٍ زهرةٌ من أزهار معرفته.

ويرتفع دائمًا من «الوادي الأيمن» نداءً **«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ»** ويُدعى الفطرة السوية الكامنة في كل النفوس الإنسانية إليه بصوت: **«فَاحْلَمْ عَنْكَ إِنَّكَ بِالوَادِي الْمُقْدَسِ طُوفِي»**. (طه / ١٢)

يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد في الوادي المقدس. ويوصي جميع بنبي آدم بأن يعملوا بوصيته مثلما عملت مريم عليه السلام عندما أوصاها بقوله: **«وَهَرَّى إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ»**. (مريم / ٢٥)

فيهرون الأغصان المثمرة لشجرة التوحيد لتساقط عليهم ثمرات الإيمان والمعرفة الطيبة.

وأن لا يخشون أبداً من نيران شرك النمروديين، وأن يكونوا إبراهيميين فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء ليطفئوا نيران الشرك المحرقة ويحيلونها إلى روضة للتوحيد.

وأن يركبوا في سفينية المعرفة المنجية كما ركبها نوح، ليغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره - حتى الكنعانيين منهم - .

وأن ينهالوا بالضرب على رأس «السامري» دون وجل، ويحرقوا بنار غضبهم المقدّسة عجله الذهبي المنمّق الذي يتسبّب في جذب قلوب المتعلّقين بالدنيا ومحبّي الثروة واكتناز الذهب وينثروا رماده في بحر الفناء!

أجل فإنّ سالكي هذا الطريق يكّرون ما قام به الأنبياء المرسلون في سيرهم الظاهري في هذا العالم من خلال سيرهم الباطني للوصول إلى الهدف والمراد وهو «معرفة الله». وفي نهاية المطاف يلبّون النداء الروحي لنبي الإسلام عليه السلام : «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، فيقتربون من أعلى مقامات الفلاح والفوز من خلال ترددتهم لنغمة التوحيد الروحية السامية بجميع أجزاء وجودهم «حتى الوريد والشريان». فيخرجون بهذا السير والسلوك الإلهي من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم إلى «دار الحقيقة» ومقام القرب الإلهي.

٤٥٥

ولكن النقطة المهمّة تكمّن في أنّ هذا الطريق يتمتّز بكثرة المنحدرات والارتفاعات والمنعطفات التي تكمّن في مسالكها شياطين الجنّ والإنس، الذين يبذلون الجهد الجهيد و«بزخرف القول» لحرف سالكي هذا الطريق عن مسیرتهم لأنّ إمامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزة الله وجلاله منذ البدء لاغواءبني آدم، ولعلمه بأنه «رجيم» ومطرود من حضرته، فأنه يدعو الآخرين لاتباعه والاصطدام بصعبته.

إنّ «الوسواس الخناس» هي صفة للشياطين الذين يضعون النقاب على وجوههم، كالغول الأسطوري في قصص العرب، يسيرون عدّة أيام في جادة الصواب، وبعد أن يجذبوا مجموعة من الناس إلى صفوفهم، ينحرفون عن الصراط المستقيم، ويلقون بهم في الأودية السحيقة «للضالين» و«المغضوب عليهم».

إذن ماذا ينبغي القيام به؟  
وأين طريق النجاة؟

يا ترى، هل يمكن طي هذا الطريق بواسطة العقل المجرّد، على الرغم من أنّ العقل يعد وسيلة من الوسائل التي وهبها الله تعالى للإنسان فهو نور من الأنوار الإلهية؟! أم يجب ركوب أجنحة الوحي والصعود إلى سماء المعرفة، فنتجاوز ضوء الشمع والمصباح، ونمدُّ أيدينا نحو الشمس المتلائمة، فنستمد العون من نورها للوصول إليه، لنجعل على الدليل من ذاته على ذاته؟

حيث إنّ مضمون حديث رسول الله عليه السلام: «مَنِ ابْتَغَ الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ (غير القرآن) أَضَلَّهُ اللَّهُ»<sup>١</sup>، ينصّ على ذلك، وهل يوجد غيره، يعرفه حقّ معرفته ليتمكن من تعريفه لآخرين؟ إنّ هذا الكتاب وهو المجلد الثالث من التفسير الموضوعي لـ«نفحات القرآن» هو عبارة عن جهدٍ متواضع في هذا المجال لمعرفة الله في مختلف الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد، وتأييد حكم العقل بلسان النقل، وترسيخُ أسس البرهان بآيات الوحي.

محرّم الحرام ١٤١٠ هـ قم المقدّسة - الحوزة العلمية

مرداد ١٣٦٨ هـ - ناصر مكارم الشيرازي

١. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٢٧.



# **بِرَاهِينٍ مُّعْرِفَةُ اللهِ**

- ١- برهان النظم (قد ذكر سابقاً)
- ٢- برهان التغيير والحركة
- ٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)
- ٤- برهان العلة والمعلول
- ٥- برهان الصديقين
- ٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)



## **تمهيد:**

بالرغم من أنّ الطرق إلى الله لا حصر ولا حدود لها – وكما يقول بعض العلماء: إنّ السبل إلى الله هي بعد الخلائق: «الطرق إلى الله بعد نفوس الخلائق»<sup>١</sup> – إلّا أنّه توجد خمس طرق عقلية رئيسية وطريق فطري واحد لإثبات ذات الله المقدّسة، والطرق العقلية هذه عبارة عن:

١ - برهان النظم.

٢ - برهان الحركة.

٣ - برهان الوجوب والإمكان (الفقر والغنى).

٤ - طريق العلة والمعلول.

٥ - برهان الصدّيقين.

والطريق السادس هو طريق (الفطرة) والسلوك (الباطن) والبحث في أعماق الروح الإنسانية، ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع، غير أنّه أشتمل البراهين التي يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذي يثبت وجود ذلك المبدئ الأزلي وما يملكه من علم وقدرة، وذلك من خلال عرض عجائب الخلق والأثار البديعة والأنظمة العجيبة في عالم الوجود ولذا خُصص أكثر الجزء الثاني من (نفحات القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيّان موارده – وشواهده في القرآن الكريم.

---

١. نقله البعض بعبارة (عدد أنفاس الخلائق) ويعني أنّ كلّ نفس يتنفسه الإنسان هو طريق الله، ولكن هذه الجملة لم نجدها بصورة حديث في مصادرها بل وردت في كلمات العلماء.

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لإثبات وجود الله، ثم نتحدث عن قضية الفطرة في ظل التوجيهات القرآنية.

هذه صورة إجمالية عن أبحاث هذا الجزء.

نوكد مرّة أخرى ونكرر بأنّ هذه الأبحاث لا تُقدم كأبحاث فلسفية أو كلامية، بل كأبحاث في التفسير الموضوعي كما تقتضيه طبيعة الكتاب، أي أنّنا نسير في هدي الآيات القرآنية ونستضيء بِتوجيهات هذا النور الإلهي، ولو كانت شمّة قضاياً آخر فإنّا سوف نتحدث عنها تحت عنوان (إيضاحات)، وأبحاثنا -في الحقيقة- لا تستوجب غير ذلك، لأنّها في غير هذه الحالة سوف تفقد أصالتها كأبحاث تفسيرية.

## تمهيد:

إنَّ عالمنا الذي نعيش فيه هو في حالة تغيير وتغيير دائم، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكلُّ شيء يعيش حالة من التغيير والتحغير.

ويبدو أنَّ نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقتنة بالتحغير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغيير والتبدل على صعيد نفس الإنسان أو على صعيد عالم المادة، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة من هذا التغيير ليلاً ونهاراً، بل إنَّ ظاهري (الليل والنهر) هما من أوضح النماذج عن التغيير والتبدل في العالم.

هذه التغييرات والتغييرات والحركات التي تحكم العالم تدلُّ بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه، وكأنَّ الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة. والتغيير والحركة في الموجودات يعدان بمثابة شاهد على حدوث الموجودات، كما أنَّ حدوثها دليل على وجود خالقها.

هذا الاستدلال - الذي سيرِدُ شرْحُه بالتفصيل مستقبلاً - ورد في الآيات القرآنية بساطة خاصة، وبهذه الإشارة نرجع إلى القرآن الكريم كي نقرأ هذه الآيات:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْنِنِينَ \* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَءَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَقَينَ \* فَلَمَّا رَءَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُوَنَنَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَءَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَتَ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَيْفَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾.

### شرح المفردات:

١- «أَفْل»: و(أَفْلَت) مشتقة من مادة (أَفُول) وتعني الإختفاء كما يقول جمع من اللغويين، ولكن (الراغب) في (المفردات) أكثر دقة حيث يقول: الأَفُول يعني اختفاء الأجسام النيرة كالشمس والقمر، والصحيح هو ما يذهب إليه الراغب، لأنّ هذا المعنى هو المتبادر من إطلاق هذا اللفظ، كما أنه ذو معنى كنائي في بعض المجالات، فمثلاً يعبر عن موت العالم بـ(الأَفُول)، وفي ذلك - في الحقيقة - تشبيه بالشمس أو النجم، والتعبير بالأَفُول والغروب هو بهذا اللحاظ.

٢- كلمة «بازغ» و(بازغة) مشتقة من المصدر (بازوغ) بمعنى الشروق وانتشار النور، كما يذهب إليه الراغب في المفردات فيقول هو في الأصل يعني اخراج دم الحيوان بغية العلاج ثم استعمل بمعنى الطلوع.

أمّا ابن منظور فأنه يقول في (السان العربي): الأصل فيه بمعنى الفتق ويستعمل في موارد فتق العروق في الإنسان أو الحيوان من أجل العلاج وبما أنّ طلوع الفجر وأمثاله يشق ظلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى.

٣- «كوكب»: مشتق من (وكب) أو (كَوْب) وقد فسره الكثير بمعنى (النجم)، ولكن الراغب في المفردات فسره بمعنى (النجم عند الطلع)، وعندما يفسره البعض بمعنى كوكب (الزهرة) فهو من قبيل المصدق الواضح له، لأنّ كوكب الزهرة هو أشدّ النجوم تلاؤاً ولمعاناً. كما يطلق هذا اللفظ أحياناً على الوسيم والجميل، أو الجزء المهم من كلّ شيء، وعلى كبير القوم أيضاً، ولكنها معانٍ مجازية في الظاهر.

أمّا «قمر»: وإن كان معروفاً، ولكن توجد هنا نقطة جديرة بالإلتفات وهي أنّ الكثير من اللغويين صرّحوا بأنّ لفظ (القمر) يطلق في فترة تمتدّ من الليلة الثالثة وحتى الليلتين الأخيرتين من الشهر، وعليه لا يطلق لفظ القمر في الليلتين الأولىين ولا في الليلتين الأخيرتين بل يطلق لفظ (الهلال)، لأنّ اللغويين يعتقدون بأنّ (القمر) و(القمار) من أصل

واحد ويعني الغلبة، وبما أنّ نور القمر في الليلة الثالثة يتغلّب على أنوار النجوم المجاورة، لذا أطلق عليه هذا اللفظ<sup>١</sup>.

«شمس»: هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من الجدير أن نذكر هذه الملاحظة وهي أنّ لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه أيضاً. وبما أنّ الشمس غير ثابتة في السماء وهي في حركة دائبة (بالنسبة لنا سكّان الأرض) لذا يطلق هذا الاصطلاح على الأشخاص الفوضويين والحيوانات الجمودة فتُعرف بـ(الشّموس).

### جمع الآيات وتفسيرها

#### إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوي:

تحدثت الآية الأولى عن إرادة الله سبحانه (ملكت) السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام كي ينبعث اليقين في نفسه بمشاهدتها، وتتجدد الحياة في إيمانه الفطري حيث تقول «وَكَذِلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ»<sup>٢</sup>.

إنّ المقصود من (إرادة ملكت السماوات والأرض) هو مشاهدة حكومة الله ومالكيته لعالم الوجود بمشاهدة الموجودات المتغيرة في هذا العالم [ لأنّ لفظ (ملكت) مشتق من (ملك) بمعنى الحكومة والمالكيّة، وزيادة الواو والتاء للتأكيد ] هذه الحاكمة المطلقة والماليكية المسلمة لله على العالم جاءت بالتفصيل في الآيات اللاحقة، وهذه الآيات - في الحقيقة - جاءت على صورة البيان (الإجمالي) (التفصيلي) وهو من الأساليب القرآنية المعروفة في بيان القضايا المهمّة، ففي البداية تذكر القضية بشكل مغلق كي يستعدّ السامع ثمّ تشرع بشرحها [ التعبير بفاء التفريع في (فلما) إشارة واضحة إلى هذا الأمر ].

١. لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ كتاب العين.

٢. يقول بعض المفسّرين بأنّ في تشبيه الآية إشارة إلى أنّا كما أريناك - يابني الإسلام - ملکوت السماوات والأرض فانا قد أريناها إبراهيم أيضاً (و عليه ففي الآية جملة مقدّرة).

على أية حال فإنَّ القرآن اعتمد تبيان هذا الإجمال في الآيات اللاحقة، فبدأ أوَّلًا بالنجوم وبينَ استدلال إبراهيم عليه السلام في إبطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي».

التعبير بـ«رأى كوكبًا» مع أنَّ نجومًا كثيرة تظهر في الليل - فيه إشارة إلى نجم كبير ولا يخفى على نظره إليه، وبما أنَّ كوكب (الزُّهرة) يظهر أوَّل الليل و(كوكب) يعني (النجم عند طلوعه) يتعرّز بذلك التفسير الذي يميل إليه أغلب المفسّرين وهو أنَّ النجم كان الزُّهرة أو المستري للذين كانوا يعتبران في العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركيين، ويؤيد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في إحدى الروايات بأنَّ هذا النجم هو كوكب الزُّهرة.

على كل حال فإنَّ هذا النجم لم يدم طويلاً حتى أفل، فقال إبراهيم عليه السلام: «... لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ».

مرة أخرى التفت إبراهيم إلى بزوج (القمر) من وراء الأفق فأضاء السماء والأرض بنوره الأخاذ والجميل فقال إبراهيم عليه السلام: «هَذَا رَبِّي».

ولكن لم يدم طويلاً حتى تعرض القمر إلى مصير النجم واحتفى وراء الأفق وعادت السماء مظلمة، (عندئذ قال إبراهيم عليه السلام) الذي كان يسعى للوصول إلى حقيقة وكنه المعبود: «لَئِنْ لَمْ يَهِدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ».

وبهذه الطريقة تبيّن أنَّ سعي الإنسان لا يكفي للوصول إلى الحقّ، بل يجب أن يتعزز بالعون والعناية الإلهية وهي لا يكون من الضالّين، ومن المؤكّد أنَّ هذا الإمداد والعون يشمل الذين يجهدون أنفسهم في ابتغاء الحقّ، وطلب معرفة الله سبحانه وتعالى.

وأخيراً انتهي الليل، وأخذ الظلام يلم ستائره التي أسدلها على السماء، ويزغت الشمس فجأةً بوجهها النّيّر المتلائِي من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية على الجبال والصحراري، «فَلَمَّا رَأَ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ».

١. «الشمس» وإن كانت مؤثِّرةً مجازياً ويجب أن يشار إليها بـ(هذه) ولكن نعلم أنَّ قضيّة المذكورة والمؤثِّرة سهلة وهنا يمكن أن يكون (هذا) إشارة إلى (الموجود) أو (المشاهد).

ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس في جوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب الغروب، نادى إبراهيم عليه السلام: «يَا قَوْمٍ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ». لقد فهم إبراهيم عليه السلام من خلال مشاهدته لغروب الشمس وأفول النجم وغياب القمر، بأن كل ما رأى ما هي إلا مخلوقات خاصة لقوانين الخلقة كالافول والغروب والتغيير، وفهم بأن هناك قوة خفية لا يعترف بها التغيير والغروب والأفول أبداً، وهذه القوة تتمثل بالذات الإلهية المقدسة.

٤٥٥

وقال: إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي إِلَى مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا أَذْعُنْ لِلشَّرِكِ أَبْدًا، إِنِّي مُوَحَّدٌ كَامِلُ التَّوْحِيدِ وَعَابِدٌ وَعَبْدٌ مُخْلِصٌ: «إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

هل وقعت الحوادث الثلاثة في ليلة واحدة أم في ليتين؟

قال بعض المفسّرين -نظراً لعجزهم عن تصوّر وقوعها في ليلة واحدة -أو في ليتين، فقد قالوا إنّ ظاهر الآيات يدل على أنّها تعاقبت في ليلة واحدة ونهار واحد وهذا ممكناً تماماً، لأنّ كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح في أول الليل ثم يأفل سريعاً، ثم يظهر القمر بدراً من أفق الشرق [والتعبير بـ(بازغ) يدل على أنّ القمر كان بدراً أو قريباً منه] وعندما يختفي القمر في أفق الغروب لا تلبث الشمس حتى تشرق، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت في ليلة واحدة ونهار واحد.

وهذا الأمر ليس مهمّاً، المهم أن نعرف هو كيف يمكن لشخص مثل إبراهيم عليه السلام وبهذه المكانة العلمية والعرفانية ومع الأخذ بنظر الاعتبار عصمة ومقام الأنبياء وحتى قبل بعثتهم، أن يجري على لسانه مثل هذا الكلام والذي يحمل في طياته شركاً ظاهراً؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال بطريقين:

الأول: بقرينة الآيات الواردة حيث يقول: «يَا قَوْمٍ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشَرِّكُونَ» يُفهم أنه كان

في حالة التحدث والكلام والجدال مع المشركين ونعلم أنّ مدينة بابل كانت تضم عبادة النجوم والقمر والشمس.

إنَّ المعلمُ الذكي والمتحدثُ الماهر عندما يواجه المعارض اللجوح المعاند فلا يقابله بمعارضة عقیدته فوراً بل يماشيها فترة، وبتعبير آخر يتحرّك مع الموجة قليلاً ثم يركبها، وبهذا النحو يكون إبراهيم عليه السلام في بداية الأمر معهم ظاهراً لكي يريهم ضعف عقیدتهم ومنطقهم عند أقول هذه الأجرام السماوية، وهذا الأسلوب في النقاش مؤثّر ونافذ ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما لا إبراهيم عليه السلام من مقام في التوحيد والمعرفة.

في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في جوابه للسأمون الذي كان يعتقد بتعارض هذه الآيات مع عصمة الأنبياء آنه قال: «...إنَّ إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس... وكان قوله هذا على الإنكار والإستخارا...».<sup>١</sup>

والتفسير الآخر هو أنَّ إبراهيم عليه السلام ألقى هذا الكلام بشكل فرضي، والمحقّقون يواجهون ذلك في الغالب عند التحقيق.

لإلباش نقول: يتوصّل الإنسان تارةً إلى قضية ما عن طريق الاستدلال الوجданـي وال Shawāhid al-fatiriyah ولتكنه ي يريد أن يجعلها في إطار البرهان العقلي، فيستعين بفرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كل فرضية حتّى يصل إلى ما يريد.

فمثلاً: يتوصّل المحقق إلى أصلـة الروح بوجـدانـه ويرغـب في إقامة البرهـان على ذلك فيفترض الروح مادـية أو أنـّ المادـية من خواصـها ثمـ يدرس اعراضـ المادـة وخواصـها ومستلزمـاتها فيصلـ أخيرـاً إلى أنـّ المادـية (أو اعراضـ المادـة) لا تنسـجم مع الظواهرـ الروحـية فـينـفيـهاـ الواحـدةـ تـلوـ الـأـخـرىـ حتـىـ يـبلغـ تـجـرـدـ الـروحـ.

وإبراهيم عليه السلام أيضاً ولـكي يـسلـك طـريقـ التـوحـيدـ المنـطـقيـ والـذـيـ توـصلـ إـلـيـهـ بـوضـوحـ فـيـ أـعـماـقـ روـحـهـ يـفترـضـ فـرـضـيـاتـ مـخـلـفةـ وـيـقـولـ (ـهـذـاـ رـبـيـ)ـ وـ(ـهـذـاـ رـبـيـ)ـ ثـمـ يـصـلـ إـلـيـ بـطـلـانـ

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام باختصار، بنقل من تفسير الميزان، ج ٧، ص ٢١٤.

هذه الاحتمالات بافولها وغروبها حتى يقول أخيراً: «إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهَيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»<sup>١</sup> ويكمel توحيده المستدل.

ونلاحظ في بعض الروايات إشارات خفيفة إلى هذا المضمون، كما نقرأ عن الإمام الصادق ع عليهما السلام قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» الآية في حديث طويل... وفي آخره يقول الراوي: قلت له: أفي ضلال كانوا قبل النبي أم على هدى؟

قال ع عليهما السلام: «لم يكونوا على هدى بل كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبدل لخلق الله، ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهدى لهم الله أما تسمع لقول إبراهيم ع: (الَّذِي لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) أي ناسياً للميثاق».<sup>٢</sup>

ولكن القراءن الموجودة في الآيات والروايات التي وردت عن الإمام الرضا ع في هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الأول.

٤٥٦

### العلاقة بين الأفول والحدوث:

لقد استدل إبراهيم ع بافول الكواكب والشمس وغروبها على نفي الوهيتها، وقال بأن هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلة للعالـم، والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة؟

تـو جـدـ هـنـاـ آـرـاءـ مـخـتـلـفـةـ:

١- (الأفول) عـلامـةـ التـغـيـيرـ، بل هو لـونـ منـ التـغـيـيرـ، والتـغـيـيرـ دـلـيلـ عـلـىـ نـقـصـ المـوـجـودـ، لأنـ المـوـجـودـ الـكـامـلـ منـ كـلـ جـهـاتـهـ لـاـ تـتـصـوـرـ فـيـ الـحـرـكـةـ وـلـاـ التـغـيـيرـ لأنـهـ لـاـ يـفـقـدـ شـيـئـاـ وـلـاـ لـحـنـ الـآـيـةـ.

١. وردت احتمالات أخرى في تفسير الآيات أعلاه منها الإستفهام الإستنكاري والإستفهام بقصد الإستهزاء وأمثاله، وخاصة في تفسير التبيان وتفسير الفخر الرازي حيث أوردا احتمالات عديدة، ولكن لا ينسجم أي منها مع لحن الآية.

٢. تفسير نور التقلين، ج ١، ص ٧٣٦، ح ١٤٨.

يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق، وعلى ذلك فإنّ الموجودات المتغيرة والمتحركة تكون ناقصة حتماً فهي إما تفقد كمالاً، أو أنها تبحث عن كمال جديد، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

٢- الموجود المقرن بـ(الأفول) معرض للحوادث، وكلّ ما كان معرضاً للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزلياً وواجب الوجود لاستلزمـه الجمع بين (الحدوث) والأزلية وبين هاتين الظاهرتين حالة من التضاد.

٣- كل حركة تحتاج إلى محرك من الخارج، فإن كان ذلك المحرك متحركاً فعلينا أن نبحث عن محرك آخر حتى نصل إلى وجود ليس فيه حركة مطلقاً.

٤- الحركة - وخاصّةً الحركة نحو الأفول - دليل على أنّ عالم المادة صائر إلى الفناء [وهو أصل الكهولة والأنتروبى] الذي سنُشير إليه [ وكلّ ما كان مصيره الفناء لا يكون أبداً حتماً، ومثل هذا الموجود لا يكون أبداً قطعاً، وبذلك لا يمكن أن يكون واجب الوجود. إنَّ كلَّ واحدة من هذه الاستدلالات التي ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على استدلال النبي إبراهيم عليهما السلام بها، ويمكن أن يكون كلام إبراهيم إشارة طريفة إليها جمیعاً. ينقل (الفخر الرازي) عن بعض المحققين: أنَّ استدلال إبراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الخاصّة والمتوسّطين والعوام.

أَمَا الْخَاصَّةُ فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ (الإِمْكَان) مِنَ (الْأُفْوَلِ) وَكُلُّ مُوْجَدٍ مُمْكِنٌ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى خَالِقٍ، وَهَذِهِ السَّلْسَلَةُ مُتَّصِّلَةٌ حَتَّى تَنْتَهِي بِالظَّاهِرِ الْمُنْتَهَى مِنَ الْإِمْكَانِ وَلَا سَبِيلٌ إِلَى ذَاتِهِ، كَمَا نَقَرَأُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ». (النَّجْم / ٤٢)

ومن هنا يتضح لماذا لم يستند إبراهيم عليه السلام إلى طلوع هذه الكواكب مع أنّ الطلع والغروب كلاهما مصداقان للحركة؟ وذلك لأنّ ظاهرة الروال والفناء وانقطاع الفيض والبركة يشاهد في الغروب تماماً في حين لا يشاهد ذلك في الطلع.

وعليه فإنّ الصراحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الإعتماد على (الغروب) لكي تتوضّح القضية أكثر، وتكون مقبولة تماماً لدى جميع الطبقات، وهذه النقطة جديرة باللحظة أيضاً وهي أنّ الحركة - كما سيأتي - لها أنواع وأوضاعها هي (الحركة في المكان) وقد استند إليها في الآية (الحركة المكانية هنا مقترنة بالحركة الكيفية، لأنّ كيفية النور في هذه الكواكب تتغيّر مع الحركة وتكون ضعيفة النور عند الغروب حتى تختفي عن الأنظار).

٤٥٥

يعتقد بعض الفلاسفة أنّ هذه الآية تتضمّن إشارة إلى برهان الحركة حيث يقول تعالى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ» (النمل / ٨٨).

فيقول أولئك بأنّ هذا التعبير ناظر إلى (الحركة الجوهرية) وهي الحركة التي تكون في ذات الأشياء وباطنها، الحركة التي تدلّ على أنّ عالم المادة بأجمعه حادث ويحتاج إلى خالق [ سيأتي شرح هذا الكلام في باب الإيضاحات بإذن الله] ولكن بناءً على أنّ الآية ناظرة إلى حقيقة (الحركة الجوهرية) فأنّها لا تشير إلى الاستدلال التوحيدية ولا إلى الاستفادة من ظاهرة الحركة لإثبات وجود الله (تأمّل جيداً).

ويعتقد أغلب المفسرين بأنّ هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة (أشراط الساعة هي الأحداث المرئية التي تحدث عند قيام القيمة وخاصة تحرك الجبال وتلاشيه ثمّ صيرورتها غباراً كما جاء في آيات عديدة من القرآن الكريم).<sup>١</sup>

ولكن كما قلنا في التفسير الأمثل: إنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأنّ تلاشي

١. للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية ٨٨ من سورة النمل.

الجبال قبيل قيام الساعة مروّع إلى درجة يجعل الإنسان يعيش وحشة عظيمة في حين تقول الآية **بأنك لا تعلم بحركة الجبال**.

ولهذا نعتقد أنّ الآية تشير إلى حركة الجبال المواكبة لحركة الأرض في الدنيا وتشبيها بحركة السحاب، وجملة (ترى) فيها إشارة إلى الوضع الموجود والتعبير بـ«**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقْنَ كُلَّ شَيْءٍ**» وذيل الآية: «**إِنَّهُ خَيْرٌ مِّا تَفْعَلُونَ**» كلاماً دليلاً على أنّ الآية ترتبط بحركة الجبال في هذه الدنيا<sup>١</sup>.

ويعتقد البعض الآخر بأنّ الآية ٢٩ من سورة الرحمن: «**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ**» إشارة إلى مسألة الحركة الجوهرية التي يمكن عن طريقها الوصول إلى وجود الله (عن طريق برهان الحركة).

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة أيضاً، بل إنّ ظاهرها هو أنّ الله يخلق كلّ يوم أمراً جديداً، خلقه دائم ومستمر، وهو يتذكر في كل زمان أمراً جديداً، ويقدّر كلّ يوم نعمة جديدة، وعمله هو الإستجابة لقضاء حاجات السائلين. كما أنّ الظاهر من تعبير الآية وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها هو ما ذكر أيضاً تحدّثنا عن هذا الموضوع مفصلاً في التفسير الأمثل<sup>٢</sup>.

ويستنتج من مجموع ما تقدم أنّ أبرز الآيات الدالة على برهان الحركة هي آيات إبراهيم عليه السلام التي استدلّ بها على نفي الوهية النجم وذلك بافولها وغرروبها واحتياجها إلى الخالق كذلك.

## ٤٥٣

### توضيحات

#### ١ - برهان الحركة ومقدّماته

الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية استخدامه في مسألة إثبات وجود الله يقتضي ملاحظة الأمور التالية إجمالاً:

١. لاحظ التفاصيل في التفسير الأمثل، ذيل الآية ٨٨، سورة النمل.

٢. التفسير الأمثل ذيل الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

- أ) تعريف الحركة.
- ب) وجود الحركة.
- ج) أركان الحركة.
- د) المقولات التي تقع فيها الحركة.

### أ) تعريف الحركة

ذكرت عدّة تعاريف للحركة، أوضحتها التعريفان الآتيان.

- ١ - خروج الشيء من القوّة إلى الفعل بصورة تدريجية.
- ٢ - الزوال والحدث المستمرّ.

عندما تساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هي إما أن ينبت نبات أو ينضج ثمر تدريجياً، وفي هذه الموارد كلّها يكون للجسم وضع فعلي كما أنّ له القابلية في ذات الوقت لاتّخاذ وضع آخر، وعندما يفقد الوضع الموجود تدريجياً ويتبّلّ وضعًا جديداً (ما كان فيه بالقوّة يصبح فعليّاً) فإنّ ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال، غير أنّ هذا لا يعني أنّ الحركة مركبة من أجزاء إسمها (السكون) أو أنها مركبة من (الوجود) و(العدم) بل إنّ الحركة أمر واحد مستمر في الخارج وله أجزاء في التحليل العقلي.

مما قدمنا يمكن استنتاج أنّ الشيء إذا كانت له فعلية تامة وجود مطلق فلا تتصور فيه الحركة، بل سيكون ذا ثبات تام، وبتعبير آخر أنّ الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان، وعليه لا توجد في ذات الله سبحانه حركة على الإطلاق.

### ب) وجود الحركة

لا نواجه مشكلة مهمة في إثبات الوجود للحركة فذلك من الأمور البدائية، حيث نلاحظ بأمّ أعيننا وبوضوح ونحسّ بحسناً الأخرى باستمرار وجود حركات في الخارج،

وعليه فإنّ أدلة المنكرين لوجود الحركة ومنهم (الفيلسوف اليوناني ذنون وأتباعه) لا قيمة لها وأنّها تواجهه أمراً بدبيهاً، وذلك لأنّنا لا يمكن أن نعتبر الماء الجاري في النهر، أو التفاجة التي تنضح في الشجرة تدريجياً، أو عندما نركب السيارة ونسافر من مدينه إلى أخرى أمراً خيالية قد ابتليتنا بها، وأنّها أمور ذهنية وليس خارجية لأنّ هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات، ونحن في غنى عن الاستدلال لإثبات ذلك.

ولكن لا يمكن إنكار أنّ فهم الحركة بدون قوّة حافظة أمر غير مقدور، لأنّ الحركة لا يمكن إدراكتها بإحساس آني لأنّها أمر تدريجي.

### ج) أركان الحركة

ذكر الفلسفه ستة أركان للحركة:

١ - المبدأ ٢ - الغاية ٣ - المحرك ٤ - المتحرك ٥ - موضوع الحركة ٦ - زمن الحركة  
(ستعرف أنّ الزمان ليس سوى مقدار الحركة) وبتعبير آخر أنّ الزمان وليد الحركة وليس والدها).

وسنرى أيضاً أنّ هذه الأركان الستة تطابق نظرية شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإنّها لا تحتاج موضوعاً للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

### د) مجالات الحركة

كان الفلسفه في السابق يعتقدون بأنّ الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسعة مقولات عرضية هي<sup>١</sup>.

- ١- الحركة في (المكان)، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق.
- ٢- الحركة في (الكمية) نظير زيادة حجم النبات النامي.

<sup>١</sup>. المقولات العرضية التسع هي: الكم، الكيف، الوضع، المتنى، الأين، أن يفعل، أن ينفع، ملك، والإضافة وشروطها في حالها.

٣- الحركة في (الوضع) نظير حركة الأرض حول نفسها.

٤- الحركة في (الكيفية) نظير التغيير التدريجي في لون وطعم ورائحة الفاكهة في الشجرة.

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في غير هذه الموضوعات الأربع (غير ممكنة في جوهر الأشياء من باب أولى) فكان فلاسفة اليونان لا سيما (ارسطو) وأتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وأخرون يعتقدون باستحالة الحركة في الجوهر، وكما قلنا في البحث الماضي: إنهم كانوا يتصورون أن ذات المتحرك هي من أركان الحركة، ويعتقدون بأن الحركة لا مفهوم لها ما لم يوجد ثابت ينعرض للحركة.

ولكن صدر المتألهين (الفيلسوف الإسلامي الشهير) قدم نظرية جديدة وقال: بأن الحركة في الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن أن توجد حركة في الاعراض مالم تكن مستندة إلى حركة في الجوهر.

وبتعبير آخر إن (الحركات العرضية) تنشأ من (الحركة في الجوهر)، قال صدر المتألهين: لماذا نفترض هنا أمراً ثابتاً؟ وما المانع من أن يكون (الجوهر) متحركاً في ذاته؟ بمعنى أنه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً جديداً.

هذا الموضوع يبدو عجياً لأول مرة - طبعاً - لأنّه يستلزم أن يكون (المتحرك) مع (الحركة) شيئاً واحداً، وأن يكون الموجود نفسه شيئاً لتحركه، لكنه يقول: لو دققنا قليلاً لو جدنا أنّ الأمر ليس عجياً فحسب بل هو أمر لازم وملفت للنظر أيضاً.

ويصرّ صدر المتألهين على أنّ أصل الحركة الجوهرية موجود في أقوال السلف ويدركه إلى أبعد من ذلك حيث يستعين بآيات قرآنية كشواهد على هذا الموضوع (كي لا تكون حداثة هذه النظرية سبباً لنزاع المعارضين كما هو الحال في آية نظرية جديدة).

ولو افترضنا أنّ هذه النظرية ليست جديدة، غير أنّ عرضها بهذه السعة يعتبر أمراً جديداً.

## ٢- أدلة وجود الحركة الجوهرية

يعتقد صدر المتألهين بأنّ الوجود على صورتين:

١- الوجود مستقرٌ وثابت وعديم الحركة مطلقاً لا في ذاته أو صفاتاته.

٢- الوجود سبّايل ومتّموج في ذاته، أي أنّ السيلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار، وقد يلاحظ هذا الإضطراب الذاتي بوضوح في اضطراب الأعراض، وقد لا يلاحظ تغيير في ظاهر الذات في حين تتجدّد في باطنها باستمرار.

وبتعبير آخر إنّ هذه الموجودات السبّالية لها وجود جديد في كل آن، وهي أشياء جديدة، ولكن هناك لون من الاتصال بينها يجعلها تبدو كوجود واحد.

وقد ذكر المناصرون لـ(الحركة الجوهرية) أدلة لإثبات مرادهم، وإن لم يسمح المجال ببيان هذه القضايا، غير أنّنا نشير إلى ثلاثة أدلة رئيسية هي:

١- من القاعدة القائلة (كلّ ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات)، هناك أصل عام وهو أنّ كلّ موجود استعار صفة من غيره وأنّها لا بدّ أن تنتهي إلى مصدر تنشأ منه، وبدون ذلك سنواجه مشكلة (السلسل)، أي أنّ الحرارة في الماء الحار مستعارة ولا بدّ لها أن تنتهي إلى النار التي تولّد الحرارة من ذاتها.

بناءً على هذا الأصل فإنّ الحركة التي نلاحظها في أعراض الجسم (نظير الكمية والكيفية) لا بدّ لنا أن نعرف أنّ هذه الحركة ناشئة من اضطراب الذات والباطن، فمثلاً: لو كانت التفاحة ثابتة في ذاتها ومستقرّة فكيف إذن يتغيّر لون أعراضها؟ هذه الحركة الظاهرة إذن تخبر عن حركة الداخل.

٢- كلّ (معلول متغيّر) بحاجة إلى (علة متغيرة)، فلو جلسنا في ظلّ شجرة في بستان ولاحظنا التحرّك المستمرّ للظلّ فالواجب أن نعلم أنّ علته وهي أشعة الشمس في حالة تحرك، ومن هناك ندرك الحركة في ذات الجسم عن طريق الحركة في أعراضه.

٣- الزمان دليل آخر على الحركة الجوهرية، لأنّنا نلاحظ جيداً أنّ حوادث العالم لا تكون مجتمعة، فحوادث اليوم تتحقّق بعد حوادث أمس وقبل حوادث غد، وهذا أمر واقعي،

وهذا الاختلاف هو ما نطلق عليه عنوان تفاوت (الزمان). من خلال نظرة سطحية وابتدائية للزمان فانه يبدو واقعاً مستقلاً عن الموجودات ووعاء للحوادث، ولكن لو افترضنا - ولو للحظة واحدة - عدم وجود الموجودات المادية لوجودنا أنّ الزمان لا مفهوم له، وبتعبير أوضح (الزمان) (وليد المادة) أو (الزمان) هو (مقدار الحركة). ومن جهة أخرى إذا اعتقדنا بأنّ الموضوعات التي تقع فيها الحركة تنحصر في الموضوعات الأربع السابقة فانه يعني أنّ الموجود الفاقد لهذه الحركات، أي لا يلحظ وجود للحركة في ظاهره، فإنّ هذا الموجود ينبغي أن لا يكون زمانياً، في حين أنّ وجودنا يحكم بأنّا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية، وليس ذلك إلا لأنّ المادة ذات حركة في ذاتها الـكي تتقبل أجزاء الزمان.

هذه هي أهم الأدلة لدى أنصار الحركة الجوهرية وقد اعتمدنا الاختصار في عرضها. وهناك سؤال لا يزال قائماً عند البعض: كيف يمكن أن نتصور أنّ (المتحرك) هو عين (الحركة) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً؟ وكيف يمكن التصديق بشيء يكون تصوّره محل سؤال؟

والعجب أنّ القائل بالحركة الجوهرية بنفسه تملكه الحيرة أمام هذه المعضلة العويصة، وتتبادر أقواله مما يدلّ على أنّ حلّها غير يسيراً.

وباختصار أنّ أبحاث الحركة الجوهرية بأجمعها تتفرّع عن قابلية تصوّر الحركة بدون موضوع، ويقول البعض: إنّ هذا أمر غير معقول، كما يعتقد البعض أنّ تصوّر هذا المعنى يتضيّي إخلاء الذهن والإبتعاد عن المفاهيم التي يأنس الإنسان بها في مجال الحركة حتى يتصور وجوداً هو عين الحركة والمتحرك والحركة واحدة، كانت هذه خلاصة عن أبحاث الحركة.

١. للمزيد من المعرفة حول هذا الأمر راجع كتاب الأسفار في بحث الحركة أو دروس المرحوم الشهيد مطهري حول بحث الحركة في الأسفار، ج ١، ص ٤٧.

### ٣- إثبات وجود الله بواسطة برهان الحركة

لا شك في أن الحركة لا تنحصر في الحركة الجوهرية، ولذا لا يتحدد برهان الحركة لإثبات ذات واجب الوجود ببحث الحركة الجوهرية، على الرغم من أن برهان الحركة -بعد الإيمان بالحركة الجوهرية - أكثر وضوحاً في معرفة الله، ومن أجل ذلك نقول: إن الحركة الجوهرية تقول بأن عالم المادة بأسره عبارة عن حركة، أي أنه في حالة حدوث وتجدد متواصل، وله في كل آن وجود جديد، وهذا الحدوث المستمر يثبت الإرتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث، أي أنه يثبت الأزلية والأبدية لواجب الوجود. وبتعبير آخر: إن العالم في حال (صيروحة) دائمة لا (كينونة)، وليس ذلك في الأعراض فحسب بل هو متصل في أعماق ذاته، ولذا يكون محتاجاً إلى المبدأ باستمرار لكي يخلقه كل آن.

من خلال هذا البحث يمكن التوصل إلى نتيجة ظريفة وهي أن خلق العالم لم يحدث في البداية ثم انتهى، بل إن عملية الخلق مستمرة في كل آن، ولذا فإن حاجة العالم إلى علة أزلية، أبدية لم تكن في البداية فقط، لأنّه في حالة حدوث وخلق مستمر وفي كل آن، وهذا المعنى كامن في أعماق مفهوم الحركة.

ولهذا فبواسطة الحركة الجوهرية يثبت حاجة العالم إلى واجب الوجود عند نشوئه و حاجته إليه في البقاء تبقى قائمة ومستمرة أيضاً، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية فإنه لا مفهوم للبقاء أصلاً والحدث دائم، غير أنه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتصال مصطلح البقاء.

هنا يمكن أن نذكر تشبيهاً ناقصاً لكيفية ارتباط الأشياء بالمبدي الأزلي للعالم وهو أن الموجودات في العالم تشبه المصابيح التي يتواصل وجودها من خلال ارتباطها بالمصدر الكهربائي، وبما أن النور يتجدد في كل آن فاته حاجة إلى العلة في كل آن والتعرف على كيفية انبعاث النور في المصابيح يكفي لمعرفة حاجتها المستمرة للمصدر المولد للطاقة الكهربائية.

صحيح أنّ (برهان الحركة) له علاقة بـ(برهان الإمكان والوجوب) غير أنّه يُبحث بصورة مستقلّة من أجل الحصول على صورة جديدة عنه.

٤٥٥

#### ٤- العالم متغير وكلّ متغير حادث

استند الكثير من المتكلّمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التغيير) لإثبات وجود الله دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لأنّ التغييرات التي تشاهد في ظاهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لإثبات آرائهم.

و لتوسيع ذلك نقول: لا يبقى في عالم المادة شيء على حالة واحدة، فكلّ الأشياء - دون استثناء - في حالة تغيير.

ومن جهة أخرى، أنّ التغيير والحركة حادثان، وبما أنّ المادة متعرّضة لهذه التغييرات والتحولات دائماً فينبغي أن تكون حادثة أيضاً فمن غير الممكن أن تكون المادة أزلية و تتعرّض للحوادث والتغيير منذ الأزل لأنّ ذلك يستلزم اجتماع (الحوادث) و(الأزلية) وهم متضادان كما نعلم.

إنّ هذا الاستدلال ومن خلال ملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادة يردّ بصورة أوّضح، فكلّ مادة - وفق النظرية الفيزيائية الجديدة - تتربّك من ذرّات، والذرّة عبارة عن مجموعة من الحركات، وكلّ حركة حادثة، فالمادة - إذن - والتي هي عبارة عن مجموعة حركات (الإلكترونات) و(البروتونات) لا يمكن أن تكون أزلية، وبعبارة أخرى أنّ كلّ حركة لها بداية ونهاية، وكلّ ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً.

هذه المسألة جاءت بشكل ملفت للنظر في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في مناظرة مع (ابن أبي العوجاء) حيث قال له الإمام عليه السلام: أسأل ما شئت، فقال (ابن أبي العوجاء): ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال الإمام عليه السلام: «إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضمّ إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال

ولا حال، لأنَّ الذي يزول ويتحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدث والقدم والعدم في شيء واحد<sup>١</sup>.

٤٥٥

## ٥ - حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

لقد ثبت في البحوث العلمية الحديثة [ خاصة بحوث (الترموديناميك) والقانون الثاني المعروف بقانون (الانتروبي) أو ما يسمى (بالكهولة) أو (الاضمحلال) ] ثبت: «أنَّ الحرارة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الباردة دائمًا ولا يحدث العكس بنفسه أبدًا، وإنَّ الطاقة هي نسبة الطاقة التي لا يمكن الانتفاع بها إلى الطاقة القابلة للانتفاع، ومن ناحية ثانية نحنُ نعلم أنَّ هذا الإنتقال والانتروبي في العالم في حالة تزايد، فلو كان العالم أزلًا وكانت الحرارة في الأجسام كلُّها متساوية منذ عصور قديمة ولم تبق طاقة نافعة وبالتالي لم يتحقق في العالم أي فعل أو تفاعل كيميائي، ولا ستحالت الحياة على الأرض، لكننا نلاحظ بأنَّ التفاعلات الكيميائية مستمرة والحياة على الأرض ممكنة، ولذا فإنَّ العلوم تثبت البداية للعالم - دونما قصد - وبهذا تثبت ضرورة وجود الله نظرًا إلى أنَّ الحادث لا يحدث لو حده بل يحتاج إلى المحرِّك الأول<sup>٢</sup>.

والطريق الآخر الذي سلكوه لإثبات الحدوث للعالم هو التحقيق في الأجسام (المشعة) (و هي أجسام لها ذرات غير مستقرة وهي حالة اضمحلال وزوال مستمر حتى تتبدل إلى ذرات مستقرة، ولها عدد ذري أكبر من ٨٠!) تكون على شكل أجسام ثقيلة وغير مستقرة، وفي حالة إشعاع ذري، وكأنَّها تلقى بنفاذاتها إلى الخارج حتى تتحول إلى عناصر مستقرة. إنَّ وجود هذه العناصر في الطبيعة دليل على أنَّ العالم حادث ذو تاريخ، وكما يقول

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٤؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٧٧ باب حدوث العالم.

٢. كتاب إثبات وجود الله، لادوارد لوثر كيسيل، ص ٥٥ (باختصار طفيف).

المفكّر الشهير (دونالد روبرت كار) والمتخصص في (الكيمياء الحياتية) كاتب كتاب (الأرض) وهو كتاب يعيّن عمر الأرض بحساب كاربون الإشعاع الطبيعي: «لو كان العالم أزلّياً وأبدّياً لما وجدنا عنصراً مشعاً وذلك لتبدلّه إلى عناصر مستقرّة»<sup>١</sup>. ونستنتج من ذلك أنّ العلوم الطبيعية تثبت حدوث العالم أيضاً بطرق مختلفة، ومن هنا تتّضح ضرورة وجود خالق أزلّي أبدّي لتفسير ظهور عالم الوجود.

وبتعبير أوضح: إنّ اضمحلال المادة (الانتروبي) دليل على أنّ للعالم تاريخاً ينبيء عن بداية حدوثه، فلو كان عالم المادة أزلّياً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود، ول كانت الحرارة فيه متساوية وأنعدم النشاط فيه وتعرّض للفنا.

ويشبه هذا إذا وضعنا وعاء مليئاً بالماء الحارّ في غرفة، فما دامت الحرارة في الوعاء تختلف عن حرارة الجو فإنّ الهواء حوله يكون متحرّكاً باستمرار ويزداد حرارة ويتتصاعد إلى الأعلى ويحلّ محلّه الهواء المجاور له وهذا يحدث حركة مستمرة في الفضاء المجاور، وعندها تتساوى الحرارة في الغرفة فلن تكون أية حركة.

وهذا هو مصير العالم أخيراً، والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه، أي أنّ له تاريخ ظهور وحدث.

وهو يشبه الأواني المستطرقة المتصلة فإذا سكينا الماء في أحدها فانّه سوف يتتحرّك في الأواني كلّها حتّى يتتساوی فيها وبذلك يحلّ السكون، ويقول العالم الفلكي (استونتر): «قام العلم باحتساب أعمار الكثير من الأشياء مثل: عمر الأرض، والصخور الشهابية، والقمر والشمس، والمجرّة وأخيراً عمر الدنيا، والعمر اللازم - لتركيب العناصر المختلفة وتفكّكها - وظهر أنّ هذه الأعمار متقاربة وتقدّر بـ ٦٠٠ مليون سنة منذ بداية حدوث العالم»<sup>٢</sup>.

١. كتاب إثبات وجود الله، لادوارد لوثر كيسيل، ص ١٥٥.

٢. المصدر السابق، ص ١٦٠.

وفي الختام نعود لنقول: إنّ حديث إبراهيم عليه السلام في الآيات المذكورة يستهدف مسألة إثبات وجود الله عن طريق الحكم العقلي القائل بأنّ الشيء المتغير لا يمكن أن يكون خالداً وإن كانت براهين أخرى للحركة كامنة في طيات استدلال إبراهيم عليه السلام.

## ٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)

### تمهيد:

استدل الفلاسفة والمتكلمون (علماء العقيدة) بأدلةٍ مختلفة لإثبات وجود الله سبحانه، والبعض منها ذات أصول مشتركة، ومن هذه الأدلة برهان (الوجوب والإمكان) وبرهان (العلة والمعلول)، وستأتي تفصيلاً تهماً تباعاً بإذن الله.

وبما أنّ هذه الاستدلالات تكون ذات شروح مختلفة لذا فإنّا نشير إليها بصورة مستقلّة مع الإشارة إلى أصولها المشتركة.

إن الأساس في برهان «الوجوب والإمكان» أو «الغنى والفقر» يرتكز على مبدأ حاجة وفقر المخلوقات، فعندما ننظر إلى أنفسنا وسائر الموجودات في العالم، نراها دائماً في حالة عوزٍ وحاجة، فالحاجة إلى ماحولها يكاد يكون أمراً بدبيهاً.

إن الحاجة والفقر الشامل في هذا العالم يدل على وجود مصدر عظيم للغنى وعدم الحاجة، وهذا المصدر نطلق عليه لفظ الجلالة «الله» سبحانه وتعالى<sup>١</sup>.

وبعبارة أخرى إنّا نجد كلّ موجود في هذا العالم تابع، ولا يمكن لهذه التبعية أن تكون إلى ما لا نهاية، والعالم عبارة عن مجموعة من التبعيات، مما يدلّ على وجود ذات مستقلّة قائمة بذاتها في هذا العالم تتبعه هذه (التبعيات) وتستند إليها.

بعد هذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لتأمل خاسعين في الآيات التالية:

---

١. التعبير بـ«إن الله غني حميد» وأمثاله جاء في عشر آيات قرآنية، في البقرة، ٢٦٧؛ إبراهيم، ٨؛ الحجّ، ٦٤؛ لقمان، ١؛لقمان، ٢٦؛ الحديد، ٢٤؛ الممتحنة، ٦؛ التغابن، ٦؛ النساء، ١٣١؛ والآية أعلاه كما أنّ وصف الله بالغنى ورد في آيات أكثر عدداً، وهذا التأكيد والتكرار القرآني في هذا الصدد يحكي أهمية المضمون في هذا التعبير.

- ١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . (فاطر / ١٥)
- ٢- ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ . (محمد / ٣٨)
- ٣- ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ ﴾ . (الرحمن / ٢٩)

### شرح المفردات:

(فقراء) جمع (فقير)، وأصله كما يقول (الراغب) في (المفردات) هو الذي كسرت فقرات ظهره، وبما أنّ البوسائ يشبهون حال من تعرض لكسر الفقرات لذا أطلق عليه هذا المصطلح. كما أنّ (مسكين) مشتق من (السكون) ويعني العجز عن المشي ولذا أطلق على الفقراء المعدمين، ولذا تطلق كلمة (فاقرة) على الحادثة أو المصيبة العظيمة التي من شأنها أن تهشم الفقرات.

وقد ورد في (مجمع البحرين) بأنّ (فقير) يُطلق على الذي هو أفضل حالاً من (المسكين)، ولذا قيل لرجل في الصحراء أفقير أنت؟ قال: لا والله بل مسكين<sup>١</sup>. وعلى أيّ حال فانهم ذكروا - (الفقر) أربعة معانٍ هي:

- ١- الحاجة الضرورية التي تشمل جميع البشر بل كلّ الموجودات في العالم، والآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يذهبون إلى أنها تشير إلى ذلك.
- ٢- الإحتياج إلى الحد الأدنى من مستلزمات الحياة، ويعتقدون أنّ الآية: «إِنَّ الصَّدَقَاتِ لِلْفُقَرَاءِ...» تشير إلى ذلك.
- ٣- فقر النفس والذي يعني الطمع، وقد عده الحديث المعروف كفراً (كاد الفقر أن يكون كفراً) ويقابله غنى النفس.
- ٤- الحاجة إلى الله كما جاء في الحديث المعروف (اللّهم أَغْنِنِي بِالإِفْتَارِ إِلَيْكَ وَلَا تُفْرِنِي بِالإِسْتِغْنَاءِ عَنْكَ) <sup>٢</sup>.

١. يذهب البعض إلى العكس في ذلك.

٢. مفردات الراغب، مادة (فقر).

وقد جاء في كتاب (العين) كلمة (فُقرة) على وزن (نُفْرَة) بمعنى الحفرة التي يوجد بها الإنسان في الأرض من أجل غرس الشتلات، ومن الممكن أن يكون الأصل في (فقير) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة في حياته، ومن المحتمل أن يكون استعمال هذا اللفظ في العمود الفقري وذلك لوجود التعرّفات فيه.

«غِنَى»: من مادة (غِنَاء) وتعني عدم الاحتياج ويقابلها الفقر، ولذا ذكروا له هذه الموارد الأربع في استعمالاته:

١ - الغنى بمعنى عدم الاحتياج إلى أي شيء وهذا مختص في الله سبحانه.

٢ - عدم النقص في مستلزمات الحياة.

٣ - الغنى وعدم احتياج النفس أي القناعة.

٤ - الاستغناء عن الله وهذا المعنى محال، ولكن قد تخطر هذه الفكرة لدى بعض الناس وتكون سبباً للطغيان: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْعَمُ إِنْ رَءَاهُ أَسْتَغْنَى». (العلق / ٦ - ٧) ويقول ابن منظور في (السان العرب): (الغَنَاء) بالفتح: يعني المتفعة وغِنَاء بمعنى التطريب وغَنِي (بلا مِدّ) يعني الإِستغناء وعدم الحاجة، ومن الممكن أن يعتقد بوجود أصل مشترك بين هذه المعاني كلّها ويقول بأنّ الغناء يطلق عندما يرفع الإنسان صوته ويملأ به الجوّ كالأغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات!

٤٥٥

### حاجة الجميع إلى الله:

الآية الأولى تخاطب جميع الناس وبدون استثناء: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ إِنَّ (اللُّفْرَ) هُنَّ مَعَنِٰ وَاسِعَةٌ وَتَشْمِلُ كُلَّ احْتِيَاجٍ لِأَيِّ شَيْءٍ فِي الْوِجْدَوْ، فَإِنَّا وَمِنْ أَجْلِ مُوَاصِلَةِ حَيَاتِنَا الْمَادِيَّةِ بِحَاجَةٍ إِلَى ضُوءِ الشَّمْسِ، وَالْمَاءِ، وَالْهَوَاءِ، وَأَنْوَاعِ الْغَذَاءِ وَالْمَلْبِسِ وَالْمَسْكِنِ.

ومن أَجْلِ بقاءِ الْحَيَاةِ فِي أَجْسَامِنَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَجْهِزَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنْ قَلْبٍ وَعِرْوَقٍ

### و جهاز للتنفس والمخ والأعصاب.

ونحتاج في الحياة المعنوية - من أجل أن نميز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحق من الباطل - إلى قوة عاقلة، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية. وبما أنّ منشأ كل هذه الأمور يعود كله إلى الله لذا فانّنا بحاجة إليه في وجودنا كلّه. إن الشهيق والزفير في عملية التنفس يحدثان بتعاضد الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان، وكلّ هذه العوامل هي هبات إلهية، ففي كلّ نفس هناك آلاف النعم، وينبغي الشكر على كلّ نعمة.

هذه الآية وإن كانت تقصد كلام الذين يستغربون من إصرار النبي ﷺ على عبادة الله تعالى كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين<sup>١</sup> ويقولون هل أن الله بحاجة إلى عبادتنا؟ فيجيبهم القرآن: أنتم القراء إلى الله وبعبادته تتكامل أرواحكم. ولكن هذا الكلام لا يحدّد من سعة مفهوم الآية في جهاتها المختلفة، لأنّ قضيّة استغناء الله واحتياجنا هي الأساس في حلّ الكثير من المشكلات.

وعلى آية حال فإنّ الفقر نافذ إلى أعماق ذات البشر أجمع، بل وكلّ الموجودات، ولا تقتصر الحاجة إليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل إنّ وجودها يحتاج إلى فيضه في كلّ لحظة وأنّ (فلو توقف لحظة تهدّمت الهياكل).

أجل، إنّ الغني في عالم الوجود هو الذات المقدّسة، ولما كان البشر - وهم تحفة عالم الخلق - بحاجة إليه في كلّ وجودهم فإنّ حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان، ولذا فإنّ الآية تضيف في ذيلها: «وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» وبملاحظة أنّ التعبير أعلاه يدلّ على الحصر - وفق القواعد الأدبية - فإنّ مفهومه ليس إلّا هذا، وهو إنّ الغني المطلق هو الذات المقدّسة لله سبحانه، ولو قسمّنا البشر إلى (فقير) و(غني) فإنّ هذا أمرٌ نسبيٌّ غير حقيقي.

وبتعبير آخر، إنّ الموجودات كلّها فقيرة ومحتاجة، وإنّ ذات الله المقدّسة تمثل الغنى

١. تفسير الكبير؛ وتفسير روح المعاني في ذيل آية مورد البحث.

والإِستغناء، وهذا هو أول الكلام وأخره.

على هذا الأساس فإنَّ الله سبحانه لا يحتاج إلى عبادتنا وطاعتنا أبداً، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء، بل إنَّ طاعتنا وعبادتنا لهُ ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من احتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوي والروحي، حيث إنَّا كلما اقتربنا من منبع النور فإنَّا نزداد نوراً، وكلما اقتربنا من المصدر الفيّاض ذاك فإنَّا نستفيد أكثر، وبتمثيل ناقص إنَّا كالنباتات والأشجار التي تستقبل نور الشمس دون أن تحتاج إليها الشمس.

إنَّ فهم هذه الحقيقة يقدم للبشر درساً في التوحيد حتَّى لا يخضعوا إلا إلى الله ولا يطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدُّوا يد الحاجة إليه لأنَّه (غني وكريم ورحيم وودود).

إنَّ الإِنتباه إلى هذه الحقيقة له الأثر البالغ في تربية الإنسان، فمن جهة يخرجه من حالة الغرور وعبادة هوِّ النفس، ومن جهة أخرى يحرّره من جميع القيود و يجعله غنياً عن سواه، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا يضيع في عالم الماديات، ويتوسّج دائمًا إلى مسبب الأسباب. وهنا لا بدَّ من الإِلتفات إلى أمرين:

**الأول:** أنَّ الله هنا (في الآية) قد وصف بـ(الحميد) بعد وصفه بـ(الغني)، وكما أشرنا أنَّ هذا التعبير قد تكرَّر في عشر آيات ممَّا يدلُّ على وجود نقطة مهمة فيه - هي كما يحتمل - إنَّ الكثير من الأغنياء يتَّصفون بصفات ذميمة نظير الكبر والغرور والحرص والبخل، حتَّى لو كان لدى أحد إخوانهم نعجة واحدة ولديهم ٩٩ نعجة فانَّهم سيصرُّون على أن يسلبوه نعجه، إلى حدٍ يتجاوز ذهن الكثير بأنَّ لفظ (الغني) تعني الظلم والكبر والبخل، في حين أنَّ الله سبحانه في عين كونه غني فهو رحيم وعفو وغفور، ولذا هو أهل لكلَّ مدح وثناء. **أجل، إنَّ (الغني) الوحد المُبرأ من كلِّ عيب ونقص ذو الفضل واللطف والرحمة هي الذات المقدّسة.**

**الثاني:** أنَّ المخاطبين في الآية هم البشر فقط: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» فلماذا لم تذكر الموجودات الأخرى في حين أنَّها فقيرة إلى الله أيضًا؟

قال الكثير من المفسّرين إنَّ ذلك ناشئٌ من سعة حاجة الإنسان، فكُلُّما كان الموجود أكمل فانه أكثر احتياجاً في مسيرةٍ منه ويزداد شعوراً بالحاجة كما هو الحال في الاحتياج المادي، فالطير يقنع بشيءٍ من الماء والحبب والعشش البسيط في حين لا يقنع الإنسان بألوان الطعام واللباس والبيوت والقصور! .

٤٥٦

والآية الثانية تحدثت عن (الإنفاق في سبيل الله) وبخل البعض في الإنفاق في سبيل الله وانعكاس بخل البخلاء على أنفسهم لأنَّهم محرومون من فيض الله ورحمته الاممحددة، فتقول: «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ».

قد يكون هذا التعبير من أجل رفع التصور بأنَّ الله تعالى عندما يدع الناس إلى الإنفاق في سبيل الله فانه يحتاج إلى إنفاقهم، أو أنَّ هذه الجملة تتنافى مع الجملة التي وردت في آيات سابقة حيث تقول: «وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ».

فتقول الآية: إنَّ الله غنيٌّ على الإطلاق والجميع محتاجون إليه، فعندما يأمرهم بالإنفاق فليس ذلك لحاجته، بل لأنَّهم هم المحتاجون، ويصلون إلى الكمال عن هذه الطرق ويتقرّبون إلى ذلك الوجود الاممحدد.

صحيح أنَّ بداية الآية ترتبط بـ(الفقر والغنى الماليين) وتتّبع إلى الإنفاق في سبيل الله، غير أنَّ الإطلاق في ذيل الآية يعطي مفهوماً واسعاً، ففي الوقت الذي تعرّف الله سبحانه بالغنى المطلق فانها تعتبر البشر محتاجين في كل وجودهم، وقد نفذ الفقر إلى أعماق ذاتهم ولهذا يمكن استخدامه للاستدلال في هذا البحث.

١. انتبه بعض المفسّرين إلى هذه النقطة أيضاً وهي أنَّ ذكر (الفقراء) بصورة معرفة (مع أنَّ الخبر يكون نكرة عادةً فلو كان معرفة لما احتاج المخاطب إلى الخبر) هو للتذكير، أي أنَّ المخاطب نفسه يعلم بأنه فقير إلى الله وهذا تذكير ليس إلّا، وقد جاء في علم البلاغة أيضاً أنَّ المخاطب العالم الذي لا يعمل بعلمه يعتبر جاهلاً وينذر عن طريق الأخبار (تأمّل جيداً).

على أي حال فإنّ من الملفت أنّه هو الذي تفضّل بالهبات كلّها ووهبها للعباد ثم يطلب منهم أن ينفقوا في سبيل الله، وهذه مقدمة لهبات أكبر.

ولا ينحصر هذا في قضيّة الإنفاق فحسب، بل يجري في كل التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم.

وقد جاء هذا المضمون في آيات عديدة منها ما تضمنته هذه الآية حيث نقرأ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلَتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (سبأ / ٤٧).

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِي عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(العنكبوت / ٦)

٤٥٥

والآية الثالثة والأخيرة من بحثنا تُصوّر هذا المضمون (الفقر العام للموجودات والغني المطلق لله) في حلّة جديدة وجميلة وتقول: ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وكل يوم هو في شأن ومنح مواهب جديدة: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ ﴾ .

وبملاحظة الفعل المضارع (يسأل) والذي يدلّ على الاستمرار، وملاحظة ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السماء والأرض (وباحتمال قوي يشمل كلّ الموجودات العاقلة وغير العاقلة، والتعبير بـ(من) الذي يستعمل للعامل هو للتغليب) وملاحظة أنّ الآية لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فيدلّ ذلك على شمولية الآية، وسيكون مفهوم الآية هو أنّ كلّ الموجودات في عالم الخلقة تستمدّ الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرة، (فيض الوجود ومتعلّقاته).

وليس هذا الطلب من ذات ممكн الوجود في حالة الحدوث فحسب، بل في البقاء أيضاً يكون محتاجاً إلى واجب الوجود وفي كل لحظة يتطلب منه الوجود.

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً في تفسير (روح البيان) و(روح المعاني) حيث جاء فيهما «.. قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم وجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر أحوالهم

سؤالاً مستمراً بلسان المقال وبلسان الحال فاِنْهُمْ كافّة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتفرّع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو اقطع ما بينهم من العناية الإلهية من العلاقة لم يشّموا رائحة الوجود أصلًا فهم في كلّ آن مستمرّون على الإِسْتِدَاعَةِ وَالسُّؤَالِ<sup>١</sup> من هنا يتبّع أنّ اعتقاد البعض بأنَّ السُّؤَالَ يرتبط بـ(الرِّزْقِ) أو (الرَّحْمَةِ الإلهيَّةِ) أو (متطلبات الدين والدنيا) أو (العلم بعاقبة العمل وصلاح النفس وفسادها) فقط لا دليل عليه وإنْ اندرجت في المفهوم الواسع للآية.

٣٥٦

## توضيحات

### ١- برهان الوجوب والإمكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القابلة للفهم، حيث يمكن بيانه بلسان عامة الناس، وكذلك بواسطة التعبيرات والاصطلاحات الفلسفية الخاصة، وبتعبير بسيط عندما نرجع إلى وجودنا نجد أنَّ وجودنا برّئته في حالة احتياج ولا يؤمّن الاحتياج من الداخل، ومن أجل تأمين هذا الاحتياج يجب أن نمد الدنيا خارج وجودنا، وكما يقول المثل كلما ازداد الغنى ازدادت الحاجة فكلّما تضاعفت قوّة الإنسان في الظاهر (ماديًّا أو معنوًّياً) توسيّع دائرة احتياجاته، فالظاهر في الصحراء يكفي بقليل من الماء والحبّ وعشّ مؤلّف من بعض الأوراق، في حين تحتاج حياة سلطان مقتدر إلى آلاف الحاجات، وهكذا لو قارنا الحياة العلمية لمحقّق كبير بالنسبة لطالب مبتدئ.

ومن خلال ملاحظة هذا الاحتياج وبالهام باطني يدرك الإنسان أنَّ لهذا العالم مبدأً غنيّاً يتّجه الجميع إليه لنيل حوائجهم وهو الذي نطلق عليه (الله) تبارك وتعالى. أمّا في العبارات الفلسفية وبحوث المتكلّمين فإنَّ الوجود يقسم إلى قسمين: (ممكّن) و(واجب).

١. تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٢٩٩؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٩٥.

فواجِب الْوُجُود يَكُون وَجُوده ذاتيًّا، وَذاتِه المقدّسة غَيْر محتاجه إطلاقًا، فِي حِين لا يَمْلِك الممكِن فِي ذاتِه شَيئًا فَهُو محتاج.

وَبِهذا يُعد احْتِيَاج الممكِن إلَى العَلَة من القضايا الْبَدِيهِيَّة والأُولَى وَالتي لا تَحْتَاج إلَى إِقامَة البرهان، وَمِن يَتَرَدَّد فِي هَذَا الْأَمْر فَإِنْ ذَلِك يَعُود إلَى عدم الفهم الجيد لمفهوم الممكِن. ثُمَّ يُطْرَح هَذَا السُّؤَال: مَا هُو سبب احْتِيَاج الممكِن إلَى العَلَة؟ هَل السبب هُو الْوُجُود أَو مَسَأَلَة الحدوث؟ أَي هَل أَنَّ الْأَشْيَاء تَحْتَاج إلَى العَلَة بِسَبَب كُونَهَا حادِثَة أَو بِسَبَب كُونَهَا مُوجَودَة؟ أَو أَنَّ الْمَلَكَ الأَصْل وَهُو (الإِمْكَان)؟ وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الدَّلِيل فَإِنَّ الْاحْتِيَاج إلَى العَلَة يَجِب أَن لا يَبْحِث فِي أَصْل وجود الشيء أو في حدوثه، بل إِنَّ العَلَة الْأَسَاسِيَّة هِي الإِمْكَان.

وَلَا رِيب فِي أَنَّ الإِجَابَة الصَّحِيحَة والدَّقِيقَة هي الإِجَابَة الثَّالِثَة، لَأَنَّا إِذَا - بَحْثَنَا عَنْ معنى الإِمْكَان وَجَدْنَا أَنَّ الْاحْتِيَاج إلَى العَلَة مَتَحْقَقٌ فِيهِ، لَأَنَّ (الممكِن) وجود (غَيْر اقتضائي) أي أَنَّ ذاتِه لَا تَقْتَضِي الْوُجُود وَلَا الْعَدْم.

وَبِمِلَاظَة هَذَا الإِسْتَوَاء الذَّاتِي يَكُون فِي وَجُودِه وَعَدْمِه بِحَاجَة إلَى عَامِلٍ ولَذَا فَإِنَّ الْفَلَاسِفَة يَقُولُون بِأَنَّ حاجَة الممكِن أُولَى، «حاجَة ممكِن الْوُجُود إلَى العَلَة أُمُّ بَدِيهِيٍّ». وَيُسْتَنْتَجُ مِنْ ذَلِك أَنَّ حاجَة الممكِن إلَى واجِب الْوُجُود لَا تَقْتَصِرُ عَلَى ابْتِداء الْوُجُود فَحَسْب، بل هي ثابتة في مراحل البقاء كُلُّها لِثبوت الإِمْكَان في حَقِّ الممكِن دائمًا لَذَا فَإِنَّ الحاجَة إلَى العَلَة أَمْر باقٍ وَثابت.

وَلِلْمَثَال عَلَى ذَلِك فَإِنَّا حِينَما نَمْسِكُ الْقَلْمَ وَنَحْرِكُه عَلَى قَرْطَاسٍ نَجِد أَنَّ حَرْكَة الْقَلْم تَحْتَاج إلَى مُحرِّكٍ مِنَ الْخَارِج وَيَتَمَثَّلُ فِي أَصَابِعِنَا، فَمَا دَامَتِ الْحَرْكَة فِي الْيَدِ وَالْأَصَابِع فَإِنَّ الْقَلْم يَتَحرِّك كَذَلِك، وَيَتَوَقَّف بِتَوَقُّفِهَا.

وَأَوْضَح مِنْ ذَلِك مَا يَوْجِد فِي أَفْعَالِ أَرْوَاحِنَا، فَحِينَما نَعْزِمُ عَلَى الْعَمَل بِبِرْنَامِجٍ مَا نَجِد أَنَّ الإِرَادَة وَالْعَزْم - وَهُما مِنْ فَعْلِ الرُّوح - يَرْتَبِطان بِهَا وَيَخْتَفِيَان حَالَ انْقِطَاعِ هَذَا الْإِرْتِبَاط. إِنَّا مُرْتَبِطُون بِوْجُودِ اللَّهِ كَذَلِك وَهَذَا الْوُجُود الْإِرْتِبَاطِي لَا يَسْتَقِرُ لحظَةً وَاحِدَة بِدُون ذَلِك.

ويقول الشاعر:

لَمْ أَسْلِمْ النَّفْسَ لِلْأَسْقَامِ تَبْلُغُهَا إِلَّا لِعَلِيٍّ بِأَنَّ الْوَصْلَ يَحْبِبُهَا  
نَفْسُ الْمُحَبِّ عَلَى الْآلَامِ صَابِرَةً لَعَلَّ مَسْقَمَهَا يَوْمًا يَدَاوِيهَا  
قَدْ يَقُولُ: إِنَّا نَشَاهِدُ الْبَنَاءَ بَاقِيًّا بَعْدَ مَوْتِ بَانِيهِ فَكَيْفَ إِذْنَ تَسْتَغْنِيُ الْأَفْعَالُ عَنِ الْفَاعِلِ فِي  
بَقَائِهَا؟

فتقول: إن ذلك يحصل بسبب حلول علة محل علة أخرى، ففي البداية تقوم يد البناء الماهر بوضع لبنة على لبنة أخرى ثم يبقى البناء مستقرًا بفضل جاذبية الأرض وعوامل الإلتصاق من جص وإسمنت.

وباختصار، أن وجود (الممكن) وجود ارتباطي ولا يستمر دون الاتصال على وجود مستقل، وعليه فإن تعريف معنى الوجود الإرتباطي كافي في التعرّف على الوجود المستقل دون الحاجة إلى بحوث واسعة في «الدور والتسلسل» (تأمل جيداً).  
يُستبطن في مفهوم الوجود الإرتباطي والتبني معنى الاستناد إلى واجب الوجود فهل للوجود الإرتباطي معنى دون الوجود المستقل؟

٣٥٦

## ٢- برهان الغنى والفقر في الروايات الإسلامية

نقرأ في دعاء الإمام الحسين عليهما يوم عرفة - وهو من أعمق وأثري الأدعية الواردة عن المعصومين: - خاصّة في بحث التوحيد إذ يقول عليهما:

«كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتر إيليك؟ أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظہر لك؟!». <sup>١</sup>

ونقرأ في موضع آخر من الدعاء نفسه:

«إلهي أنا الفقير في غنائي فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟!».

١. يستفاد من هذه الجملة في (برهان الصدّيقين) أيضاً فيشار إليها في بحثه إن شاء الله.

ونجد في حديث نبوي: «الفقر فخرٌ وبه أفتخر»<sup>١</sup>.  
 إنَّ أحد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتي تجاه الله سبحانه وهو الداعي إلى الفخر، وليس الفقر هنا بمعنى ضنك المعيشة والإفتقار إلى المخلوق وهو مما تذمّه الروايات، كالحديث الذي ينصّ:  
 «كاد الفقر أن يكون كفراً»<sup>٢</sup>.

ولذا نقرأ عنه لليلًا في حديث آخر: «اللهم أغنني بالإنفاق إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك»<sup>٣</sup>.

كانت لقلبي أهواه مفرغة فاستجمعت إذ رأتك العين أهواي  
 تركت للناس دنياهم ودينهما شغلاً بذكرك ياديني ودنيائي

١. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٥٥؛ وتفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٣٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

٣. سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٧٨؛ وتفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٣٤.



## ٤ - برهان العلة والمعلول

تمهيد:

لا شك أنّ العالم الذي نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات، والعليّة هي من أوضح القوانين في هذا العالم.

كما لا شك في أننا والأرض التي نعيش عليها لم نكن موجودين بصورة دائمة بل أننا معلولون لعلة أخرى، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات أن تستمر بلا نهاية وتبقى في حالة تسلسل؟ وبعبارة أخرى أ تكون كل علة معلولة لعلة أخرى ولا تنتهي في موضع ما؟ إنها قضية لا يتقبلها أي وجдан، فكيف يمكن لأصفارٍ توضع جنباً إلى جنب وإلى ما لا نهاية من أن تكون رقمًا؟ (المقصود من الصفر هو الموجود الذي لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من عنته)، وكيف يمكن أن يتصف القراء - والمعوزون إلى ما لا نهاية ثم يحصل منهم وجود غني؟!

يجب الإذعان - إذن - إلى أن هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي بوجود، وهذا الوجود هو علة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته، وبتعبير أدق هو عين الوجود اللامتناهي وواجب الوجود.

إنّه أوضح دليل على إثبات الوجود الأزلي والأبدى لله سبحانه. والملاحظ أن الاستدلالات الأخرى لإثبات وجود الله تنتهي كذلك ببرهان (العلة والمعلول) وبدونه تكون ناقصة.

بعد هذا التمهيد نمعن خاسعين في الآيات القرآنية التالية:

- ١- ﴿أَمْ حَلَّقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .  
 (الطور / ٣٥)
- ٢- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بِلِ لَا يُوقْنُونَ﴾ .  
 (الطور / ٣٦)
- ٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ .  
 (الطور / ٤٣)

### شرح المفردات:

«خلقوا»: من (الخلق) ويعني في الأصل: التقدير المباشر، وبما أنّ صنع وإيجاد شيء غير موجود في الماضي، وليس له أصل ومادة يكون صنعاً وإيجاداً بكل معنى الكلمة، لذا أطلقت هذه المفردة على الإبداع والإيجاد.

كما تستعمل هذه الكلمة في عملية إيجاد شيء من شيء آخر نظيره:

(النحل / ٤) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ .

من البديهي أنّ (الخلق) بمعنى (الإبداع والإيجاد من العدم) مختص بالله، ولذا ينفي هذه القدرة عن غيره حيث يقول تعالى:

(النحل / ١٧) ﴿أَفَنْ يَخْلُقُ كَمْنَ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

في حين يصدق المعنى الثاني (وهو إيجاد شيء من شيء آخر والتقدير له)، على غير الله تعالى، ناظرة إلى هذا المعنى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحَسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . (المؤمنون / ١٤)

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، ولعل ذلك لما يختلفه من أشياء لا واقع ولا وجود لها.

وقد ذكرواـــ (الخلق) أصلين في مقاييس اللغة أحدهما: التقدير، وثانيهما: الليونة والنعومة، ولذا يطلق على الصخرة الملساء (الصخرة الخلقاء) كما يطلق فعل (خلق) على الأشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الأزمنة عليها.

أمّا (الأخلاق) والتي تعني الصفات والسمجات الإنسانية الثابتة فإنّها مشتقة من المعنى الأول وهو التقدير (لأنّها تحديد أبعاد الشخصية والروح الإنسانية وقدرها).

## جمع الآيات وتفسيرها

استجواب عجيب!

لقد جاءت الآيات المذكورة أعلاه ضمن تسع آيات في سورة (الطور)، ووردت في نطاق ١١ سؤال على صورة الإستفهام الإستنكاري.

وهذه الآيات تضع الإنسان أمام مجموعة من الأسئلة المتسلسلة العجيبة ثم تسدّ عليه طريق الفرار كي يذعن للحق.

وتباع هذه الأسئلة الأحد عشر ثلاثة أهداف مهمّة هي:

إثبات التوحيد، المعاد، ورسالة نبي الإسلام، غير أن الأساس فيها يتمحور حول توحيد الخالق المعبود.

الآية الأولى من الآيات الثلاث التي تقدّمت تقول: ﴿أَمْ حَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الظَّالِقُونَ﴾.

وبعبارة أخرى: إنّ كُلّ إنسان لا شكّ في أنه مخلوق وحدث ولا يخرج من ثلاث حالات: أمّا مخلوق من دون علة أو هو علة وجوده أو أنّ علته هو الوجود الأزلي والأبدى وهو الله سبحانه.

وبما أنّ الاحتمالين الأول والثاني لا يتوافقان مع العقل والوجdan فالاحتمال الثالث هو الثابت حتماً، ولذا ذكر الاحتمالين الأول والثاني بصيغة «الإستفهام الإستنكاري»، وحينما ينفيهما العقل والوجدان، يثبت الاحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الاستدلال الشهير بـ(العلة والمعلول) حيث يعرض في جملتين قصيرتين ومركزّتين ذات معنى واسع.

وقد يبرز هنا احتمال رابع وهو أن يكون الإنسان معلولاً لعلة أخرى وهذه العلة معلولة لعلة أخرى وهكذا تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية.

وهذا الاحتمال يبرز لدى الفلسفه عادةً وليس لعامة الناس، ولعلّ الآية لم تذكره لهذا السبب.

على أية حال فإنّ هذا الاحتمال واضح البطلان أيضًا، لاستحالة (سلسل العلل والمعلولات) منطقياً ووجданاً، وسيأتي إيضاح ذلك بإذن الله.

وقد ذكر الكثير من المفسّرين تفسيرات أخرى للآية، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفاصيل متعددة، حيث يقولون بأنّ المراد هو أنّ البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر ونهي وثواب وعقاب، ويعتبرونها نظير قوله تعالى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّادًا»<sup>١</sup> (المؤمنون / ١١٥).

ولكن بلاحظة ذيل الآية يضمن هذا الإحتمال تماماً لأنّه تعالى يقول: «أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ»، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الجملة الأولى ناظرة إلى سبب الخلة وعلة ظهور الإنسان لا الغاية من خلقه، وبعبارة أخرى أنّ الآية تلاحظ العلة الفاعلية لا الغائية.

## ٢٥٤

الآية الثانية تشير إلى خلق السماوات وتعيد استدلال العلة والمعلول هذا في مورد خلق السماوات والأرض وتقول: «أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ».

ويعني هذا أنّ السماوات والأرض حادثة دون شك لعراضها إلى الحوادث باستمرار وحدوث أنواع التغييرات عليها وكلّ شيء معرض للتغيير لا يمكن أن يكون أزلياً.

في هذه الحالة يجري السؤال عن خالق السماوات والأرض فهل هي خلقت نفسها؟ أو لا خالق لها أبداً وقد وجدت صدفة؟ أم أنّ خالقها هو البشر؟ وبما أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفي، يعلم أنّ لها خالقاً ليس مخلوقاً بل هو أزلي أبدى.

والملاحظ أنّ من بين هذه الاحتمالات يتوجه الاستفهام الإنكارى إلى احتمال خالقية الإنسان للسماوات والأرضين فقط، وذلك لأنّ الاحتمالات الأخرى وردت في الآيات السابقة، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة والبلاغة.

١. تفسير مجمع البيان؛ تفسير الكبير؛ تفسير القرطبي؛ تفسير الميزان؛ تفسير روح المعاني وتفسير روح البيان؛ حيث ذكروا هذا المعنى كمعنى رئيس في الآية أو كاحتمال.

من هنا فإن الآيتين أعلاه أقامتا برهان العلة والمعلول في الآفاق والأنفس، وعليه فإن الآية الثانية تشهد كذلك على أن الحديث يدور حول العلة الفاعلية لا الغائية.

في الختام تشير هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي أن القضايا في هذا الصدد واضحة، ولكن العيب هو أنهم لا يستعدون لإنصاف واليقين: «**بَلْ لَا يُوقِنُونَ**».

**أَجَل، إِنَّ الْحَقَّ بَيْنَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ معاذدوْنَ وَأَعْدَاءُ لِلْحَقِّ.**

وفي الحقيقة فإن هذه الجملة تشابه ما ورد في قوله تعالى:

**«وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُثُ مِنْ ذَابَةٍ آيَاتٌ لَّقَوْمٌ يُوْقِنُونَ».** (الجاثية / ٤)

أو تشابه ما ورد في قوله تعالى: «**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوْقِنِينَ**».

(الذاريات / ٢٠) واضح أن أولئك لو كانوا من الموقنين لما احتاجوا إلى الآيات، وعليه فإن الحديث يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنهم على استعداد لقبوله.

وذهب جمع من المفسّرين إلى أن المقصود هو أن أولئك لا يقولون بأنهم خلقوا السماوات والأرض، بل يعتقدون بأن الله هو الخالق، نظير ما جاء في قوله تعالى: «**وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**»<sup>١</sup>.

(القمان / ٢٥) ييد أن هذا التفسير يبدو بعيداً.

والضعف من هذا الاحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون أن معنى الآية هو: «**أَنَّهُمْ لَا يَقِنُونَ**» بما يقولون وهو أن الله خالق السماوات والأرض» وهو اليقين الذي يدعوهם إلى العبودية والطاعة.

ويتضح خطأ هذا التفسير من أن الآيات هذه لم تطرح قضية خلق الله للسماوات والأرض، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إليها؟<sup>٢</sup>

وأخيراً تقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للاستدلال: «**أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**».

١. أقر الزمخشري هذا التفسير في الكشاف وقد احتمله الفخر الرازي في الكبير وجاء آخر من المفسّرين.

٢. جاءت عبارة «**وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**» في العنكبوت، ٦١؛ الزمر، ٣٨؛

الزخرف، ٩؛ لقمان، ٢٥.

إِنَّه في الحقيقة استدلال على توحيد المعبد، أي عندما يكون هو الخالق للعالم فإن العبادة يجب أن تقتصر عليه أيضاً لا على غيره، كالأنسان والشمس والقمر والنجوم وغيرها.

وكما أسلفنا فإن هناك سبعة أسئلة أخرى إضافة إلى هذه الأسئلة الثلاثة الواردة على صورة الاستفهام الإنكارى في آيات ثلاث ترتبط بقضية النبوة وأمور أخرى لا حاجة لذكرها في هذا البحث التوحيدى<sup>١</sup>.

٤٥٥

## توضيحان

### ١-برهان العلة والمعلول في الفلسفة والكلام

يعد هذا البرهان من أقدم وأشهر الإستدلالات على إثبات وجود الله ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم ارسطو الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا هذا حيث كانوا يستندون إليه، وكما أشرنا من قبل فإنَّ أغلب الأدلة على التوحيد تعتبر غير تامة إذا لم تستند إلى برهان العلية.

ولكي تتوضّح قواعد هذا الاستدلال، ينبغي ملاحظة عدّة أمور:

### ١-تعريف أصل العلية

(العلية) هي العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبعاً للأخر، ومن يرى أنَّ علاقة العلية عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فإنَّ هذا التعريف يكون ناقصاً، ف صحيح أنَّ المعلول يحدث بعد علنته ولكن ذلك لا يكفي لتوضيح مفهوم العلية، بل لا بد أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثاني إلى الوجود الأول.

١. للمزيد من الإيضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣٥ من سورة الطور.

## ٢- شمولية قانون العلية وسعة تطبيقاتها

طبقاً لما يقوله بعض المحققين، كان قانون العلة والمعلول أول قضية شغلت الفكر البشري من بين القضايا الفلسفية ماضياً وحاضراً ودفعت البشر للتفكير من أجل اكتشاف الغاز الوجود، وأهم دافع للتفكير لدى الإنسان الذي يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون (العلة والمعلول العام) الذي يثبت أن لكل حادثة علة وهو السبب في تبادر مفهوم (الم اذا) في الذهن البشري، ولو لم يتعرّف الذهن البشري على مفهوم العلة والمعلول العام ولم يذعن لقانون العلية لم يكن ليختلط في ذهنه مفهوم (الم اذا)<sup>١</sup>

هذه الـ(لماذا) هي الأساس لكلّ العلوم والأفكار البشرية والتي دفعت الإنسان للبحث عن الجذور والنتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة.

وبعبارة أخرى: إن جميع العلوم البشرية انعكاس لقانون العلية، ولو سُلب هذا القانون من البشر فإن هذه العلوم سوف تفقد كل محتوياتها.  
وكذلك لو فقدنا قانون (العلية) فإن (الفلسفة) أيضاً سوف تتزعزع بكل فروعها، وعليه فإن العلوم والأفكار والفلسفة مبنية على هذا القانون.

### **٣- جذور معرفة قانون العلية**

## كيف توصل الإنسان إلى قانون العلية؟

لإجابة عن هذا السؤال لابد أن نرجع إلى الوراء لنستقرئ حياتنا في الصغر، عندما ينضج عقل الإنسان وتكتمل قابلية التمييز لديه، فالطفل عندما يمد يده إلى النار فيحسن بألم الاحتراق، وعندما يعيده هذا العمل ويذكر الإحساس نفسه يتيقن شيئاً فشيئاً بوجود علاقة بين أمرين (مس النار والشعور بألم الاحتراق).

وهكذا حينما يحس بالعطش ويشرب الماء فإنه يشعر بالراحة ونحو العطش ويتذكر  
هذا العمل حتى يتيقّن بوجود علاقة بين العطش وشرب الماء، وعندما تتكرّر هذه التجارب

<sup>١</sup>. أصول الفلسفة، ج ٣، ص ١٧٥ (اقتباس و اختصار).

في مجالات كثيرة و موضوعات مختلفة يتبيّن بأنّ لكلّ حادثة علةٌ وبهذا يكتشف قانون العلية بشكله العادي البسيط، ويتقدّم عمره وبواسطة التجارب التي يمرّ بها سواء على صعيد الحياة الاعتيادية أو على صعيد العلوم والأفكار - سيدرك سعة هذا القانون وقوّته أكثر فأكثر (كما يصل إلى هذا المبدأ وهو أنّ لكلّ حادثة علةٌ عن طريق الفلسفة).

نحن لا نقول بأنّ تعاقب حادثين يعني العلية بل نقول إنّ القضية لابدّ من تكرارها حتى يتضح وجود علاقة بينهما، وأنّ الثاني تابع للأول.

والظاهر أنّ القائلين: إنّ قانون العلية خاضع للتجربة. يذهبون إلى أنّ الإنسان يتوصّل إلى الجذور والأصول عن طريق التجربة والحسّ ومن ثم يكتشف علاقة العلية من خلال (التحليل العقلي)، وهو في الحقيقة يتوصّل إلى مقدمة من خلال (الحسّ) وأخرى من خلال (العقل) وذلك لأنّ القوانين الكلية توجد في العقل بصورة بدئية، ودور الحسّ هو إدراك الموضوعات المتفرقة ثم يقوم العقل بجمعها فيتوصل إلى النتائج.

ويتصوّر البعض أنّ مبدأ العلية - هو عبارة عن علم حصولي - يستحصل من العلم الحضوري (النفس) بالنسبة إلى (أفعال النفس).

وفي توضيح كلامهم هذا يقولون أنّ الروح الإنسانية تحسّ بأمور في أعماقها تابعة لها وقائمة بها كالتصوّر والأفكار والإرادات والقرارات.. هذه كلّها أفعال الروح الإنسانية ومعلولة لها، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن نكتشف قانون العلية، ثم يستندون في ذلك إلى قول ابن سينا حيث يقول: «فإنا ما لم ثبت وجود الأسباب لمسبات من الأمور بإناثات أنّ لوجودها تعلقاً بما يتقدّمها في الوجود، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق، وأنّ هنَا سبباً ما، وأمّا الحسّ فلا يؤدّي إلا إلى الموافاة وليس إذا توافي شيئاً وجّب أن يكون أحدهما سبباً للآخر...».

ولا شكّ في أنّ هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأنّ هذه التحليلات بشأن الروح وأفعالها هي من اختصاص الفلسفه لا عموم الناس، في حين أنّ

عامة الناس يعرفون قانون العلية حتى الأطفال منهم، ولا شك في أن ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسية كما أسلفنا، غير أن العقل ما لم يحلل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عاماً، فنحن لا ندرك (قانون العلية)، وعليه فإن الأساس في معرفة هذا القانون هو التجربة إضافة إلى العقل، ولعل ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره، **يبدأ أنا لا ننكر أن الفلسفه والعلماء يسهّل عليهم معرفة العلية من خلال الأفعال النفسيه كما يمكن ذلك عن طريق الحسّ.**

كما أن ثمة طريق استدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر، وهو أننا لو أنكرنا قانون العلية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء، وسوف ينشأ كل شيء من أي شيء، بل يجب رفض مناهج الاستدلالات العقلية أيضاً، وللوصول إلى نتيجة منطقية - مثلاً - يجب أن لا تستفيه من أدلة خاصة، بل إننا نصل من كل مقدمة إلى آية نتيجة متوقّها، وهذا ما لا يتقبله أي عاقل قطعاً.

**ينبغي إذن أن نذعن بعلاقة العلية في الخارج وفي الأمور العقلية.**

#### ٤- أقسام العلة

العلة لها مفهوم واسع وأقسام عديدة:

العلة التامة وتعني أن الشيء إذا وجد فإن معلوله سوف يوجد مباشرة.

والعلة الناقصة وتعني أن الشيء يحتاج - في وصوله إلى المعلول - انضمام أمور أخرى، كما تقسم العلة إلى (العلة الفاعلية) و(الغائية) و(المادية) و(الصورية) وهذه تقسيمات مشهورة يمكن إيضاحها بمثال بسيط:

لو لاحظنا ملابسنا التي نرتديها لو جدناها لكي توجد يجب توفر المادة (كالقطن والصوف) ثم تحويلها إلى قماش مناسب ثم تبasherها يد الخياط لخياطتها، ومن الأكيد أن الخياط يصنع اللباس لهدف خاص وهو الإنقاض منه.

تعتبر المادة الأصلية هي (العلة المادية) والصورة التي أُعطيت لها هي (العلة الصورية)

والذي جعلها على صورة اللباس هو (العلة الفاعلية) والداعف لهذا الشيء هو (العلة الغائية). ومن المعلوم أنّنا استندنا في برهان (العلة والمعلول) الذي نتابعه إلى العلة الفاعلية وخاصة العلة الناتمة.

٦٥٥

## ٢- إيضاح برهان العلة

بعد اتضاح هذه المقدّمات نرجع إلى أصل برهان العلة.

إنّ برهان العلة والمعلول في الحقيقة مبني على أساسين هما:

١- أنّ العالم الذي نعيش فيه (حدث) و(ممكن الوجود).

٢- كلّ موجود حادث وممكن الوجود يجب أن ينتهي إلى واجب الوجود، وبعبارة أخرى يجب أن تنتهي الوجودات الإرتباطية إلى الوجود المستقل.

وقد تكلّمنا بما فيه الكفاية عن المقدّمة الأولى وهي حدوث العالم، يبقى أن نثبت الآن المقدّمة الثانية:

إنّها قضيّة واضحة و حتّى الماديون والمنكرون لوجود الله يقرّون بها، بيدأنّهم يقولون: إنّ (المادة) لها وجود أزلي وأبدى ومستقل بالذات، لكن هذا الكلام باطل استناداً إلى الأدلة التي ثبتت استحالة أزلية المادة وأبديتها وقد أشرنا إلى ذلك.

ولتوسيع هذه المقدّمة من المناسب أن نقول: مع الإقرار بأنّ العالم حادث فسنواجه خمسة افتراضات لا سادس لها:

فإذاً أن يوجد العالم بدون علة، أو أن يكون هو علة لوجوده، أو أن يكون معلوله علة له، أو أن يكون العالم معلولاً لعلة وهي معلولة لعلة أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية. أو أن نقرّ بأنّ كلّ هذه الوجودات الحادثة مستندة إلى موجود أزلي أبدى فوق المادة، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي أخيراً إلى (واجب الوجود).

الفرضية الأولى: وهي حدوث العالم بدون علة وتسمى بفرضية (الصدفة) وهي فرضية

باطلة، لأنّ الحادث إن لم يتحتاج إلى علة فإنّ كلّ موجود يجب أن يوجد في كلّ زمان وأي ظرف، في حين نرى بوضوح أنّ الأمر ليس كذلك، حيث يحتاج كلّ حادث لحدوده إلى توفر الشرائط والظروف الخاصة.

وهكذا بطلان الفرضية الثانية وهي (أن يكون الشيء نفسه علةً لوجوده) يعتبر أمراً بديهياً، لأنّ العلة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان الشيء علة لنفسه فلابدّ أن يكون موجوداً قبل وجوده مما يستلزم اجتماع (الوجود) و(العدم) وهو ما يطلق عليه بالمصطلح العلمي (الدور).

وهكذا بالنسبة لبطلان الفرضية الثالثة، حيث يكون معلول الشيء علةً لوجوده، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح.

وأمّا بطلان الفرضية الرابعة التي تعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية فأنّه بحاجة إلى إيضاح: (التسليسل) يعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية وهذا باطل عقلاً لأنّ كلّ معلول يحتاج إلى علة، ولو استمرّت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية ولم تنته بواجب الوجود فأنّه يعني أنّ مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة، في حين أنّ ما لا نهاية من الفقراء والمحتججين محتاجون حتماً.

فلو تراكمت ما لا نهاية من الظلمات لا تتحول إلى (نور)، وما لا نهاية من (الجهل) لا يكون (علمًا)، وما لا نهاية من (الأصفار) لا يكون (رقمًا).

لابدّ إذن من انتهاء سلسلة العلل والمعلولات إلى موجود يحتاج شيئاً آخر.. وجود مستقلّ وغني، وجوده من ذاته، وبعبارة أصحّ أن يكون عين الوجود والوجود المطلق. وممّا ذكر نستنتج أنّ وجود المكنات والحوادث في العالم لابدّ أن ينتهي بوجود واجب أزلّي نسمّيه (الله) سبحانه وتعالى.



## تهييد:

برهان الصدّيقين من أدلة إثبات وجود الله بالاستفادة من القرآن الكريم والروايات، والذي اهتم به العلماء وال فلاسفة الإسلاميون، وكما يبدو من إسمه أنه ليس دليلاً عاماً بل يختص بالذين يحظون بمعلومات وفهم أوسع في العقيدة والفلسفة، ولهم قسط وافر من الذوق ودقة الملاحظة.

دليل يتصف بالتعقيد قليلاً وفي الوقت نفسه لطيف وجميل ومرتّب للروح. ومحور هذا الدليل أننا بدلاً من دراسة المخلوقات من أجل معرفة الله، نتوجه للتدبّر في ذاته المقدّسة للوصول إلى ذاته، وكما يقتضيه الدعاء: «يامن دلّ على ذاته بذاته» نتّخذ منه تعالى طریقاً للوصول إليه، وكلّ ما في هذا البرهان من تعقيد وظرافة ناشيء عن كيفية إمكان اتحاد الدليل والإدّعاء.

القضية هي أنّ في هذا العالم وجوداً فنبادر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق نصل إلى أنّ أصل الوجود يجب أن يكون واجباً.

هذه إشارة سريعة ولو أنّها غير كافية حيث سنتكلّم عن ذلك بالتفصيل ونعود الآن إلى القرآن لنمعن خاسعين في الآيات التالية:

- ١ - ﴿أَوَلَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. (فصلت / ٥٣)
- ٢ - ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (آل عمران / ١٨)

- ٣- ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ .  
 (البروج / ٢٠)
- ٤- ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .  
 (الحديد / ٣)
- ٥- ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .  
 (النور / ٣٥)

### شرح المفردات:

«شهيد»: مشتق من (شهود) وهو في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات - بمعنى (الحضور المقربون بالمشاهدة) سواء كان ذلك بالعين البارزة أو بعين القلب، وقد يعني (الحضور) مجرّداً عن مفهوم المشاهدة يبيّد أنّ استعمال (شهود) بمعنى الحضور، و(الشهادة) بمعنى الحضور المقربون بالمشاهدة أولى.

وقد وردت في (مقاييس اللغة) ثلاثة أصول في معنى (الشهادة) هي: الحضور والعلم والإعلام للآخرين، وإطلاق (شهيد) على من يقتل في طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه، أو بسبب حضوره في ساحة الجهاد، أو بسبب مشاهدة النعم العظيمة التي أعدّها الله له، أو بسبب حضوره بين يدي الله.

وقد جاء في كتاب العين أنّ (الشّهُد) يعني (العسل) قبل استخراجه من الشمع وهو المعنى الذي اتّخذه صاحب الكتاب الأصل الأوّل لهذه المادة، فهل يرى ذلك هو الأصل اللغوي؟ وفي هذه الحالة ما هو وجه العلاقة بما نحن فيه؟ إنّه لم يذكر توضيحاً لذلك.<sup>١</sup> (محيط) ومصدرها (الإحاطة) وتعني الضمّ ويستفاد من بعض الكتب اللغوية بأنّ الإحاطة على نوعين:

إحداهما: تكون في الأجسام ولذا يطلق على البناء المحيط بمكان (حائط).  
 وثانيهما: (الإحاطة المعنوية) وتعني الحفظ والحراسة أو العلم والإطلاع على شيء ما.  
 وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الإمتناع من شيء، وكان الإنسان محاط من كلّ جهة

١. هناك آيات قرآنية أخرى تحمل نفس هذا المضمون من جملتها سورة الحجّ، ١٧ وسبأ، ٤٧ والمجادلة، ٦ والبروج، ٩ والنساء، ٣٣ والأحزاب، ٥٥.

٢. المفردات، لسان العرب، مقاييس اللغة، كتاب العين.

لثلا يصل إلى ذلك الشيء، وكلمة (الإحتياط) تستعمل في المجالات التي يحاول الإنسان فيها أن يعمل عملاً يصونه من الخطأ والإشتباه والمعصية والمخالفة.

وقد ورد في (مقاييس اللغة) أنَّ الأصل في هذه المفردة هو من مادة (حُوت) ويعني دوران شيء حول شيء آخر.

كما أنَّ كلمة (محيط) يمكن أن تكون بمعنى الإحاطة الوجودية أو إحاطة القدرة والعلم.<sup>١</sup>

«نور»: يعني الأشعة المنتشرة التي تعين العين على النظر وهو على نوعين:

مادي وهو النور الذي تبصره العيون المجردة، ومعنى وهو النور الذي تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن، وقد جاء إطلاق (نائرة) على الفتنة وذلك لانتشارها واتساعها.

والأقرب أنَّ هذه المفردة تعني في أصلها الضياء المحسوس، ثم استعملت في الأمور المعنوية كالإيمان والعلم والعقل والقرآن حتى ذات الله المقدسة.

«نار»: هي من هذا الأصل أيضاً ويقتربان في كثير من الموارد.

وكلمة (منارة) تعني الموضع المستخدم لإشعال الشموع، أو لأجل نشر نور المعنويات الذي يبئه (الأذان) إلى مختلف الجهات.

«نور»: ويطلق على براعم الأشجار وخاصة البيض منها لما فيها من نور خاصٌ منذ ظهورها.

## جمع الآيات وتفسيرها

### القرآن وبرهان الصديقين:<sup>٢</sup>

تقول الآية الأولى التي وردت في هذا البحث بعد الإشارة إلى آيات الآفاق والأنفس

١. التحقيق في كلمات القرآن، المفردات، مقاييس اللغة، ولسان العرب.

٢. قال البعض: إنَّ تسمية هذا البرهان بـ(برهان الصديقين) لأنَّ صديق هو صيغة مبالغة ويعني كثير الصدق. صحيح أنَّ الأدلة الأخرى التي أوردناها لإثبات وجود الله صادقة يبيَّن أنَّ هذا البرهان أشدَّ صدقًا نظرًا إلى أنَّنا نصل في البرهان من ذات الله سبحانه وتعالى إلى الله ولا نسمح لغيره في هذا الطريق.

الدالة على حقانية وجود الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. يمكن أن تكون كلمة (شهيد) هنا بمعنى الشاهد أو الحاضر والمرافق، أو تعني كلام المعنيين بذلك لصدقهما في الله سبحانه، والآية المذكورة أعلاه مطلقة من هذه الجهة. واستناداً إلى هذا التفسير يكفي لإثبات ذاته المقدسة أن يكون شاهداً وحاضراً في كل مكان، فكلّ موجود ممكن نجد إلى جانبه ذات واجب الوجود، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً، وكلّ ما وقع عليه نظرنا وجدها وجهه فيه، ونحسن بخضوع العظام لعظمته، وهو مصدق حديث أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه»<sup>١</sup>. وفي تفسير الميزان أنّ (شهيد) تعني (مشهود) وبذلك يكون معنى الآية: «أَوْ لَمْ يَكُفِ فِي تَبْيَانِ الْحَقِّ كُونَ رَبِّكَ مَشْهُودًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ فَقِيرٌ مِّنْ جُمِيعِ جَهَاتِهِ إِلَيْهِ مَتَعْلِقٌ بِهِ وَهُوَ تَعَالَى قَائِمٌ بِهِ قَاهِرٌ فَوْقَهُ فَهُوَ تَعَالَى مَعْلُومٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ»<sup>٢</sup>.

ونتيجة لهذا التفسير هو إثبات وجود الله من الآية أعلاه أيضاً، ولكن عن طريق برهان الغنى والفقر.

يقول الفخر الرازي: «أَوْ لَمْ تَكُنْهُمْ هَذِهِ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي أَوْضَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَقَرَرَهَا الدَّالِلَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ...»<sup>٣</sup> (وعلى هذا فالآية ناظرة إلى إثبات وجود الله عن طريق برهان النظم).

ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية ناظرة إلى قضية إثبات المعاد حيث يقولون: «أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مَمَّا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ وَفِي هَذَا كَفَایَةٌ لِمَحْكَمَةِ يَوْمِ الْجَزَاءِ»<sup>٤</sup>.

١. يعتقد الكثير من المفسّرين بأنّ الباء في ﴿بِرَبِّك﴾ زائدة وتفيد التأكيد، وقد حلّت (ربّك) محلّ الفاعل، وجملة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هي بدل منه والجملة تعني (أَوْ لَمْ يَكُنْهُمْ أَنَّ رَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

٢. تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤٠٥.

٣. تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٠.

٤. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨١٩.

ويعتقد البعض الآخر أنَّ الآية ناظرة إلى حقّانية القرآن الكريم، ونبوّة الرسل، ويقولون: «أولم يكف ربّك شاهداً أنَّ القرآن من عند الله»<sup>١</sup>.

ويبدو أنَّ التفاسير الثلاثة الأولى من بين التفاسير الخمسة هذه والتي ترى أنَّ الآية ناظرة إلى قضيّة التوحيد وإثبات وجود الله هي أكثر صحةً، ويبدو التفسير الأول منها أكثر انسجاماً مع معاني الألفاظ الواردة في الآية، وبذلك يكون شاهداً على (برهان الصدّيقين).

وننهي هذا الكلام بحديث معتبر للإمام الصادق عليه السلام.

عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إني نظرت قوماً فقلت لهم: إنَّ الله جل جلاله أجلٌ وأعزٌ وأكرم من أنْ يُعرف بخلقه بل العباد يُعرفون بالله، فقال: «رحمك الله»<sup>٢</sup>.

ومن الطبيعي أنَّ هذا الكلام لا يتنافى أبداً مع استخدام برهان النظم وأدلة التوحيد وعظمة الله في موجودات العالم، في الحقيقة فإنَّ برهان النظم في مستوى، وهذا البرهان (برهان الصدّيقين) هو في مستوى أعلى وأرفع.

### بزوج الشمس دليل عليها:

في الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة الله سبحانه على وحدانيته ثم شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾، وتضيف: أنَّ ذلك يكون مع قيام الله سبحانه بالعدل وإدارة العالم على محور العدل: ﴿قَانِعاً بِالْقِسْطِ﴾.

وبما أنَّ القيام بالقسط والعدل يحتاج إلى أصلين هما: القدرة والعلم لكي تتحدد موازين العدل بالعلم أولاً وتطبق بالقدرة ثانياً، أضافت الآية في ذيلها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

والمراد من شهادة الملائكة وأولو العلم واضح، ولكن ما هو المراد من شهادة الله؟

هناك خلاف بين المفسّرين، حيث اعتقاد البعض أنَّ المراد هو الشهادة (الفعلية)

١. راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.

٢. أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦، باب أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ، ح ٣.

و(القولية) أي أنه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته في عالم الوجود وفي الآفاق وفي الأنفس من جهة، وكذلك من خلال آيات التوحيد النازلة في الكتب السماوية من جهة أخرى.

في حين ذكر بعض المفسرين الشهادة القولية وحدها، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية، بيد أن مفهوم الآية يتضمن - بالتأكيد - شهادة أعلى وأرفع من هذه، بل هي أهم مصداق للشهادة وهي أن ذاته شاهدة على ذاته كمصدق لما ورد: «يامن دل على ذاته بذاته» أنه سبحانه أفضل دليل على وجوده وهو الهدف الذي يقصده برهان الصدقين.

ولا مانع من اجتماع المعاني الثلاثة (الشهادة الذاتية والفعلية والقولية) في مفهوم الآية. وقد استنتج البعض من عبارة (قائماً بالقسط) بأن آيات العدل والنظم والتقدير في عالم المخلوقات هي مصدق بين شهادته سبحانه وتعالي على وحدانيته، وهو استدلال جيد ولا ضير في انفصال الملائكة عن (أولو العلم) كما يشير تفسير الميزان إلى هذا المعنى)، كما لا يمنع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلنا.

وكما ذكرنا من قبل فإن القائم بالعدل يحتاج إلى العلم والقدرة، وهاتان الصفتان موجودتان في ذاته المقدسة واتصاف الباري بـ(العزيز الحكيم) في ذيل الآية إشارة إلى هذا المعنى الدقيق.

٤٥٥

### إحاطة الوجود الإلهي:

الآية الثالثة - بعد الإشارة إلى الجيوش الجرّارة التي واجهت أنبياء الله وحاربتهم وذكر نموذجين متميزين أحدهما في العصور القديمة وهم (قوم ثمود) وثانيهما في العصور المتأخرة وهم (قوم فرعون): ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

التعبير بـ(في) - ويستعمل عادةً لبيان الظرف والمظروف - تعbir جميل وفيه إشارة إلى أن الكفار غارقون في تكذيب الحقائق، والمراد من الكفار هم الكفار المعاندون في عصر

النبي الأكرم ﷺ الذين كانوا ينكرن وحدانية الله سبحانه ونبيه رسول الإسلام ﷺ والمعاد كذلك، ولا يستبعد أن تشمل الآية هؤلاء جميعاً، لأنّ قوم فرعون وثمود الذين ذُكروا من قبل كانوا كذلك، كما أنّ استعمال (تكذيب) على صورة نكرة والذي يدلُّ في مثل هذه الحوادث على الأهمية والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى.

ثم تقول الآية: «وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ حُكْمٌ».

التعبير بـ(ورائهم) إشارة إلى أنّهم محاطون من كلّ جهة، والله محيط من كلّ جهة وجانب، وقد وقع كلام بين المفسّرين بشأن المراد من (إحاطة الإلهية) حيث احتمل البعض أنّها إحاطة الله العلمية على أعمالهم، واعتقد البعض الآخر أنّها إحاطة القدرة حيث الجميع في قبضته، وليس لهم القدرة على الفرار من عقابه، وذهب البعض الآخر إلى أنّها إحاطة العلمية، وإحاطة القدرة معاً.

بيدا أنّ مفهوم الآية أوسع مما ذكر حيث يشمل إحاطته الوجودية أيضاً، نعم، الله تعالى إحاطة وجودية لجميع الممكنات والكائنات، وليس هذه الإحاطة - طبعاً - من قبيل إحاطة الظرف بالمظروف (إحاطة الحائط بالبيت) وليس من قبيل إحاطة الكلّ بالجزء، بل هي (إحاطة القيومية)، أي أنّه سبحانه وجود مستقلّ وقائم بالذات وال موجودات الأخرى قائمة به وتابعة له.

وهذا المعنى يفتح الطريق أمام برهان الصديقين في مسألة إثبات وجود الله، وستنقدم شرعاً لذلك في المستقبل.

### هو الأول والآخر:

تقول الآية الرابعة - وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات الله سبحانه بشكل عميق وواسع: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». إنّ هذه الصفات الخمس التي اجتمعت في الآية بيان جلي لذاته المقدّسة اللامتناهية.

هو (الأول) أي هو الأزلية دون أن تكون له بداية، وهو (الآخر) أي الأبدى الذي لا نهاية له، وهو (الظاهر) أي البين دون أن يكون خافياً على أحد، وهو (الباطن) أي أن ذاته ليست ظاهرة لأحد (العدم قدرة الموجودات المحدودة كالإنسان على إدراك الحقيقة اللامتناهية) دون أن يكون محجوباً عن عباده.

ولذا فإنّه سبحانه عالم بكل شيء لأنّه موجود في البداية، وسوف يبقى حتى النهاية وحاضر في ظاهر العالم وباطنه.

وهناك تفسيرات متعددة ذكرها المفسرون في تفسير الصفات الأربع: (الأول) و(الآخر) و(الظاهر) و(الباطن) إلا أنها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآية.

فتارة قالوا: إنّه الأول قبل وجود أي شيء وهو الآخر بعد هلاك كل شيء، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته.

وتارة قالوا: هو الأول ببره حيث هدانا، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبة، والظاهر بإحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن في ستر عيوب العباد عند المعصية (الأول ببره إذ هلاك والآخر بعفوه إذ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته)<sup>١</sup> وقد ورد أن النبي عليه السلام كان يقول في دعائه: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعده شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»<sup>٢</sup>.

على أيّة حال، فإنّ الآية الكريمة أعلاه، في عين إثباتها بطلان أفكار الصوفية في استقلالية الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق، فإنّها تبيّن حقيقة وهي أنّ الذات الإلهية المقدّسة مطلقة ولا نهاية ولا حدود لها.

أي هو وجود بلا عدم، ولو أتّا تدبّرنا حقيقة الوجود جيداً ونرهناه من العدم فسوف نصل إلى ذاته المقدّسة، وهذا جوهر برهان الصديقين وروحه.

١. راجع تفاسير مجمع البيان؛ الميزان؛ الكبير؛ روح البيان.

٢. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٦.

ومن البديهي أنّ الموجود المحدود يكون موضعه إمّا في البداية أو النهاية، وإمّا في ظاهر الأشياء أو باطنها، واتّصاف الله سبحانه بأنه الأوّل والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناهٍ ولا محدود.

### هـ نور العالم:

في الآية الخامسة والأخيرة نقرأ في جملة قصيرة وغزيرة المعنى:

﴿الله نُور السماوات والأرض﴾.

ويقعّب هذه العبارة تشبيه جميل وجذاب لهذا النور الإلهي يشكّل ميداناً واسعاً لبحوث المفسّرين الأعلام للقرآن، وبما أنّ الشاهد في هذا البحث هو العبارة الأولى، فإنّ نشر تبيّانها وشرحها:

من الطرق الهامة في تفهيم الحقائق المعقّدة هو استعمال التشبيهات البلاغة بغية تقريب الحقائق العلمية إلى الذهن بضرب الأمثلة الحسّية، وهنا قد استفيد من هذه الطريقة (وإن كانت الأمثلة بشأن الله تعالى ناقصة لعدم وجود مثيل لذاته) ولإدراك حقيقة هذا المثال لا بدّ من التدبّر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته، ولا ريب في أنّ النور من أجمل الموجودات المادية وألطفها وأكثرها بركة، وتنتشر منه البركات والجمال في عالم المادة. فنور الشمس منبع الحياة والسرّ في بقاء الموجودات الحية والعنصر الفاعل في نمو النبات والزهور وجميع الأحياء.

النور هو المصدر الأساس للطاقات، نظير حركة الرياح، وهطول الأمطار، والعنصر الأساس في وجود المحروقات (البترول والفحم الحجري) ولو تبدّل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقف كلّ حركة في العالم.

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها، هذا وانّ حركة الأمواج والذرّات الضوئية هي أسرع الحركات المتتصوّرة في عالم المادة، حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) في الثانية، وهذا يعني أنّ النور في طرفه عين يدور حول الأرض سبع مرات.

وأخيراً فإن نور الشمس أفضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارة وإزالة المowanع عن طريق الحياة البشرية، وبملاحظة هذه الخصائص التي يتصف بها النور المحسوس يتضح عمق تشبيه ذات الله المقدسة بالنور.

نعم، إن وجوده تعالى هو النور الذي يظهر الوجودات ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية، ويصدر كل جمال في العالم، وكل حركة نحو الكمال تنبع من وجوده المقدس، وكل هداية تتحقق برعايته.

وهو الذي يرفع المowanع عن طريق عباده، وهو الهادي للإنسان في طريق الكمال والقرب لذاته، وبكلمة واحدة كل ما في العالم قائم بذاته المقدس.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل النور الذي يُظهر الأشياء يحتاج إلى مظهر؟ وهل الموجودات التي يُظهرها النور تكون أكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفة له؟ وبتعبير أدق: ما هي الوسيلة التي يمكن مشاهدة النور بها غير النور نفسه؟ وهذا هو الأساس في برهان الصدقين.

وقد ذكر المفسرون عدة احتمالات في تفسير هذه الآية لا تنافي بينها، نظير الموارد الكثيرة الأخرى، ويمكن الجمع بينها، أي أن كل مفسر منهم لاحظ - في الحقيقة - الآية من زاوية معينة.

وقد قال الكثير بأن جملة: «الله نُور السماوات والأرض» تعني (المنور للسماءات والأرض).

وقد فسرها البعض الآخر بـ(الهادي لمن في السماءات والأرض) تبعاً للرواية التي وردت عن الإمام الرضا عليه السلام في هذا الشأن حيث قال:

«هاد لأهل الأرض» أو «هاد لأهل السماءات وهاد لأهل الأرض»<sup>١</sup>.

وفسرها البعض الآخر بمعنى الطاهر المنزه من كل عيب في جميع السماءات والأرض. وفسرها آخرون بمعنى المُدبر لشُؤون السماءات والأرض.

١. تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٢٣، ح ١ و ٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠٣

وُفِسِّرَتْ بمعنى الإضاءة بواسطة الشمس والقمر والنجوم، وبواسطة الأنبياء والملائكة والعلماء والمفكّرين.

وُفسِّرَتْ ببعض بمعنى المنظّم للعالم العلوي والسفلي.

وُفسِّرَتْ بمعنى المفيض بالجمال على الكونين.

وُفسِّرَتْ بمعنى خالق السماوات والأرض.

وكما أسلفنا فإنّ هذه المعاني موجودة في الآية الكريمة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، بل إنّ الآية تُنطّق بما هو أعلى وأوسع، حيث إنّ النور نَيْرٌ ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا يحتاج إلى مظهر آخر، لأنّ الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء: «كفى بك جهلاً بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث في الوديان بنور الشمع، واعلم بأنّ الكون طرّأً من شعاع الحقّ».

٤٥٥

## توضيحان

### ١- برهان الصديقين في الروايات الإسلامية والأدعية

هناك طريق آخر لمعرفة ذات الله المقدّسة أقصر وأدقّ من البحث في موجودات العالم، وهو معرفة الذات المقدّسة بذاتها، أي الوصول منه إليه، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع في الروايات الإسلامية وأدعية المعصومين ويشكّل هذا المضمون جوهر برهان الصديقين. ولا نقول أنّ لا يمكن التعرّف على ذاته عن طريق الموجودات في العالم، كما لا نقول بأنّ آيات (الآفاق والأنس) ليست علامات على علمه وقدرته وعظمته فإنّ هذا المعنى جلي في القرآن كله، ولكن نقول إنّ شمّة طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث في أصل الوجود والوصول إليه عن طريق ذاته المقدّسة، وهذا الطريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين غالباً، فمثلاً:

١- نقرأ في دعاء الصباح الشهير: «يامن دلّ على ذاته بذاته وتتنزّه عن مجانته مخلوقاته».

- ٢- ونقرأ في دعاء أبي حمزة الشمالي المعروف: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك».
- ٣- وقد ورد في دعاء عرفة أيضاً: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظہر لك»؟!
- ٤- وورد في الدعاء نفسه: «متى غبت - حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، متى بعثت - حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا ترك عليها رقيباً».
- ٥- وقد ورد في حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وإسمه منصور بن حازم قال له: إني دخلت في مناظرة - مع جماعة وقلت لهم: «إنّ الله أجل وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله»، فقال له الإمام الصادق عليه السلام مصدقاً إياه: «رحمك الله».<sup>١</sup>
- ٦- وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين قوله: «اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعرفة والعدل والإحسان».<sup>٢</sup>
- ٧- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله أحد هم: بم عرفت ربّك؟ فأجاب: «بما عرّفني نفسه».<sup>٣</sup>
- أجل، إنّه معرف ذاته (شروق الشمس دليل على الشمس) وذاته المقدّسة دليل ذاته دون الحاجة إلى معرفة، وخفاؤه على البعض بسبب شدّة ظهوره، كالنور الذي لا يقدر الإنسان على النظر إليه لو تجاوز حدّه، وكما قيل:
- نور وجهك الحاجب عن ظهورك.

٥٥٥

## ٢- إيضاح برهان الصدّيقين

من المناسب أن نفصل هذا البرهان كما يراه الفلسفه الإسلاميون، وبسبب تعقيد البحث

١. أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦، باب أنه لا يعرف إلا به، ح ٣.

٢. المصدر السابق، ص ٨٥، باب أنه لا يعرف إلا به، ح ١.

٣. المصدر السابق، ح ٢.

فإنّا سوف نبيّنه قدر الإمكان بتعابيرات واضحة دون استعمال الإصطلاحات الفلسفية. ويجب الانتهاء قبل كلّ شيء إلى أنّ مزايا برهان الصديقين تتمثل في عدم التطرق إلى الدور والتسلسل أو معرفة المؤثر من خلال الأثر، ومن المخلوق إلى الخالق، ومن الممكن إلى الواجب في إثبات وجود الله، بل هو تحليل للوجود نفسه وحقيقة الوجود، وبذلك نصل إليه من خلال ذاته، وهذا هو المهم (وان لوحظ وجود خلط في عبارات البعض بين هذا الاستدلال واستدلال الوجوب والإمكان وبرهان العلة والمعلول - كما بيناه في السابق - ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر) <sup>١</sup>.

وقد ذكرت تعريفات مختلفة لبرهان الصديقين منها: (تقدير صدر المتألهين في الأسفار، ثمّ المحقق السبزواري في حاشية الأسفار، ثمّ المرحوم العلّامة الطباطبائي في نهاية الحكمة وغيرهم في كتب أخرى)، والبيان الأوضح والأنسب دون الرجوع إلى استعمال برهان الوجوب والإمكان، والعلة والمعلول وبدون الاستناد إلى مسألة الدور والتسلسل أن يقال:

إنّ حقيقة الوجود هي (العينية) في الخارج، وبتعبير آخر هي (الواقعية) وعدم قبول العدم، لأنّ كلّ شيء لا يتقبل ضدّه، وبما أنّ (العدم) ضدّ (الوجود) فحقيقة الوجود - إذن - ترفض العدم.

ومن هنا نستنتج أنّ (الوجود) ذاتاً هو (واجب الوجود) أي أزلّي أبدي، وبتعبير آخر إنّ التدبر في حقيقة (الوجود) يرشدنا إلى أنّ (العدم) لا ينفذ إليه أبداً، وكلّ ما لا يطاله العدم فأنّه واجب الوجود (فتتأمل جيداً).

وأثنا صدر المتألهين - وهو من السابقين إلى هذا الاستدلال - فيقول: «واعلم أنّ الطريق إلى الله كثيرة لأنّه ذو فضائل وجهات كثيرة، «ولكلّ وجهة هو مولّيها» لكن بعضها أو ثق وأشرف وأنور من بعض، وأشدّ البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل

١. راجع نهاية الحكمة، ص ٢٦٨، وشرح مختصر المنظومة ص ٨ و ٩ للشهيد المطهري.

(الصَّدِيقِينَ) الذين يستشهدون به (تعالى) عليه، ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله، واحداً بعد واحد، وغير هؤلاء (المتكلمين، والطبيعين وغيرهم) يتولّون إلى معرفته (تعالى) وصفاته بواسطة اعتبار أمر آخر غيره (الإمكان للحقيقة، والحدث للخلق، والحركة للجسم، أو غير ذلك) وهي أيضاً دلائل على ذاته، وشواهد على صفاته، لكن هذا المنهج أحكم وأشرف.

وقد أشير في الكتاب الإلهي إلى تلك الطرق بقوله (تعالى): «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» وإلى هذه الطريقة بقوله (تعالى): «أَوَ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

ثم يضيف: وذلك لأنَّ الربّانيين ينظرون إلى الوجود، ويحقّقونه ويعلمون أنَّه أصل كل شيء، ثم يصلون بالنظر إليه إلى أنَّه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود، وأمّا الإمكان وال الحاجة والمعلولة وغير ذلك فإنما تلحّقه لا لأجل حقيقته بما هي حقيقته، بل لأجل نفائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته<sup>١</sup>.

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقـي نجد أنَّه لا يجتمع مع العدم أبداً، ولا يسمح للعدم أن يتطرق إليه وذلك لأنَّ الوجود والعدم متقابلان، وهكذا إذا لاحظنا العدم فإنـا نجده يطرد الوجود عن ذاته، وعليه فإنـا حقيقة الوجود واجبة الوجود، والعدم ممتنع الوجود. والإشكال المهم الذي يتـبادر إلى الذهن والذي بادر صدر المتألهين للإجابة عنه في الأسفار هو أنـ كل موجود - وفق هذا الاستدلال - يجب أن يكون واجب الوجود، لأنـ هذا الاستدلال يجري في كل مورد في حين نرى أنـ الممكنات حادثة وليسـ أزلية ولا أبدية ولا واجبة الوجود.

الإجابة: لا بد من الإنـفات إلى هذه النـقطة وهي أنـ الوجـودات المـمكـنة ليست وجودـات أصـيلـة، بل هي وجودـات مـحدودـة ومـصـحـوبةـ بالـعدـمـ وهذاـ العـدـمـ نـاشـيءـ منـ مـحدـودـيتهاـ،ـ وماـ

<sup>١</sup>. راجـعـ الأـسـفارـ، جـ ١ـ، صـ ١٥ـ (بتـلـخـيـصـ يـسـيرـ)،ـ كـمـاـ وـرـدـ نـظـيرـ هـذـاـ المعـنىـ فـيـ حـاشـيـةـ الأـسـفارـ لـلـمـحـقـقـ السـبـزـوارـيـ،ـ جـ ٨ـ،ـ صـ ١٤ـ.

يقال: إنَّ الوجودات الممكنة تترَكِّب من شيئين فاًنْه يعني أنَّ الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها، وعليه فإنَّ الوجود الممكن ليس وجوداً أصلياً وحقيقياً، لأنَّ حقيقة الوجود هي عين الواقعية ولا سبيل لأي قيد أو شرط ونقصان إليها، ولهذا يكون الوجود الأصيل واجب الوجود حتماً.

ونؤكد - بأنَّ الوصول إلى حقيقة هذا الاستدلال - بالرغم من هذه الإيضاحات - يحتاج إلى رياضة فكرية ودقة وعمق كبير (فتتأمل جيداً).



## **٦-الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)**

### **تمهيد:**

(الإدراكات العقلية) - كما نعلم - تشكل جزءاً من المضامون الروحي لدى الإنسان، أي أنَّ الإنسان لا يصل إلى كلِّ شيء عن طريق الدليل العقلي، بل إنَّ المتطلبات والمكتسبات الفطرية الغريرية تشكل جزءاً مهماً من المحتوى الروحي فيه، حتى أنَّ الأساس في الكثير من الأدلة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية، في حين تنشأ المتطلبات والمكتسبات في الحيوانات عن طريق الغريرة فقط.

وفي الحقيقة فإنَّ الذين قاموا بتحديد الإنسان بالبعد العقلي لم يعرفوا تمام الأبعاد الوجودية للإنسان.

ومن المتفق عليه أنَّ طريق الباطن من الطرق المهمة في مسألة (معرفة الله) التي لها طرق لا تحصى، والإنسان هنا يسلك أقصر الطرق، فبدلاً من (المعرفة) يصل إلى (الوجود)، ومن (التفكير) إلى (الرؤيا)، وبدلًا من إعداد (المقدمات) يصل إلى ذي المقدمات.

إنَّه طريق عظيم، مثير للنشاط والحيوية ومرحيب.

وقد اعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعابير جميلة.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاسعين في الآيات الآتية:

١- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخُلُقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (الروم / ٣٠)

٢- «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقُ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (الروم / ٣٣)

٣- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا تَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. (العنكبوت / ٦٥)

٤- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرْجِ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتِهَا رِجْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَاهِرُهُمْ أُحْيَطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. (يونس / ٢٢ - ٢٣)

٥- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَالِيمُ﴾. (الزخرف / ٩)

٦- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّمَا يُؤْفَكُونَ﴾. (الزخرف / ٨٧)

٧- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَحَرَ الشَّمْسَ وَاللَّقَمَ رَأَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّمَا يُؤْفَكُونَ﴾. (العنكبوت / ٦١)

٨- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَسْقُونَ﴾. (يونس / ٣١)

٩- ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّمِيعُ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَسْقُونَ \* قُلْ مَنْ يَبْدِئِ مَلْكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُبْدِيُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنَّمَا تُسْحَرُونَ﴾. (المؤمنون / ٨٤ - ٨٩)

١٠- ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَنْتُمُ الْأَنْثُرُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلِّي شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. (الأعراف / ١٧٢)

### شرح المفردات:

«الفطرة»: من مادة (فَطْر) وتعني - كما أسلفنا - شق الشيء طوليًّا، ثم أطلق على كل شق،

والشقّ ربّما يكون للتخييب وربّما للإصلاح ولذا يستعمل للمعنيين. وبما أنّ (الخلق) بمثابة كشف حجاب ظلمات العدم، فيكون أحد المعاني المهمّة لهذه المفردة هو الإيجاد والخلق، ولنفس السبب يعطي معنى الإبداع والإخراج أيضًا. ويطلق لفظ (الإفطار) على تناول الغذاء بعد أذان المغرب أو إبطال الصوم، فالصوم يُعد حالة متصلة ومستمرة وعند تناول المفتر فإنّ هذه الحالة تقطع أو تُهدم، ولهذا سميت حالة إبطال أو قطع الصوم بالإفطار.

كما يستعمل هذا اللفظ في إنبات النباتات أيضًا وذلك لأنفطار الأرض أثناء خروج النباتات منها، كما يطلق على عملية استخراج اللبن من الضرع باصبعين، فكأنّه ينشق ويخرج منه اللبن.

نقل عن ابن عباس قوله: لم أعرف معنى (فاطر السموات والأرض) جيداً حتى جاء إلى رجالن أعرابيان يتنازعان على بئر، فقال أحدهما لإثبات ملكيته: أنا فطرتها بمعنى (أنا حرفتها)، هنا أدركت أنّ (الفطر) يعني الإيجاد والإبداع في الشيء. ويطلق على البثور التي تظهر في وجوه الشباب من البنين والبنات اسم (تقاطير) أو (تفاطير)<sup>١</sup>.

وإذا ما لاحظنا اعتبار بعض اللغويين مفردة (فطرة) بمعنى الدين والشرع إنّما هو لوجودها في خلقة الإنسان منذ البداية كما سيأتي.

٤٥٥

## جمع الآيات وتفسيرها

### الخلق الثابت والراسخ:

الآية الأولى التي تصرّح بأنّ (الدين) هو أمر فطري وتحاطب النبي ﷺ: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِّينِ حَنِيفًا»<sup>٢</sup>.

- 
١. لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ نهاية ابن الأثير؛ ومجمع البحرين.
  ٢. «حنيف» من «حنف» ويعني كُلّ ميل أو انحراف، وجاء بمعنى الميل من الصلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى

ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا الأمر تقول الآية بعد ذلك: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»<sup>١</sup>.

وبما أنّ الإنسجام والتنسيق بين (التشريع) و(التكوين) يعتبر من المسلمات حيث لا يمكن وجود أمر متصل في خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه، فيمكن أن يكون هذا التعبير دليلاً على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفي كلّ شرك.

وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك: «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ».

وهذا يعني أنّ ما يتजذر في أعمق الوجود الإنساني يستمرّ كأصل ثابت وراسخ - وسوف يتضح لنا بأنّ لهذه الجملة معنى غزير واعجازي، حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجريها المفكرون إلى أنّ العلاقات الدينية هي من أشدّ العلاقات الإنسانية تجدراً ورسوخاً وبقاءً على مر التاريخ.

ييد أنّ فته جاهلة وغافلة تقوم بإفساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك، ولذا فإن القرآن يؤكّد على المحافظة عليها بذكر كلمة (حنيفاً)<sup>٢</sup>.

وللمزيد من التأكيد تضييف الآية: «ذُلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ».

كلمة «قيم» من مادة (قيام) واستقامة بمعنى الثابت والراست المستقيم كما جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش في الإنسان<sup>٣</sup>.

وبما أنّ الكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة ويبتلون بأنواع من عبادة الأصنام، لذا فقد ورد في آخر الآية قوله سبحانه وتعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، والجدير بالذكر أنّ الفطرة التي جاءت في الآية لا تشمل التوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع أصوله وفروعه وستنطّرق إلى هذا البحث الطريف إن شاء الله تعالى.

الحقّ والتعبير بـ(وجه) هنا كناية عن الذات، لأنّ الوجه أهمّ عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامة كحاسة البصر والسمع والذوق والشمّ.

١. توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب في (فطرة الله) ومنها أنها بتقدير (اتبع) (والزم).

٢. يقول بعض المفسّرين بأنّ «لا» في «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» نافية وتطوي معنى النهي (راجع تفاسير مجمع البيان والميزان وروح الجنان) ولكن كما قلنا فإنّ النفي أنساب وأجمل (فتتأمل جيداً).

٣. مفردات الراغب وكتب لغوية أخرى.

### عند هواجة الأزمات:

في الآيات الثانية والثالثة والرابعة التي يدور البحث حولها (وبتعابير مختلفة) هناك إشارة إلى قضية عامة وهي أنَّ الإِنْسَان حينما يواجه الصعوبات والبلاء الشديد ويعجز عن استخدام الوسائل الطبيعية يلجأ إلى فطرته الأصلية في شرق في أعمق قلبه نور المعرفة الإِلَهِيَّة بعد اختفائه، ويذكر مبدأ العلم والقدرة الذي لا ظير له والذي يسهل عليه حل المشكلات كلُّها.

ورد في قسم من الآية قوله: «وَإِذَا مَسَ النَّاسُ ضُرًّا دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ». ولكن بعد انتهاء الأزمة وهبوب رياح الرحمة، فإنَّ مجموعة منهم يعودون إلى شركهم «فُمَّا إِذَا آذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقُ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». وفي موضع آخر يذكر هذا المعنى مقوِّناً بذكر مصداق واضح من الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ» «وأحاطت بهم الأمواج العظيمة والأعاصير المخيفة وامتلأت قلوبهم رعباً وهلاعاً» «دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ».

وقد أشارت آية أخرى إلى أخطار البحر هذه، بصورة جميلة أخرى حيث تقول بأنَّ الله هو الذي يُسَيِّرُكم في الصحاري والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرّكم الرياح الطيبة الهدائة إلى أهدافكم والجميع يغمرهم الفرح والسرور، وفجأة تهبُّ الأعاصير ويهيج البحر وتأتي الأمواج من كلِّ جهة فتهدد الراكبين في السفينة حتى يروا الموت بأعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذَكَّرون الله فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على أن يكونوا شاكرين له إذا نجَّاهُمْ من الها لا (شكراً مصحوباً بالمعরفة):

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ولكن هؤلاء عندما ينجيهم الله من الأخطار الموحشة ويوصلهم إلى ساحل الأمان

ينسون عهدهم مع الله فيشرعون مرّة أخرى بالظلم بدون حقٍّ فيسلكون طريق الشرك وهو من أعظم الظلم ويظلمون الذين تحت أيديهم مغرورين بالنعمة التي هم فيها: «فَلَمَّا أَجْهَمُوهُ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».

كما يلاحظ هذا المعنى في آياتين آخرتين، ففي موضع تقول الآية:

«فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَنَا نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ».

(الزمر / ٤٩)

وفي موضع آخر تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانُ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٌّ مَسَّهُ».

(يونس / ١٢)

هذه الآيات الخمس مع أنها تقصد حقيقة واحدة، بيّد أن كل آية تتمتع بخصوصية ولطافة ولحن خاصٍ، ففي بعضها ذكر لأنواع الأضرار والمشكلات والأذى والتي تشمل أنواع الأمراض والبلاء والقطح والآفات والمشكلات.

وفي البعض الآخر إشارة إلى أحطر البحار فقط (من قبيل الأعاصير والأمواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة الموجودة في أعماقه والضلال عن الطريق وأمثالها).

وفي الأخرى تركيز على أحطر الأعاصير والأمواج.

وفي آية أخرى حديث عن عودة الإنسان للسير في طريق الشرك.

وفي آية أخرى ذكر لطريق البغي والظلم الذي له مفهوم أوسع من الشرك.

وفي آية أخرى إشارة إلى أنّهم يعتبرون المشاكل ناشئة من الله أمّا النعم فإنّها منهم، ونقرأ في آية، إنّهم يشركون بأجمعهم، وتذكر آية أخرى فئة منهم، وذلك لاختلاف المجتمعات البشرية قسم من الفئة الأولى وبعضها قسم من الفئة الثانية.

وتقول آية أخرى: إنّهم يعاهدون الله عند البلاء عهداً ينسونه عند استقرار الأوضاع وزوال البلاء، وفي آية أخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من الله تعالى.

وتقول آية أخرى: إنّهم إذا أصابهم شيء من الضرر (التعبير بـ«مس») فيه إشارة إلى هذا المعنى)، ولكن في آية أخرى إنّهم عندما ينتابهم اليأس من الحياة يقبلون على الله، ولعلّ هذا

الاختلاف إشارة إلى مختلف أفراد البشر حيث يكون البعض من القسم الأول والبعض الآخر من القسم الثاني.

وقد ذكرت كلمة (الإخلاص) في الكثير من الآيات، حيث تشير إلى رفض كلّ معبد سوى الله الواحد، وتدلّ على أنّهم حين الدعوة والراحة يبعدون الله أيضاً، ولكنّهم يجعلون الله أنداداً سرعان ما ينسونهم عند ارتفاع الأمواج العاتية أو الأعاصير الموحشة، ويفجر نور التوحيد والوحданية قلوبهم ويضيئ وجودهم.

ورد في تفسير «روح البيان» بأنّ عبدة الأوّثان وفي أثناء رحلاتهم البحريّة (حيث كانت رحلاتهم محفوفة بالمخاطر، باعتبار أنّ السفر عن طريق البحر مملوء بالحوادث وفي ذلك الزمان أكثر خطراً بالنسبة لعصرنا الحاضر وذلك لافتقارهم للمعدات البحريّة المتقدّرة). فكانوا يحملون معهم الأصنام، وعند هبوب الأعاصير العنيفة فـأنّهم كانوا يلقون أصنامهم في البحر ويستغيثون بأصوات عاليه، يارب! يارب! .

والأعجب أنّهم كانوا يسمعون من النبي ﷺ جميع الأدلة المنطقية الناصعة، لكنّهم لم يؤمنوا، في حين كانوا يقبلون على الله بكلّ وجودهم عندما يتعرضون للبلاء الشديد، وهذا مما يشير إلى أنّ طريق الفطرة أسمح وأيسر للكثير من الناس من الطرق الأخرى. والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يحدّر الذين يستجيبون لنداء الفطرة عند الشدة وينسونه عند الرخاء، ويلفت أنظارهم ببيان جميل بقوله: «أَفَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرِسِّلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا؟» .

هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر للبر؟! أم أنّ الله قادر في البحر ولا قدرة له في البر؟! إنّ الله قادر على أن يأمر الأرض بأن تبتلع كل ما موجود عليها في لحظة واحدة وبواسطة زلزال واحد؟!

١. روح البيان، ج ٦، ص ٤٩٣.

٢. الإسراء، ٦٨.

٣. قبل عدّة سنوات وقع زلزال في شمال أفريقيا وفيه ابتلعت الأرض قرية كاملة ولم يعشروا حتى على خرائطها!

وقد حدث مراراً أن تهب الأعاصير وتحمل الحصى والرمال إلى السماء وتلقاها في نقاط أخرى، وقد تطمر تحتها قافلة بأكملها.

الله الذي يأمر الأمواج في البحار -إذن- قادر على أن يتّخذ من الأعاصير والزلزال في الصحراء جنوداً يهلك بهم الفاسدين.

ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرِسِّلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقُكُمْ مَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونَا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.  
(الإسراء / ٦٩)

أي أنّكم تظنون أنّ هذه هي رحلتكم البحريّة الأخيرة؟ إنّه خطأ كبير.

### إقرار المشركين:

وتتضمن الآية الخامسة حتى التاسعة من آيات البحث حديثاً حول هذا المضمون:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

وأيضاً: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وأيضاً: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمِلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

ولو سالت عبدة الأوثان -عن خلق كلّ فرد من المخلوقات وكيفية تدبير أمورها فانه

يقرّون بأنّ الله وحده هو الخالق والمدبّر !!

إنّ هذه الآيات القرآنية وأمثالها<sup>١</sup> من الشواهد الحية على التوحيد الفطري، ومن الممكن أن تكون هذه الإجابة المناسبة نتيجة للاستدلال العقلي أيضاً وذلك عن طريق برهان النظم، ولكن بمحلاحتة أنّ المشركين العرب أُناسٌ أمميون وبعيدين عن العلم والفكر والاستدلال، فإنّ هذا التناقض في الإجابة يدلّ على أنها كانت تتبع من فطرتهم وهم في ذلك سواء وبدون استثناء، وإلا فإنّ الاستدلالات العقلية مهما كانت واضحة فإنّها لا يمكن أن

١. العنکبوت، ٦٣؛ لقمان، ٢٥؛ الزمر، ٣٨.

تكون شاملة وعامة إلى هذه الدرجة وخاصة بين جماعة بعيدة عن العلم والفكر. من هنا فإننا نعتقد أن الآيات الخمس أو أمثلتها تشكل أدلة على التوحيد الفطري. ولذا يقول صاحب تفسير «روح البيان» في ذيل الآية ٩ من سورة الزخرف: «وفي الآية إشارة إلى أنّ في جبلاً إنسان معرفة الله مرکوزة»<sup>١</sup>.

وفي تفسير «الفخر الرازي» في ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف عرض لهذا المضمون على صورة سؤال وجواب فيقول: «ظنّ قوم أنّ هذه الآية وأمثالها في القرآن تدلّ على أنّ القوم مضطرون إلى الإعتراف بوجود الإله للعالم، وقوم إبراهيم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مُّكْتَبٍ تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾». (ابراهيم ٩/٦)

فيقال لهم: لا نسلّم أنّ قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا، قوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتُهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». (النمل ١٤) وجاء في قوله تعالى حيث قال موسى عليه السلام لفرعون: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُوَ لَأَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَارِئٌ». (الاسراء ١٠٢)

فالقراءة بفتح التاء في علمت تدلّ على أنّ فرعون كان عارفاً بالله، وأماماً قوم إبراهيم عليهما السلام حيث قالوا: «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مُّكْتَبٍ تَدْعُونَا إِلَيْهِ» فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوة<sup>٢</sup>.

وفي التعبير بـ(لقد علمت....) إشارة واضحة إلى هذا المعنى. والطريف أنَّ آيتين من هذه الآيات تذكران في النهاية بعدأخذ الإقرار من الكفار والمشركين بأنَّ الله هو الخالق للإنسان والأرض والسماءات: «فَأَفَ يُؤْفَكُونَ»<sup>٣</sup>. وببناء الجملة للمجهول إشارة إلى أنَّ ذواتهم تسير في طريق الفطرة، غير أنَّ أسباباً خارجية وهي (شياطين الجن والإنس)، وأسباباً داخلية وهي (أهواء النفس والعصبية

١. تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٥٣، ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

٢. التفسير الكبير، ج ٨، ص ٣٩٩، ج ٢٧، ص ٢٢٣.

٣. «مؤفكون» مشتق من «الإفك» ويعني الإرجاع والحرف ولذا يطلق «الإفك» على الكذب أيضاً كما تطلق «المؤتفكات» على الرياح المعارضة.

الجاهلية) تحرفهم عن الحقّ رغم تجذّره في أعماق فطرتهم. في حين جاء التعبير في موضع آخر بـ«فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» بصيغة المبني للمجهول، وهي عبارة تطلق على من يتبع أمراً دون إرادة.

ويوجد احتمال آخر في تفسير هذه الآيات وهو أنّهم كانوا يقولون بأنّ رسول الإسلام عليه السلام يريده أن يحرفنا عن طريق الحقّ أو أنّه ساحر قد سحرنا، فردّ عليهم القرآن: مع أنّكم تقرّون بأنّ الله هو خالق السماء والأرض والشمس والقمر والبشر، وهو المدبر لهذا الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم إلى عبادته ونبذ عبادة غيره؟ أي عقل يحكم بهذا؟!

إنّ الكثير من المفسّرين ومنهم (الطبرسي في مجمع البيان والعلامة الطباطبائي في الميزان والفارزقي في التفسير الكبير واللوسي في روح المعاني والقرطبي في تفسيره) اختاروا التفسير الأول ولو أنّ التفسير الثاني غير بعيد عن مفهوم الآية.

٤٥٥

### عهد عالم الذرة:

الآية العاشرة والأخيرة في هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد الفطري ولا نظير لها في الآيات القرآنية الأخرى، وبسبب المحتوى المعقّد لهذه الآية دارت حولها أحاديث مطولة بين العلماء والمفسّرين والمتكلّمين وأرباب الحديث، نورد - بصورة إجمالية - آراءهم المختلفة ثمّ رأينا المختار بعد الفراغ من تفسيرها.

تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا حَذَّ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَّا شُئْ بِرَبِّكُمْ» فقالوا جميعاً: «بَلِّي شَهِدْنَا» وتُضيف الآية بأنّ الله تعالى فعل ذلك لثلاّ يقولوا يوم القيمة إنّا غفلنا عن هذا الأمر (وهو التوحيد ومعرفة الله): «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» أو تتشبّهوا بحجّة (التقليد) بدلاً عن حجّة (الغفلة) وتقولوا: «إِنَّا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلٍ وَكُنَّا ذُرَّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ».

(الأعراف / ١٧٣)

هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة إجمالية، منها:

- ١- أنَّ الله تعالى أَظْهَرَ جمِيعَ ذَرَّيَّةِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي مُرْحَلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَلْقِ.
- ٢- أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَشَهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَأَخْذَ الْإِقْرَارَ مِنْهُمْ بِرَبِّ بَيْتِهِ.
- ٣- الهدف من أخذ الإقرار والإعتراف والشهادة لأمرين:  
أولاً: عدم السماح للمشركين لادعاء الغفلة والجهل عن حقيقة التوحيد ووحدانية الله  
ثانياً: يوم القيمة.

وأَهْمَّ مِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَ التَّقْلِيدَ لِآبَائِهِمْ ذَرِيعَةً لِلرَّتَكَابِ الْمُعَاصِيِّ.  
وأَهْمَّ سُؤَالٌ يُطْرَحُ هُنَا هُو: مَتى وَقَعَ هَذَا (الظَّهُورُ)? وَبِأَيَّةٍ صُورَةٌ تَمَّ ذَلِكُ؟ وَمَا الْمَرَادُ مِنْ (عَالَمِ الذَّرِّ)؟ كَيْفَ تَحْقِقُ هَذَا الْأَمْرُ؟ لِلأَجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ هُنَاكَ سَتَّةُ آرَاءٍ عَلَى الْأَقْلَلِ،  
وَقَدْ أَيَّدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الْمُفَكِّرِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ:

- ١- طَرِيقُ الْمُحَدِّثِيْنَ وَأَهْلِ الظَّاهِرِ، حِيثُ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَرَادُ هُوَ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنْ أَنَّ ذَرِيَّةَ آدَمَ بِأَجْمَعِهِمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ ظُهُورِهِ عَلَى شَكْلِ ذَرَّاتٍ دَقِيقَةٍ وَمَلَأْتِ  
الْفَضَاءِ وَكَانَتْ تَتَمَمُّ بِالْعُقْلِ وَالْإِحْسَاسِ وَالْقَدْرَةِ عَلَى النُّطُقِ، فَخَاطَبُوهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
وَسَأَلُوهُمْ: (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ؟) فَقَالُوا جَمِيعاً: (بَلِّي)؛ وَبِذَلِكَ أَخْذُ الْعَهْدَ الْأَوَّلَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَكَانَ  
بَنُو إِنْسَانٍ بِأَنفُسِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى ذَلِكَ<sup>١</sup>.
- ٢- الْمَرَادُ مِنْ عَالَمِ الذَّرِّ وَتَفْسِيرِ الْآيَةِ أَعْلَاهُ هُوَ الذَّرَّاتُ الْأُولَى لِوْجُودِ إِنْسَانٍ، أَيِّ  
النُّطْفَةِ الَّتِي اتَّنَقَّلَتْ مِنْ ظُهُورِ الْآبَاءِ إِلَى أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ وَتَبَدَّلَتْ فِي الْمَراحلِ الْجَنِينِيَّةِ إِلَى  
صُورَةِ إِنْسَانٍ كَامِلٍ تَدْرِيْجِيًّا، وَقَدْ أَعْطَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ الْحَالِ الْقَوْيِ وَالْقَابِلِيَّاتِ  
الْمُخْتَلِفَةِ كَيْ تَدْرِكَ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ وَمَنْهَاجَ الْحَقِّ، وَقَدْ جَعَلَ هَذِهِ الْفَطَرَةُ التَّوْحِيدِيَّةَ مُلْتَحِمَةً  
بِوْجُودِهِ.

١. يقول العلامة المجلسي رحمه الله في شرح أصول الكافي (مرأة العقول، ج ٧، ص ٣٨) عن هذه الحقيقة: (طريقة  
المحدثين والمتأولين فأنهم يقولون تؤمن بظاهرها ولا تخوض فيها، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل)، والفسخر  
الرازي ينسب ذلك إلى المفسّرين والمحدثين تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٤٦.

يذهب إلى هذا التفسير جمع من المفسّرين كصاحب تفسير (المنار) و(في ظلال القرآن) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسّرين<sup>١</sup>.

وبهذا يكون (عالِم الذرّ) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القال؛ ولهذا الأمر شواهد ونظائر كثيرة وردت في كلمات العرب وغيرهم؛ كما نقل السيد المرتضى في كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول: «سَلِ الْأَرْضَ مِنْ شَقْ أَنْهَارِكَ وَغَرْسَ أَشْجَارِكَ وَجَنْيَ شَمَارِكَ؟ فَإِنْ لَمْ تُجْبِكَ حَوَارًا أَجَابْتَكَ اعْتِبَارًا».

هذا القول يشابه ما ذكره جمع من المفسّرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعمّان موجودات العالم حتّى الجمادات أيضًا.

٣- المراد من (عالِم الذرّ) هو (عالِم الأرواح) ويعني ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق في البداية أرواح البشر قبل أجسادهم، وخاطبها وأخذ الإقرار منها على وحدانيته. وقد استخلص هذا التفسير من بعض الروايات كما سنشير إليه.

والجدير ذكره أنَّ كلمة (ذرّية) في آية البحث مشتقة من (ذرّ) وهي تعني ذرات الغبار الدقيقة، أو النمل الدقيق أو أجزاء النطفة أو من (ذرو) ويعني التفريق أو من (ذرء) ويعني الخلق.

بناءً على ذلك لا نسلم بأنَّ الأصل في (ذرّية) هو (ذرّ) بمعنى الأجزاء الدقيقة (فتتأمّل جيدًا).

٤- إنَّ هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين الله عزَّ وجلَّ بواسطة الأنبياء وبلسان القال حيث استمع جمع من البشر إلى أدلة التوحيد - بعد ولادتهم وإكمال عقولهم - من الأنبياء واستجابوا لها وقالوا (بلى).

فإنْ قيل إنَّ (ذرّية) مشتقة من (ذرّ) وتعني الاجسام الصغيرة جدًّا فلا تنجم مع هذا المعنى، فيزيد أصحاب هذا القول: بأنَّ أحد المعاني المعروفة لـ (ذرّية) هو الأنبياء - صغاريًّا وكبارًا - وأنَّ إطلاق (ذرّية) على العقلاة والبالغين في القرآن الكريم ليس بالقليل.

١. تفسير المنار، ج ٩، ص ٣٨٧ (تعبيره ينسجم مع القول الخامس)؛ تفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٦٧١.

وقد ذكر السيد المرتضى عليه السلام هذا التفسير - في بعض كلماته - على شكل احتمال في إيضاح الآية المذكورة، كما أنّ أبا الفتوح الرازي قد أورد هذا التفسير كاحتمال في تفسيره إضافةً إلى وجود إشارة إلى ذلك في تفسير الفخر الرازي في ذيل الآية<sup>١</sup>.

٥- أنّ هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل، فكلّ إنسان يقرّ بعد اكتمال عقله ومشاهدته لآيات الله في الآفاق والأنفس بوحданية الله بلسان حاله، وكأنّ الله عزّ وجلّ يسألهم بإرادة هذه الآيات: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟» فيجيبون بلسان الحال: «بِلِّي»، وأما الحديث بلسان القال فإنّ له شواهد ونظائر كثيرة.

وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسي عليه السلام في التبيان عن البلخي والرماناني<sup>٢</sup>.

٦- وهو التفسير الذي اختاره العلّامة الطباطبائي عليه السلام في «الميزان»: بعد أن ذهب إلى استحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابقاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد أخذ الله منهم العهد على وحدانيته ثمّ أعادهم إلى حالتهم السابقة كي يجتازوا مسیرتهم الطبيعية، وبذلك يأتون إلى الدنيا مرّتين فقال:

وأثبت بقوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* فَسُبْحَانَ اللَّهِي بِسَيِّدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ». (يس / ٨٢ - ٨٣)

وقوله: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٌ بِالبَصَرِ». (القمر / ٥٠)

إنّ هذا الوجود التدربيجي للأشياء ومنها الإنسان هو أمر من الله يفيضه على الشيء ويلقيه إليه بكلمة (كن) إضافة دفعية والقاء غير تدربيجي، فلو جود هذه الأشياء وجهان، وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالخروج من القوة إلى الفعل تدريجاً، ومن العدم إلى الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثم لا يزال يتکامل حتّى يفنى ويرجع إلى ربّه، ووجه إلى الله سبحانه وهو بحسب هذا الوجه أمور تدربيجية وكلّ ما لها فهو لها في أوّل وجودها من غير أن تتحمل قوة تسوقها إلى الفعل... وبعبارة أخرى: أنّ الموجودات لها نوعان من

١. تفسير روح الجنان، ج ٥، ص ٣٢٦.

٢. تفسير التبيان، ج ٥، ص ٢٧ (وفي تفسير المنار ج ٩، ص ٣٨٦ تعبير يقرب من هذا المعنى).

الوجود، الأول: الوجود الجمعي عند الله تعالى والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالملوك، والآخر: الوجودات المنتشرة التي تظهر تدريجياً بمرور الزمان.

وبهذا تكون حياة الإنسان في الدنيا مسبوقة بحياة إنسانية أخرى لا يكون فيها أحد محجوباً عن الله تعالى، وقد شاهده هناك كلُّ موجود بالشهود الباطني وأقرَّ برب بيته. ثمْ يضيف ﷺ: لو دققنا في الآيات الآنفة الذكر لرأينا أنها تشير إلى هذا المعنى.

بعد اتضاح التفاسير الستة بصورة إجمالية نشرع بدراستها ونقدها:

القول الأول هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحققين، ووجهوا إليه أغلب الإشكالات، حيث أشكل عليه الطبرسي في «مجمع البيان» والسيد المرتضى - كما نقله العلامة المجلسي رحمه الله في مرآة العقول - كما أنَّ الفخر الرازمي أورد ١٢ إشكالاً على هذا القول! غير أنَّ بعضها ليس جديراً بالإهتمام وبعضها مكرر أو قابل للإندماج مع غيره، وبصورة عامة تتوجّه خمسة إشكالات إلى هذا القول:

أ) إنَّ هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة (بني آدم) أبداً، وكذلك مع ضمائر الجمع في الآية، وكلُّها تتحدث عن بني آدم لا آدم نفسه، كما لا يتطابق مع لفظة «ظهور» جمع «ظهور»، والخلاصة هي أنَّ الآية تقول: إنَّ «الذرية» ظهرت من ظهور «بني آدم» لا من ظهر «آدم»، في حين أنَّ الروايات تدور حول نفس آدم.

ب) لو صحَّ أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا النسيان العام دليل على استبعاد هذا التفسير، لأنَّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنَّ البشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمني بين عالم الذرِّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

ج) لو سلمنا - فرضاً - بأنَّ هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الذرِّ، ولكن النتيجة هي علية هذا العهد، لأنَّه يكون مؤثراً حينما يتذكره الناس، أمّا ما ينساه كافة البشر

فأنه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجّة وسدّ باب الاعذار.

د) يستفاد من قوله تعالى: «رَبَّنَا أَمْتَنَا اثْتَيْنِ وَأَحْيَتَنَا اثْتَيْنِ». (المؤمنون / ١١)

إن للبشر مترين وحياتين (حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثم يموتون ثم يحيون يوم القيمة) في حين يكون لهم -وفقاً لهذا التفسير- أكثر من مترين وحياتين: (موت وحياة في عالم الذرّ وموتان وحياتان آخران).

هـ) يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأنّا نعلم بأنّ التناسخ ليس إلا حلول روح واحدة في جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الروح الأولى تعلقت أولاً بالذرّات الدقيقة جداً والتي خرجت من ظهر آدم ثم خرجت لتعلّق بالأجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ. وبطّلان التناسخ هو من المسلمات في الدين، ولذا فإنّ الشيخ المفيد رحمه الله في كتابه «جواب المسائل السروية» عندما يذكر التفسير أعلاه مقرضاً بعض الروايات يضيف: «هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحق والباطل».<sup>١</sup>

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسّرين الطبرسي رحمه الله.<sup>٢</sup>

و سنلاحظ بإذن الله لدى مطالعة أخبار عالم الذرّ أنّ الأخبار الدالة على هذا التفسير معارضة بأخبار أخرى.

## ٣٥٥

وأمّا القول الثاني الذي يتحدّث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصة لمعرفة الله في عالم الرحم فإنّه أقلّ الأقوال إشكالاً، والإشكال الوحيد الذي أورده عليه هو أنّ ظاهر الآية المبحوث عنها هو أنّ السؤال والجواب جاء بلسان القال لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً إلى أنّ جملة (أخذ) دليل على أنّ هذا الأمر قد أخذ في الماضي، في حين

١. مرآة العقول، ج ٧، ص ٤١.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٩٧.

أنّ فطرة التوحيد للأجنة هي أمر مستمرٌ ويتحقق في كلّ زمان، والإشكالات يمكن الإجابة عليها وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع القرينة، وقد كثر ذلك في اللغة العربية نثراً وشِعراً...، والإشكالات المهمة التي ترد على التفسير الأول قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضي قد يستعمل في الاستمرار أيضاً، وهذا - طبعاً - يحتاج إلى قرينة أيضاً، وهذه القرينة موجودة في موضوع البحث<sup>١</sup>.

أمّا التفسير الثالث القائل بأنّ المراد هو: سؤال الأرواح فأنّه لا ينسجم مع آية البحث أبداً، لأنّ الآية تتحدث عنأخذ الذريّة من ظهوربني آدم ولا يرتبط هذا بقضية الأرواح. وأمّا التفسير الرابع القائل بأنّ السؤال والجواب كان بهذا اللسان الطبيعي ويرتبط بمجموعة من البشر قد سئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الأنبياء عن مسألة التوحيد وأجابوا بالإيجاب عليه، فإنّ عليه إشكالات رئيسية منها:

إنّ الآية تتحدث عن جميع البشر لا مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أو لا ثم كفروا، مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية هو كون السؤال من قبل الله لا من قبل الأنبياء. ولا يصحّ ما يظنه البعض من أنّ جملة: «إِنَّا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِ» دليل على أنّ الآية تقصد المجموعة التي أشرك آباؤها، لأنّ الآية تذكر عذرين غير موجّهين للكافر، الأول هو الغفلة والثاني التقليد للآباء المشركين.

ويمكن أن يكون كلّ عذر لمجموعة خاصة وأنّهما معطوفان بكلمة (أو). وأمّا التفسير الخامس فإنه يشابه التفسير الثاني من جهات مع وجود فارق وهو: أنّ التفسير الثاني يتحدث عن الفطرة القلبية، بينما يتحدث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإنّ هذا التفسير قد مال إليه كثير من المفسّرين الأعلام. وأمّا التفسير السادس الذي ورد في «تفسير الميزان» فإنه يواجه إشكالين كبيرين: الأول: هو إثبات عالمين (عالم جمعي وعالم تفصيلي) ولا دليل واضح لهما حسب ما ورد من البيان.

١. شوهدت هذه العبارة كثيراً في الآيات القرآنية: فاطر، ٤٤؛ الشورى، ٥١؛ الفتح، ١١؛ الفتح، ١٩.

والثاني: أنّ تطبيق الآية على هذا العالم (بافتراض ثبوته) يبدو بعيداً جدّاً ولا يسلم أصل القضية وفرعها من الإيراد.

### حصيلة البحث عن عالم الذرّ:

نصل مما ذكر إلى هذه النتيجة وهي: أنّ التفسير الثاني والخامس - بعد الدراسة الدقيقة - هما أقلّ التفاسير إشكالاً، وأما الإشكال الوارد في أنّه يخالف الظاهر في بعض الجهات فإنه يمكن التغاضي عنه مع توفر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك في اللغة العربية وغيرها، ولذا فإنّ الكثير من المفسّرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد اختاروهما، كما تتضمن الروايات إشارات واضحة إلى هذا المضمون وسيأتي ذلك في البحث المسبق بإذن الله.

وباختصار: إنّ أغلب المحققين يعتقدون بأنّ هذا السؤال والجواب الإلهي قد تمّ مع جميع البشر وبسان الحال لا القال، أو عن طريق الإستعداد الفطري المودع في الجنين أو عن طريق الإستعداد العقلي الذي أوجده فيهم بعد البلوغ والكمال العقلي، أحدهما يتحدد عن الفطرة القلبية (دون الحاجة إلى استدلال) والثاني يتحدّد عن الفطرة العقلية التي تعتبر معرفة الله من البديهيات العقلية، حيث إنّ دلائله من الواضح ما يجعل كافة البشر يدركون ذلك، صحيح أنّ مجموعة من البشر ينكرون ذلك بسان القال ويؤيدون المادية، ولكنّا حينما نحلّ كلامهم نراهم يجعلون للمادة والطبيعة نوعاً من العقل والإحساس، وبعبارة أخرى أنّهم أطلقوا كلمة (الطبيعة) على (الله)، ونعتقد أنّ الإشارة إلى الفطرة القلبية هي الأنسب (فتأنمل جيداً).

٢٥٣

### توضيحات

#### ١- (عالم الذرّ) في الروايات الإسلامية

إنّ المصادر الإسلامية (السنّية والشيعية) تتضمن روايات جمّة عن (عالم الذرّ) تبدو

وكانّها روايات متواترة، فمثلاً يتضمّن تفسير نور الثقلين ٣٠ رواية، وتفسير البرهان ٣٧ رواية ولعلّها تتجاوز الأربعين في مجموعها (مع حذف المكرّرات)، كما يتضمّن تفسير (الدرّ المنثور) روايات عديدة، مما يشير إلى أنّ مضامين الروايات لا تنحصر في مذهب إسلامي خاصّ.

غير أنّ كثيراً منها منقوله عن راوٍ واحد ولذا يشملها حكم الخبر الواحد (يلاحظ أنّ كثيراً منها مروي عن زرارة، وعددًا منها عن أبي بصير، وبعضاً منها عن جابر، كما تلاحظ روايات عن عبد الله بن سنان وصالح بن سهل) وبهذا فإنّ العدد الحقيقي للروايات ينخفض بشكل ملحوظ.

هذا وإنّ مضامين هذه الروايات متباعدة تماماً فبعضها يتفق مع التفسير الثاني القائل بأنّ هذا العهد عهد فطري ويرجع إلى إبداع المعرفة الفطرية في الإنسان نظير الرواية التي ينقلها عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليهما السلام: «قال: سأله عن قول الله عزوجلّ **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** ما تلك الفطرة؟، قال: هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال **«أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»** وفيه المؤمن والكافر».١

وكما تلاحظ فإنّ الحديث يتضمّن بياناً عن الإرتباط الوثيق بين آية (الفطرة) وآية (عالِم الذرّ)، وقد روى زراره هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق عليهما السلام، فإنه عندما سأله الإمام عليهما السلام عن تفسير الآية **«وَإِذْ أَخْذَ رِبّكَ...»** أجابه عليهما السلام: «ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف، ويدركونه يوماً، ولو لا ذلك لم يدر أحد من خالقه ومن رازقه؟».<sup>٢</sup>

في حين أنّ بعضاً آخر من الروايات يتفق مع التفسير الأول حيث تذكر أنّ ذرية آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرّات، وقد أخذ الله هذا العهد منهم بلسان القال، كالروايات التي وردت في تفسير البرهان المرقمّة بـ ٣، ٤، ٨، ١١، ٢٩ (وقد روى زراره هذه الروايات عن الإمام الباقر عليهما السلام وهي -في الحقيقة -رواية واحدة).

١. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٧، ح ٧؛ و تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٥، ح ٣٤٥.

٢. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٨، ح ١٥.

وقد ورد هذا المعنى في تفسير الدر المنشور عن ابن عباس بطرق متعددة ولكن يطول ذكرها وهي ذات مضمون واحد في الحقيقة وتتلخص في حديث واحد عن ابن عباس وليس عن الرسول الأكرم ﷺ، وفي كتب أخرى نقل هذا المعنى بطرق أخرى. والأشكال المهم الذي يرد على هذه الأحاديث هو أنها مخالفة لظاهر وصريح كتاب الله لأنّها تقول بأجمعها: أنّ ذرّية آدم خرجت من ظهر آدم على صورة ذرّات، في حين يقول القرآن الكريم بأنّ الذرّات هذه خرجت من ظهوربني آدم: «مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظَهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ».

وإضافة إلى ذلك فإنّ ثمة إشكالات عديدة أخرى ترد على مضمون هذه الأحاديث تمّت الإشارة إليها وجعلها في المجموع في عداد الأحاديث الضعيفة. والمجموعة الثالثة من الأحاديث مبهمة وتلائم التفاسير المختلفة، مثل الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سأله: كيف أجابوا وهم ذرّ؟ فقال عليه السلام: «جعل الله فيهم ما إذا سألهم أجابوه، يعني في الميثاق».<sup>١</sup>

وهناك مجموعة رابعة من الأحاديث تقول بأنّ هذا السؤال والجواب قد جريا مع أرواح البشر، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط، كرواية المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «قال الله عزّوجلّ لجمع أرواح (بني آدم) ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى».<sup>٢</sup> كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أنّ الله سبحانه أوقف الأرواح البشرية في ذلك اليوم على نفس الهيئة التي تخلق عليها وأخذ منها العهد.<sup>٣</sup>

بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السندي كثير منها، لا يمكن الاعتماد عليها كمستمسك معتبراً وأفضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك

١. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٩، ح ٢٢.

٢. المصدر السابق، ح ٢٠.

٣. تفسير الدر المنشور، ج ٣، ص ١٤٢.

في مثل هذه الموارد الحكم ب شأنها وندع العلم بها إلى أهلها<sup>١</sup>.

نقى والآية أعلاه وما يستفاد منها بمعونة القراءن المختلفة، وكما أشرنا فإنّ التفسير الثاني - كما يبدو - هو الأنسب من بين التفاسير الستة المذكورة للآية، وهو التفسير الذي يعتبر عالم الذرّ منسجماً مع فطرة المعرفة الإلهية والإسلام، وعليه فإنّ ذرات النطفة من ذرّ خروجها من ظهور الآباء واستقرارها في أرحام الأمّهات تكون قد استقرّ فيها نور المعرفة والتّوحيد والقانون الإلهي على صورة قابلية ذاتية.

## ٢ - فطرة العقل أم القلب؟

الحصيلة من كلمات العلماء في بحث فطرية المعرفة الإلهية هي أنّهم سلكوا طريقين، بعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الاستدلال العقلي الواضح، وهو أنّ كلّ إنسان بعد اكتمال عقله وملحوظته لنظام عالم الوجود وبعض الأسرار في الخلق ينتقل إلى هذه الحقيقة فوراً وهي استحالة نشوء هذا النظام البديع ذي الأسرار العجيبة من مبدأ فاقد للعقل والإحساس، وعليه فإنّ الفطرة تعني: (العقل الفطري) الذي يكتفيه استدلال واضح للوصول إلى الحقيقة ولا يحتاج إلى أستاذ أو معلم، كما يحكم الإنسان بأنّ (الكلّ أكبر من الجزء) حيث أدركه باستدلال عقلي واضح وهكذا عندما يقول بأنّ (المساويبين لشيء متساويان).

من هنا نلاحظ أنّ علماء المنطق يقسمون بديهيّات المنطق إلى ستة أقسام:

الأوليات، المشاهدات، التجربيات، المتواثرات، الحدسّيات، الفطريات، وقالوا في تعريف (الفطريات): بأنّها القضايا التي لا يصدق بها العقل بمجرد تصوّرها بل يحتاج إلى حدّ أو سطّ وهو حاضر لدى الذهن دائمًا، وللفطرة معنى آخر وهو أصحّ وأفضل في البحوث المعنية وهو: إدراك الحقائق من دون الحاجة إلى أي استدلال (معقد أو بسيط) ويتفهّمها

١. للمزيد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الذرّ يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٧؛ مرآة العقول، ج ٧، ص ٣٦؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٣؛ وتفسير درّ المنشور، ج ٣، ص ١٤١، وما بعدها.

بوضوح ويتقبّلها، فهو حينما يشاهد - مثلاً - باقة من الورد الجميل ذات عطر ذكيّ يقرّ بجمالها، دونما حاجة إلى إقامة الدليل أبداً، ويقول بأنّها جميلة حقاً ولا تحتاج إلى دليل. والفهم الفطري في مجال المعرفة الإلهيّة من هذا القبيل، فالإنسان حينما يتدبّر من أعمق روحه يبصر نور الحقّ ويسمع نداءه بقلبه، يدعوه إلى مبدأ العلم والقدرة التي لا مثيل لها في عالم الوجود، مبدأ الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو في الفهم الوجدي - كما في جمال الورد - لا يشعر بحاجة إلى إقامة الدليل.

٤٥٥

### ٣- شواهد حيّة على فطريّة الإيمان بالله

ربّما يقال بأنّ هذه كلّها ادعّاءات ولا سبييل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الإلهيّة، فمن الممكن أن أدعّي بأنّي أشعر بهذا الإحساس في قلبي أي من أعمق روحي، ولكن كيف أقنع شخصاً يرفض هذا الكلام؟ لدينا شواهد كثيرة بإمكانها إثبات فطريّة المعرفة الإلهيّة بشكل واضح جداً، بنحو يفحم المنكرين، ويمكن تلخيصها في أقسام خمسة:

#### أ) الحقائق التاريخية

إنّ الحقائق التاريخية التي تمت دراستها من قِبَل أقدم المؤرّخين في العالم تدلّ على عدم وجود دين لدى الأقوام السابقة، بل كان كلّ قوم يؤمّنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه، ولو سلّمنا بوجود حالات نادرة في هذا الأمر، فإنّ هذه القضية لا تضرّ بالأصل العام الذي يحكم بأنّ المجتمعات البشرية كلّها كانت دائماً على طريق عبادة الله (كل قاعدة كليّة لها استثناءات نادرة).

المؤرّخ الغربي الشهير (ويل ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) يقرّ بهذه الحقيقة بعد الإشارة إلى بعض الموارد في الإلحاد الديني ويقول: «إلى جانب هذه القضايا التي ذكرناها فإنّ الإلحاد الديني من الحالات النادرة، وهذا الإعتقاد القديم بأنّ التدين حالة بشرية عامة يتطابق مع الحقيقة...».

«تعتبر هذه القضية من القضايا التاريخية والنفسية الأساسية لدى الفيلسوف، فهو لا يقول بأنّ الأديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الدين كان مع التاريخ منذ أقدم العصور»<sup>١</sup>.

ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن: «أين تكمن التقوى التي لا تفارق قلب الإنسان أبداً؟»<sup>٢</sup>.

كما يقول في كتابه (دروس التاريخ) ويعتبر ساخط ومتالم: «للدين مائة روح، كلّما تقتله فإنه يسترجع الحياة مرّة أخرى!»<sup>٣</sup>.

ولو كان الإيمان بالله والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملاً بهذا الحجم ولما استمر طيلة التاريخ، وهذا أفضل دليل على أنه أمر فطري.

#### ب) الآثار التاريخية

إنّ الآثار المتبقية من عصور ما قبل التاريخ (أي ما قبل اختراع الخطّ وكتابه أحوال الإنسان) تدلّ على أنّ البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون بالله والمعاد والحياة بعد الموت، بدليل أنّهم كانوا يدفنون الأشياء التي يحّسونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت! كما أنّ تحنيط أجساد الأموات حفظاً لها من الإنذار، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقى أزماناً مت谏ية دليلاً على إيمان الأسلاف بالمبدأ والمعاد.

صحيح أنّ هذه الأعمال تدلّ على اقتران إيمانهم الديني بخرافات كثيرة إلا أنّها دليل على أنّ الإيمان الديني في مراحل ما قبل التاريخ لا يمكن إنكاره.

#### ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس

إنّ الأبعاد الروحية للإنسان وميوله الأساسية هي أيضاً دليلاً واضح على فطريّة العقائد

١. قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ١، ص ٨٧

٢. المصدر السابق، ص ٨٩

٣. الفطرة للشهيد المطهري، ص ١٥٣.

الدينية، وهي أربعة ميولات سامة وأصيلة عبر عنها بعض علماء النفس بأنّها الأبعاد الأربع لروح الإنسان وتشمل: (١ - حبّ العلم، ٢ - حبّ الجمال، ٣ - حبّ الخير، ٤ - حبّ الدين) وتمثل شاهداً حيّاً على هذا الأمر<sup>١</sup>.

وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة أبعاد هي: (١ - مقوله البحث عن الحقيقة، ٢ - مقوله الخير الأخلاقية، ٣ - مقوله الجمال، ٤ - مقوله الإبداع، ٥ - مقوله العشق والعبادة)<sup>٢</sup>.  
ويبدو أنّ مقوله الإبداع لا تنفك عن مقوله البحث عن الحقيقة.

على أيّة حال فإنّ حبّ العلم يوجد في الإنسان ميلاً شديداً نحو العلم وفهم أسرار عالم الوجود، وهذا الإحساس يشمل الأمور المؤثرة وغيرها في حياته.

ونري أنّ نعلم كيف كانت الدنيا قبل مليار عام وكيف ستكون بعد مليار عام؟ دون أن تكون لهذه الأمور في فهمها على الحياة الفردية والاجتماعية تأثيرات عملية، فهذا الحسّ هو السبب في ظهور العلوم والمعارف.  
إنَّ الجمال الذي يشعر به كل إنسان في أعماقه هو الذي يدفعه إلى الإبداع وهو المصدر الأساس لكلِّ الفنون.

وإنَّ حبَّ الخير هو السبب في ظهور الأخلاق والإلتزام في الإنسان تجاه المباديء من قبيل العدل، الحرية، الصدق، وأمثالها، ومن الممكن أن لا يلتزم كثير بهذه المباديء عملياً غير أنَّه لا ريب في ارتياح قلوبهم لها.

البعد الرابع لروح الإنسان والمعبر عنه أحياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدس والإلهي هو الذي يدفع الإنسان نحو الدين، وهو يؤمن بوجود ذلك المبديء العظيم بدون حاجة إلى دليل خاصّ، ويمكن أن يقترن هذا الإيمان الديني بألوان من الخرافات وينتهي بعبارة الأصنام والشمس والقمر، غير أنَّ بحثنا يدور حول الأساس فيه.

١. راجع مقالة (كوفنتايم) في كتاب (الحسّ الديني أو البعد الرابع لروح الإنسان).

٢. الفطرة، للشهيد المطهرى، ص. ٦٤.

#### د) فشل الدعاية ضد الدين

نحن نعلم بأنّ دعایات شديدة لا مثيل لها من حيث السعة شُنت ضدّ الدين في القرون الأخيرة وخاصة في الغرب بالاستفادة من الأساليب والوسائل المختلفة.

وكان ب بدايتها في مرحلة النهضة العلمية في أوروبا (رنسانس) وفيها تحررت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطغى التيار المعارض للدين (كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذ في أوروبا) إلى درجة تُطرح فيها الأفكار الملحدة في كلّ مكان واستغلّوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاصّ لرفض الأسس الدينية كلّها حتى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة، وأنزل رجال الدين في أوروبا وأصبح الإيمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية في عداد الخرافات.

وقدما من المسلمات لدى كثير منهم أنّ البشرية مرّت بمراحل أربع هي: (مرحلة الأساطير، مرحلة الدين، مرحلة الفلسفة، ومرحلة العلم) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقرض في مرحلة سابقة!

والعجب أنّ كتب علم الاجتماع الحديثة التي تمثل الصورة المتكاملة لعلم الاجتماع السائد آنذاك تفترض هذه القضية من المسلمات، وهي أنّ الدين يمثل عاملاً طبيعياً يتردّد بين الجهل والخوف والمتطلبات الاجتماعية والأمور الاقتصادية، فهناك اختلاف بصددها! صحيح أنّ السلطة الدينية الحاكمة (أي الكنيسة) في القرون الوسطى هي التي يجب أن تدفع الثمن بسبب استبدادها وظلمها وتعاملها السيئ مع الناس بصورة عامة وعلماء الطبيعة بصورة خاصة، إضافة إلى اهتمام الكنيسة بالشكليات والمظاهر وبالآمور التي لا تستحقّ الإهتمام ونسيان المحرّمين من طبقات المجتمع، لكن العيب في هذا الأمر هو أنّ الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب في العالم كلّها.

وقد دخل (الشيوعيون) كغيرهم الميدان ليقضوا على الدين بكلّ ما يمتلكون من قوة، وسخّروا جميع الأجهزة الإعلامية وأفكار فلاسفتهم من أجل ذلك وسعوا سعيهم لإظهار الدين وكأنّه أفيون الشعوب!

ييد أنّا نشهد أنّ هذه التيارات العاتية ضدّ الدين لم توفق لاجتثاث الجذور الدينية المغروسة في القلوب والقضاء على النشاط الديني، وها نحن اليوم نرى بامّ أعيننا انتشار الوعي الديني بشكل واسع من جديد حتّى في البلدان الشيوعية، والأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام تحكي عن الرعب المتزايد الذي يعيشه الحكام في هذه المناطق إزاء الميلاد الديني وخاصة الإسلامية، كما نلاحظ في الأقطار الشيوعية - التي تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء على الدين - ظهور حركات طالب بانتشار الدين.

هذه الحقائق تدلّ بصورة واضحة على تجذر الدين في أعماق (الفطرة) البشرية، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الإعلامية المعارضة العاتية ولو لاها لانفرض تماماً.

#### ه) التجارب الشخصية في الأزمات

إنّ أغلب الناس جربوا هذه الحقيقة في حياتهم وهي: أنّ الإنسان حينما يواجه مشكلات قاتلة، وشدائد الحياة الصعبة، ويتلقي بدوّمات البلاء وحينما توصد بوجهه الأبواب ويبلغ السيل الرّبّي، ففي هذه اللحظات المضطربة يورق أمل في أعماق روحه، فيتجه إلى الله سبحانه القادر على حلّ المشكلات كلّها فيتعلق به ويستمدّ العون منه.

ولا يستثنى من ذلك حتّى الأشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرّضهم للأمراض الخطيرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الإلهية.

نعم، في زوايا قلب الإنسان وأعمق روحه نداء لطيف مليء بالرحمة وقوى وبين يدعوه إلى الحقيقة الكبرى، وهي (الله) القادر والمعالي والعالم، وبحثنا يدور حول الإيمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها.

#### و) شهادة العلماء على فطرية الدين

ليست قضيّة فطرة (معرفة الله) قضيّة مطروحة في القرآن الكريم والروايات الإسلامية

فحسب، بل إنّ كلامات العلماء وال فلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها: فمثلاً، يقول اينشتاين في حديث طويل: «إنّ العقيدة والدين موجودان في الجميع دون استثناء... إنّي أُستّيه (الشعور الديني للخلق)... في هذا الدين يشعر الإنسان الصغير بآمال وأهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر، إنه يرى وجوده كسجن، وكأنّه يريد التحرّر من سجن الجسم ليدرك الوجود كله كحقيقة واحدة»<sup>١</sup>.

ويقول العالم الشهير باسكال:  
«للبقلب أدلة لا يدركها العقل»<sup>٢</sup>.

ويقول ويليم جيمز:  
«إنّي أقرّ تماماً بأنّ القلب هو المصدر للحياة الدينية، كما أقرّ بأنّ القواعد الفلسفية تشابه موضوعاً مترجمًا كُتب نصّه بلغة أخرى»<sup>٣</sup>.

ويقول ماكس مولر:

«لقد خضع أسلافنا الله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتّى على إطلاق اسم على الله»<sup>٤</sup>.

وهو القائل في موضع آخر: «خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأنّ الدين ظهر أوّلاً بعبادة الطبيعة والأشياء والأصنام ثمّ وصل إلى عبادة الله الواحد، فلقد أثبت علم الآثار بأنّ عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيام»<sup>٥</sup>.

ويقول المؤرّخ الشهير (بلوتارك):

«لو لاحظتم العالم فإنّكم ستجدون أماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة ودولة، ولكنكم لا تجدون موضعًا ليس فيه الله»<sup>٦</sup>.

١. العالم الذي أراه، ص ٥٣ (بتلخيص).

٢. مسيرة الحكمة في أوروبا، ج ٢، ص ١٤.

٣. المصدر السابق، ص ٣٢١.

٤. مقدمة الدعاء، ص ٣١.

٥. الفطرة للشهيد المطهري، ص ١٤٨.

٦. مقدمة الدعاء، ص ٣١.

ويقول صموئيل كينغ في كتاب (علم الاجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحلة والمبشرون (المسيحيون) الأوائل بذكر أسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب، ولكن أقوالهم -كما علم فيما بعد - لم يكن لها أساس من الصحة فأحكامهم ناشئة فقط من ظلّهم بأنّ أديان أولئك يجب أن تشابه ديننا»<sup>١</sup>.

ونختم هذا البحث بكلام لـ(ويل ديوانت) المؤرّخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم تتصور للأديان جذوراً في عصر ما قبل التاريخ، فإنّا لا يمكن أن نتعرّف على حقيقتها في التاريخ»<sup>٢</sup>.

## ٤- الفطرة في الروايات الإسلامية

إنّ قضية فطرية التوحيد في العبادة بشكل خاصّ، أو الدين والمذهب بصورة عامة، أمرٌ فطري ذو انعكاس كبير في الروايات الإسلامية بالرغم من اختلاف التعبير فيها، ففي بعضها عرض لقضية التوحيد وتوحيد العبادة كأمرٌ فطري كما في الحديث الآتي، حيث سُأله أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - وهو علاء بن فضيل - عن الآية الكريمة: «فَطَرَ اللَّهُ الْأَنْوَارَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب عليه السلام: «التوحيد»<sup>٣</sup>.

كما ورد هذا المضمون في أحاديث عديدة أخرى<sup>٤</sup>.

وفي القسم الآخر من هذه الأحاديث اعتبرت (معرفة الله) أمراً فطرياً، كالحديث الذي يرويه زرارة عن الإمام الباقي عليه السلام حينما سأله عن تفسير الآية: ««هُنَافَاءِ اللَّهِ عَيْرَ مُشْرِكِينَ»، أي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله؟ قال عليه السلام: فطّرهم الله على المعرفة».

١. علم الاجتماع لصموئيل كينغ، ص ١٩١.

٢. قصة الحضارة، ج ١، ص ٨٨.

٣. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٧، ح ٤.

٤. المصدر السابق، ح ٥، ٦، ٨، ١٠.

وقال: قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأنّ الله عزّوجلّ خالقه<sup>١</sup>.

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في أحاديث أخرى<sup>٢</sup>.

وبعض الروايات تعرّف (الأصول الإسلامية) كلّها أمراً فطرياً، كما نقرأ في الحديث النبوّي الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»<sup>٣</sup>.

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنّية هذا الحديث بكثرة وهو من الأحاديث الشهيرة جداً.

ويلاحظ نظير هذا المضمون في روايات أخرى وفيها تأكيد على قضية التوحيد ونبوّة الرسول الأكرم ﷺ وولاية علي عليه السلام<sup>٤</sup>.

وختاماً فإنّ بعض الروايات تؤكّد على قضية الولاية، كما نقرأ الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام البارق عليه السلام في آية البحث حيث عبر عن المقصود في الآية بأنّه: «الولاية»<sup>٥</sup>. واضح أنّ هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها أبداً، فالأصول الدينية -في الحقيقة- توجد في الفطرة البشرية بصورة مرکزة، غير أنّ بعض الروايات تشير إليها كلّها وبعضاها الآخر يشير إلى قسم منها.

وفي الحقيقة فإنّ فطرة التوحيد لا يمكن أن تنفصل عن أصول العقيدة لأنّ الله الحكيم لم يخلق العباد عبئاً، ومن البديهي أنّه وضع تكاليف ومتناهج لتكامل العباد يجب إبلاغها عن طريق الرسل، ويحفظها أوصياؤهم وتنفذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومة الإسلامية وظهور نتائجها في عالم الآخرة.

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٩، ح ١١.

٢. المصدر السابق، ح ١٢، ١٢.

٣. غوالي الالائي، طبقاً لبحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١، ح ٢٢.

٤. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ح ٣، ٩، ١٨.

٥. المصدر السابق، ح ٢.

وباختصار فإنّ في متناول أيدينا روايات كثيرة حول فطرة التوحيد والإسلام وللمزيد يمكن مراجعة مصادر أخرى مثل:

تفسير البرهان الجزء ٢، صفحة ٤٦ وما بعدها.

مرآة العقول الجزء ٧، صفحة ٥٤ وما بعدها.

تفسير نور الثقلين الجزء ٤، صفحة ١٨١ وما بعدها.

تفسير الدر المنشور الجزء ٣، صفحة ١٤٢ وما بعدها.

بحار الأنوار الجزء ٣، صفحة ٢٧٦ وما بعدها.



# وحدانية الذات المقدّسة

«أهـم أصل فـي معرفة الله»



## **تمهيد:**

توصّلنا فيما سبق من أبحاث إلى إثبات وجود الله سبحانه بطرق مختلفة (خمسة أدلة عقلية رئيسة) إضافةً إلى طريق الفطرة الذاتية.

الآن وبعد الإيمان بأصل وجوده سبحانه فإنّ البحث يدور حول معرفته، والموضوع المهمّ فيه هو بحث التوحيد والوحدانية، لأنّه من جهة يعتبر أصلًا لحقيقة الصفات، ومن جهة أخرى يشكل الأساس في كلّ الأديان السماوية خصوصاً القرآن حتى أنّ أغلب ما تتضمّنه هذه الكتب السماوية بصدده وجود الله تدور حول محور هذا البحث، إلى الحدّ الذي ظنّ فيه البعض بأنّ القرآن لا يتحدّث عن (أصل وجود الله) بل إنّه يتحدّث عن توحيده والاستدلال على ذلك، وهذا الكلام مبالغ فيه.

ومن جهة ثالثة تُستمدّ جميع العقائد الإسلامية والأحكام والقوانين والأمور الاجتماعية والأخلاقية والعبادية من هذا الأصل، لذلك أولى القرآن الكريم اهتمامه الخاصّ لقضية (التوحيد والشرك) وعكس القرآن برّمته النظرية الإسلامية بهذا الصدد، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حظي بهذه الدرجة من الاهتمام في القرآن الكريم مثلما حظي بها ذلك الموضوع.

كما أنّ قضية التوحيد ومحاربة الشرك لم تكن محوراً أساسياً في حركة الرسول الأكرم عليه‌الله‌الحمد فحسب، بل وفي حركة سائر الأنبياء عليه‌الله‌الحمد.

بهذا التمهيد نطلع أوّلاً على عظم معصية الشرك في القرآن المجيد، ثمّ نذكر الأدلة القرآنية المختلفة على إثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك.  
في البداية نتأمل خاسعين في الآيات الآتية:

- ١- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا». (النساء / ٤٨)
- ٢- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا». (النساء / ١١٦)
- ٣- «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (الزمر / ٦٥)
- ٤- «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُهُ يَا بْنَيَ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (القمان / ١٣)
- ٥- «وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ». (الحج / ٣١)
- ٦- «قُلْ تَعَاوَلُوا أَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». (الأنعام / ١٥١)
- ٧- «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ». (المائدة / ٧٢)
- ٨- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...». (التوبه / ٢٨)
- ٩- «وَأَذْانُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...». (التوبه / ٣)
- ١٠- «الرَّازِ尼 لا يُنْكِحُ إِلَّا رَازِنِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالرَّازِنِيَةُ لَا يُنْكِحُها إِلَّا رَازِنِي أَوْ مُشْرِكَ...». (النور / ٣)
- ١١- «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوكَ وَإِلَيْهِ مَآبٍ». (الرعد / ٣٦)
- ١٢- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمَ الْيَمِّ<sup>١</sup>.  
 (هود / ٢٥-٢٦)  
 ١٣ - «قُلْ إِنَّا يُوحَنِي إِلَى أَنَّا إِلْهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهُنَّ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». (الأنبياء / ١٠٨)  
 ١٤ - «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوا مِنْكُمْ وَمَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبُغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ». (المتحنة / ٤)

### شرح المفردات:

«شرك»: ذُكر لها في مقاييس اللغة معنيان:

الأول: هو التعاون والمقارنة والشركة ويقابله الإنفراد.

والثاني: هو الشيء المستقيم والممتدّ.

والمعروف من مشتقات هذه المفردة هو المعنى الأول، وللمعنى الثاني مصطلحات خاصة منها (شراك) للحذاء، و(شرك) الطرق الضيقة المستقيمة التي تتفرع من الطريق العام أو بمعنى القسم الأوسط من الطريق المستقيم، كما يعني الفخ الذي ينصبه الصياد. ويُصرّ بعض اللغويين على إرجاع المعنيين إلى المعنى الأول، إلا أنه لا يخلو من تكلف، كما لا دليل يدعو للإصرار على ذلك<sup>٢</sup>.

وقد استعمل (الشرك) في القرآن الكريم عادةً بمعنى الإعتقداد بوجود نَدِّ الله سبحانه وتوافق على وجود المثيل والشريك في الذات أو الصفات أو الخلق والتدبیر أو المماشى له في العبودية.

١. جاء هذا المضمون في آيات قرآنية أخرى مثل هود، ٢؛ الإسراء، ٢٣؛ يس، ٦٠؛ فصلت، ١٤؛ إضافة إلى آيات عديدة أخرى عبارات مختلفة تتعلق بأهمية التوحيد وقبح الشرك بجميع صوره وأشكاله، لو جمعت وفسّرت لتتألف منها كتاب كبير، وما ورد أعلاه هي النماذج المهمة منها.

٢. راجع كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم)، صحيح أنَّ أغلب الكلمات المشتركة ترجع إلى مصدر واحد ولكن لا يمكن القول أنَّ ذلك يصدق في جميع الموارد، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم إحداهما بالأخرى.

يقول الراغب في المفردات: الشرك في الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى وذلك أعظم كفر.

والثاني: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق.<sup>١</sup>

«واحد»: مشتق من (وحدة) ويعني في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات - الشيء الذي لا جزء له، ثم اتسع استعماله حتى أخذ يطلق على كل شيء يتضمن بالوحданية، ويضيف:

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه: ١ - ما كان واحد في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد في الجنس وزيد وعمرو واحد في النوع.  
٢ - ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث الحقيقة كقولك شخص واحد وإما من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة.

٣ - ما كان واحداً لعدم نظيره.

٤ - ما كان واحداً لامتناع التجزئي.

٥ - لمبدأ العدد كقولك واحد إثنان.

٦ - لمبدأ الخط كقولك النقطة الواحدة وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزئي ولا التكثير.<sup>٢</sup>

«وأحد وصف مأخوذه من الوحدة كالواحد، غير أنَّ الأَحَدِ إِنْمَا يُطْلَقُ عَلَى مَا لَا يُقْبَلُ الكثرة لَا خارجاً وَلَا ذهناً وَلَذِكْ لَا يُقْبَلُ العدُّ، وَلَا يُدْخَلُ فِي الْعَدِ بِخَلَافِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ ثَانٌ وَثَالِثٌ إِمَّا خارجاً أَو ذهناً [ك] قَوْلُكَ: مَا جَاءَنِي مِنَ الْقَوْمِ أَحَدٌ، فَإِنَّكَ تَنْفِي بِهِ مَجِيَّءَ إِثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَأَكْثَرَ كَمَا تَنْفِي مَجِيَّءَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِخَلَافِ مَا لَوْ قَلْتَ: مَا جَاءَنِي وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَإِنَّكَ إِنْمَا تَنْفِي بِهِ مَجِيَّءَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْعَدِ وَلَا يَنْفَعُكَ مَجِيَّءُ إِثْنَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرَ...»<sup>٣</sup>.

١. مفردات الراغب، ص ٢٦١ مادة (شرك)، لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب أخرى.

٢. مفردات الراغب، ص ٥٥١ مادة (واحد)، لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب أخرى.

٣. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٨٧

واحتمل بعضُ أَنْ (أحد) يقابل المركب (واحد) يقابل المتعدد، غير أَنَّ المستفاد من موارد الاستعمال في القرآن أَنَّهما بمعنى واحد، وسنفصل ذلك في المستقبل بإذن الله.

## جمع الآيات وتفسيرها

### الذنب الذي لا يغفر:

تصرّح آية البحث الأولى بأنَّ الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر حيث تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ومفهوم هذه العبارة هو أَنَّ جميع الذنوب الكبيرة والمظالم والجرائم والقبائح لو وضعت في كفة ميزان ووضع الشرك في الكفة الأخرى لرجحت كفة الشرك. ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

ويعتقد بعض المفسّرين أنَّ الآية نزلت في اليهود (بقرينة الآيات التي بعدها) حيث اتحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقدّسون أصنامهم ويعتقدون -في الوقت ذاته- أَنَّهم من أهل النجاة!

ولو سلّمنا بسبب النزول هذا فإنَّه لا يضيق دائرة مفهومها.

وقال بعض: إنَّ الآية نزلت في جمع المشركين (كوحشي قاتل حمزة عم النبي، وأمثاله) وقد ندموا على ما فعلوا بعد مدة وكتبوا إلى رسول الله عليه السلام: ﴿إِنَّا قد ندمنا على الذي صنعناه وليس يمنعنا عن الإسلام إِلَّا إذا سمعناك تقول وأنت بمكّة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَّا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْتَنُونَ...﴾﴾. (الفرقان / ٦٨)

وقد دعونا مع الله إليها آخر وقتنا النفس التي حرّم الله وزينينا فلو لا هذه لاتّبعنا فنزلت هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً...﴾. (الفرقان / ٦٩)

بعث بهم رسول الله عليه السلام إلى وحشى وأصحابه، فلما قرؤوها كتبوا إليه: إنَّ هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحًا فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ...﴾ بعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إِنَّا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت:

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». (الزمر/٥٣)

بعث بها إليهم فلما قرأوها دخل هو وأصحابه في الإسلام ورجعوا إلى رسول الله ﷺ قبل منهم...».<sup>١</sup>

على أية حال فإن الآية كما يقول كثير من المفسّرين - هي إحدى الآيات القرآنية التي بعثت روح الأمل حيث تقول: إنَّ الإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِإِيمَانٍ فَإِنَّهُ سَوْفَ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا خَرَجَ بِلَا إِيمَانٍ أَيْ فِي حَالَةِ شُرُكٍ فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى النَّجَاهَةِ.

٤٥٦

الآية الثانية تتحدّث عن مضمون الآية السابقة ذاته مع فارق هو أنها تقول في ذيلها: «وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» والكلام في الآية السابقة دار حول الإثم العظيم وأماماً هنا فهو يدور حول الضلال بعيد، وهذا أمران متلازمان إذ أنَّ الذنب كلّما كان أعظم فإنه يبعد الإنسان أكثر ويزيده ضلالاً.

والآية السابقة لاحظت الجانب العلمي والعقائدي من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له، ومن الأكيد أنَّ هذه الآثار تنشأ من تلك الجذور.

٤٥٧

الآية الثالثة تحمل أوضح التعبير وأقسها عن عاقبة الشرك والانحراف عن التوحيد حيث تخاطب النبي الأكرم ﷺ: «لَقَدْ أَوْحَىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

ومن الثابت أنَّ رسول الإسلام ﷺ وكلّنبي من الأنبياء، لم يسلكوا - لعصمتهم - طريق الشرك أبداً، إِلَّا أنَّ الآية ومن أجل بيان أهمية المسألة ولكي يحسب الآخرون حسابهم

١. تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٥٦.

قامت ببيان أخطار الشرك بهذه الدرجة من الحزم.

واستناداً إلى هذه الآية فلو أفني الإنسان حياته في العبادة وعبودية الله ومارس الأعمال الصالحة ولكنّه أشرك في آخر عمره لحظة واحدة ومات بتلك الحالة فإنّ أعماله سوف تُحيط، فالشرك بمنزلة صاعقة محرقة تلتهم حصيلة عمره وتصيره رماداً، وكما أشار القرآن الكريم في الآية ١٨ من سورة إبراهيم إلى أنه رماد اشتت به الريح في يوم عاصف.

«ليحبطن»: من (حيط) وأصله (حيط) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلأ حتى ينتفح فيمرض ثم يموت، ثم استعمل في الأعمال الكثيرة ذات المظهر الجميل ولكن باطنها فاسد وتهوّل إلى الفناء<sup>١</sup>.

وقد جاء نظير ذلك في (السان العربي) و(مصابح اللغة)، غير أنّ لسان العرب ذكر أنّ أحد معاني (إحباط) هو جفاف ماء البئر وعدم توقيفه.

وفي (مقاييس اللغة) أنّ الأصل في معناه هو (البطلان) أو (الظلم) كما أنّ (حيط) يطلق كذلك على الجرح بعد شفائه.

على آية حال فإنّ هذه المفردة في آية البحث والكثير من الآيات والروايات تعني محقق ثواب الأعمال الصالحة وزوال آثارها الإيجابية.

وهناك أبحاث حول حقيقة حبط الأعمال وكيفيته ولكن لا مجال لبيانها.

٤٥٥

### أعظم الظلم:

تقرأ في الآية الرابعة تعبيراً مهولاًً حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يعظ ابنه بقوله: «يَابْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

ولقمان وإن لم يكننبياً - كما هو المشهور - إلا أنه كان رجلاً حكيمًا ومفكراً لله وقد أيد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه في عرض كلام الله عزّ وجلّ، وبالتالي تأكيد أنّ مثل هذا

١. مفردات الراغب، مادة (حيط).

الرجل بعلمه وحكمته وإحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه إبنيه فإنه يقدّم له أخلص النصائح والمواعظ.

النصيحة الأولى من النصائح العشر التي ينقلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لابنه هي النصيحة بالإحتراز المطلق من الشرك، مما يدلّ على أنّ الأساس في بناء الفرد والإصلاحات الفردية والاجتماعية والأخلاقية كلّها، هو مقارعة الشرك بكلّ أشكاله وصوره، وسيكون لنا كلام -بإذن الله - في بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا.

وقد احتمل البعض أنّ ابن لقمان كان مشركاً فنهاه أبوه ولكن - كما يقول بعض المفسّرين - يمكن أن يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهمية القضية نظير ما ورد في الآية السابقة من تحذير للأنبياء.

والتعبير بـ(ظلم عظيم) ذو مضمون كبير، فالظلم في الأصل يعني كلّ انحراف عن الحقّ ووضع الشيء في غير محلّه، وأسوأ أنواع الظلم هو الظلم الذي يكون بحقّ الله، عباده ونفسه، وهكذا الشرك.

فأي ظلم وانحراف أشدّ من جعلهم موجودات لا قيمة لها بمستوى خالق السماوات والأرض وجميع الموجودات؟ وأي ظلم أشدّ على عباد الله من انحرافهم عن جادة التوحيد النورانية إلى ظلمات الشرك؟ وأي ظلم أشدّ على النفس من أن يؤجّج الإنسان ناراً ليحرق فيها حصيلة أعماله الصالحة ويُحوّلها إلى رماد؟!

٤٥٥

### السقوط الموحش:

تصرّح الآية الخامسة بعد أن أمرت المسلمين بأن يكونوا موحدين مخلصين وأن يتركوا طريق الضلالة والشرك ومن خلال تشبيه ذي معنى كبير: « وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَ حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ »<sup>١</sup>.

١. « تخطف » من « خطف » وهو الاستلال بسرعة (سحق) من (سحق) وهو طحن الشيء وقد تعطي هذه المفردة معنى (الملابس البالية) أو (المكان بعيد) والأخير هو الأنسب في مورد الآية من غيره.

وقد شتّت الآية (الإيمان) بـ(السماء العالية) وـ(الشرك) بـ(السقوط من هذه السماء) لاحظوا أنَّ (خر) كما يقول اللغويون: يعني السقوط المفروض بضجّة وليس المجرّد منها!] .

وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكتنف بخطررين عظيمين هما: أنَّ الساقط إمّا أن يكون فريسة للطيور الكاسرة أو يتلاشى بسبب هبوب الرياح العاصفة التي تندفع في مكان بعيد عن الماء والمناطق المسكنة.

وهذه العبارات المخيفة توضح الأبعاد الخطيرة والكبيرة للشرك.

وهذه الطيور في الحقيقة هي الصفات القبيحة الباطنية أو الفئات المنحرفة في الخارج والتي تنصب الكمين لتجذب من ينحرف عن جادة التوحيد، وـ(الريح) هي تلك الشياطين الذين عبرت عنهم تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُؤْزِّعُهُمْ أَزَّاً» .

(مريم / ٨٣)

حيث تتجه نحو المشركين وتضع السلسل في رقابهم وتسحبهم إلى كلّ جانب، أو إنّها العواصف الاجتماعية العاتية والفنون السياسية والفكريّة والأخلاقية التي لا يصدّ أمّاها إلا من ثبتت قدماه في طريق التوحيد.

٤٥٦

في الآية السادسة يُؤمر النبي ﷺ بتبيّان المحرّمات للناس وفي مقدمتها الشرك حيث تقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتُلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...» ١.

ثم تذكر أوامر إلهيّة عشرة عرفت بـ(أوامر النبي العشرة)؛ وأولّها هو الدعوة إلى التوحيد حيث تقول: «الآتُ تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا» راجع التفسير الأمثل لإلّاطلاع على الشرح والأوامر التسعة المتبقّية في ذيل هذه الآيات.

٤٥٧

١. «تعالوا» من «علو» ويعني أن يقف شخص على مرتفع ثم يدعو الآخرين إليه (أي أصعدوا) ثم توسيع استعماله وشمل كلّ دعوة (تفسير المنار، ج ٨، ص ١٨٣) ومن الممكن أن يكون المراد في هذه الدعوات الإلهيّة هو المعنى الأصلي حيث يريد النبي أن يصعد الناس إلى مستوى أرفع وأسمى.

### الجنة محرمة على المشركين:

الآية السابعة تشير بتعبير جديد إلى خطر الشرك، حيث تنقل عن السيد المسيح عليه السلام خطابه إلىبني اسرائيل: «إِنَّمَا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارِ». وفي الجملة الأولى يلاحظ ذكر لفظ الحالة كما يلاحظ تكرارها في الجملة الثانية: «فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وهي تقضي استعمال الضمير، وذلك للتأكد على أهمية المسألة.

وتضيف الآية في ذيلها: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ».

وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجرأة في الدفاع عنهم يوم القيمة.

٤٥٥

### الله بريء من المشركين:

نواده في الآية الثامنة قضية جديدة بهذا الصدد حيث تخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» ثم تقول: «فَلَا يَقْرِبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا». وتتضمن الآية التأكيد على عدة جهات:

الأول: أنّها استعملت (إنما) والتي تدلّ على الحصر، ومفهومها أنّ المشركين ليسوا إلا موجودات فاسدة ونجسة وفي ذلك أكبر تأكيد ومباغة،

والثاني: أنّ (نجس) يتضمن معنى المصدر، أي أنّ المشركين هم عين النجاسة! كما يقال فلان عين العدل، وهذا غاية في المبالغة<sup>١</sup>.

والثالث: أنّها لم تقل: «فَلَا يُدْخُلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» بل «فَلَا يَقْرِبُوا» بمعنى أنّ المشركين من القذارة ما يخشى على هذا المكان المقدس أن يتعرّض لها عند اقترابهم منه!

٤٥٦

١. «نَجَسٌ» مصدر و«نَجَسٌ» صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب في المفردات: النجاسة: القذارة وذلك ضربان: ضرب يدرك بالحاشة وضرب يدرك بالبصرة (المفردات مادة (نجس)، ص ٥٠٣) وفي التفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٠ كل مستقدر نجس، يقال: رجل نجس وامرأة نجس، المجمع.

في الآية التاسعة التي نزلت - مع مجموعة من الآيات في السنة التاسعة للهجرة - بصفتها إعلاناً عاماً، نلاحظ إشارة إلى نقطة أخرى أُمر أمير المؤمنين عليه السلام بتلاوتها على الناس في مواسم الحجّ: «وَادَانُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجَّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ». <sup>١</sup>

والتعبير بالبراءة من قبل الله ورسوله من المشركين بوصفه إعلاناً عاماً في أكثر أيام الحجّ حساسية دليل على النفور من المشركين وبيان لضخامة معصية الشرك بأجلٍ صوره.

٣٥٦

ونلاحظ في الآية العاشرة تعبيراً جديداً، حيث اعتبرت المشرك والمشركة في عرض الرانى وقال: «الرَّانِي لَا يَنْتَكِحُ إِلَّا رَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَئْكِحُهَا إِلَّا رَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...».

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعى وإلهى وهو حرمة الزواج من أهل الزنا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجي وهو أنّ القدر يتبع القدر دائماً، والطيور على أمثالها تقع فهو شاهد بلിغ على قبح معصية الشرك، لأنّها اعتبرت المشركين كالملوثين بالزنا والفاقدين للقيم الخلقية والسمجيات الإنسانية.

والحديث الوارد عن النبي الأكرم عليه السلام: «لَا يَزِنِي الزانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خُلِعَ عَنْهُ إِيمَانُ كَخَالِعِ التَّمِيقِ»<sup>٢</sup>، وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين، وسيأتي شرحه بإذن الله.

١. فسر الكثير من المفسّرين (يوم الحجّ الأكبر) بعيد الأضحى وهو أيام الحجّ، والروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأبناء السّنة تؤيد هذا المعنى، في حين فسره بعضهم بيوم عرفة وبعضهم الآخر بمجموع أيام الحجّ التي يطلق عليها (الحجّ الأكبر) وتقابل العمرة وهي (الحجّ الأصغر)، وقد خصّصها آخرون بسنة نزول الآية حيث شارك المسلمين والمشركون في مراسيم الحجّ في تلك السنة، واضحة أنّ التفسير الأوّل هو الأرجح من هذه الاحتمالات الأربع.

٢. تفسير نور التقلين، ج ٣، ص ٥٧١، ح ٢٠.

ومن الواضح أن زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام، وأمّا الزواج بأهل الزنا فإن بعضًا يرى بأنّهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلًا أيضًا.  
والآحاديث العديدة التي نقلت عن النبي ﷺ والإمام الرازي والإمام الصادق علیهم السلام شاهد آخر على هذا المعنى.

وقد كتب بعض المفسّرين في شأن نزول هذه الآية ما يلي: أن رجلاً من المسلمين استأذن النبي ﷺ في أن يتزوج (أم مهزول) وهي إمرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية<sup>١</sup>.

٤٥٦

الآية الحادية عشرة بيّنت أهميّة التوحيد وقبح الشرك ولكن بتعبير آخر، حيث وجهت أمرًا إلى النبي الأكرم ﷺ: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ آعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ»<sup>٢</sup>.  
والتعبير بـ(إنما) الدالة على الحصر عادةً دليل على أن دعوة النبي ﷺ تتلخص في قضية التوحيد ورفض الشرك<sup>٣</sup>، وهو الحق، لأن التوحيد قوام التعليمات السماوية كلّها، كما أن الشرك هو أساس الوساوس الشيطانية كلّها.

وتؤكّد الآية في ذيلها تأكيداً مضاعفاً: «إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيَّ مَآبٍ».

٤٥٧

الآية الثانية عشرة تتحدّث عن النبي نوح عليه السلام وهو أول الأنبياء من أولي العزم حيث جعل الأساس في دعوه هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك، والملاحظ أنّ هذا التعبير ورد أيضاً عن الكثير من الأنبياء، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٥.

٢. ولو افترضنا هذا الحصر حصرًا إضافيًّا فإنه يدل أيضًا على أن العبودية كلّها تتلخص في العبودية لله (فتأمل جيدًا).

مُبِينٌ» وتضيف: «أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ». وتكرار هذا الكلام من قبل الأنبياء من لدن نوح وحتى رسول الإسلام الأكرم عليهما السلام دليل على أنّ السنام الأعلى في دعوة الأنبياء، هو قضية التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية، ولذا نقرأ في قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشَرِّكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَحِدَّ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ».

وهذا أصل ثابت لم يتغير بمرور الزمان ولم يكن أمراً وقتياً، بل هو الأساس الثابت في الديانات السماوية كلها، وكل ما يتعرض له أهل الديانات المختلفة من مآسٍ، ناشيء من الانحراف عن هذا الأصل.

## ٤٥٥

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير جديد عن هذا المعنى وتلخيص دعوة الأنبياء عليهما السلام باستخدام الأداة (إنما) الدالة على الحصر في قضية التوحيد حيث يقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيْكُمْ إِنَّمَا هُنَّ مُسْلِمُونَ».

## ٤٥٦

### إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الْبَرَكَاتُ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي هَقَارِعَةِ الشَّرْكِ:

الآية الرابعة عشرة تذكر هذا المضمون في قالب جميل آخر حيث تعرّف النبي إبراهيم عليهما السلام والمكسّر للأصنام بالقدوة في الدفاع عن قضية التوحيد ومحاربة الشرك محاربة لا هوادة فيها حيث قالت: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»، ثم تقدم توضيحاً عن الأسوة الحسنة هذه بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوا مِنْكُمْ وَمَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ...»، وأضافت - للتأكيد المكرر - «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

إنّ الكفر بالأشخاص يعني إعلان البراءة منهم، لأنّ هذه المفردة (الكفر) ذات معانٍ خمسة حسب الروايات الإسلامية، أحدها كفر البراءة، ولم تكتف بذلك بل أضافت: «وَيَدَا<sup>١</sup> بَيْتَنَا وَبَيْتَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ».

وإنّ هذه التعبير (البراءة أو لا ثم الإعلان عن العداوة الدائمة) لشاهد صريح على صلابة الموحّدين تجاه القدرين الملوثين بالشرك وعبادة الأوثان، وحينما نلاحظ أنّ القرآن يذكر كلام النبي إبراهيم عليه السلام وأتباعه كقدوة للمسلمين فإنّ ذلك يعني أنّ الإسلام لا يعرّف أيّة مهادنة بين التوحيد والشرك في أيّة مرحلة.

ومن التعمّق في تعبير الآية تكشف الأهميّة البالغة لهذه القضية، فالتعبير بـ(قومهم) دليل على أنّ غالبية القوم هم من عبادة الأصنام وأنّ الموحّدين قليلون، ويبدو أنّ هذا الحوار جرى في (بابل)، التي هي مركز عبادة الأصنام في ظل سلطة الطاغية (النمرود)، ولم تعمد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة إلى مسايرة الوضع السائد، ولم تعمل بالتقية تجاه المشركين في مسألة التوحيد.

ففي جانب تقول: «إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ».

وفي جانب آخر: «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

وفي ثالث: (نتبرأ من أصنامكم).

ومن جهة: (إِنَّا نَعْتَدُكُمْ أَعْدَاءً لَنَا).

ومن أخرى: (إِنَّا نُكْنِي لَكُمُ الْعَدَاءَ).

وفي كلّ جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداهنة والمسالمة.

والفرق بين (العداوة) و(البغضاء) - كما هو المستفاد من كلمات اللغوين - هو أنّ (العداوة) لها جانب عملي في الغالب، أمّا (البغضاء) فلهما جانب قلبي، وإن استعمل كلّ منهما مكان الآخر.

وبهذا أعلنوا أنّهم براءٌ من الشرك بكلّ وجودهم وصادمون أمامه مهما كانت الظروف، وينبغي أن يكون ذلك أسوة حسنة لكلّ المؤمنين في العصور كلّها.

و «الأسوة»: تعني في الأصل - كما ورد في (مقاييس اللغة): العلاج والإصلاح، ولذا يطلق على الطبيب (آسي).

و «آسي»: تعني الغمّ والحزن، ومن المحتمل أن يكون بسبب اقتران علاج المريض والجريح - عادةً - بالغمّ والوجع، ومن ثم استعملت بمعنى الإتباع والمتابعة نظراً لاستدعاء العلاج وإصلاح المتابعين.

إلا أنّ الراغب في مفراده يعبر عن المعنى الأصلي لـ(أسوة) قائلاً بالاتّباع في الصالحات أو السيئات.<sup>١</sup>

## ٤٥٥

يتضح من الآيات الأربع عشرة المتقدمة والتي كثرت نظائرها في القرآن الكريم أنّ قضية التوحيد والشرك هي القضية المركزية والمهمة في نظر القرآن بشكل لا تجوز معه أية مداهنة أو مهادنة أو محاباة مع الشرك والمرشكيين، ولابدّ من اجتناث جذور الشرك بجميع صوره، فإنّ تحقق ذلك عن طريق التعليم النقافي والمنطق والاستدلال فهو وإنّ الواجب هو الحزم العملي تجاهه.

إنّ التوحيد رأس مال المؤمن والبضاعة المرموقة في سوق القيامة، والشرك ذنب لا يغتفر، والشرك موجود قدر يجب التبرء منه كلياً حتى يعدل عن انحرافه ويعود إلى الإيمان.

## ٤٥٦

### توضيح

**لماذا هذا الاهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك؟**

نحن نعلم بصورة إجمالية إنّ للإسلام بل والديانات السماوية كلّها حساسية غير

١. يعتقد البعض أنّ (آسي) يستعمل كفعل ناقص واويٍ ويائيٍ، فإنّ كان ناقصاً يائياً فإنه يعني الحزن والغمّ، ولذا يطلق المأساة على الفاجعة العظيمة، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يعني المعالجة والإصلاح.

اعتيادية تجاه الشرك، غير أنّ الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير، ويمكن تقديم أربعة أدلة أساسية على هذه الحساسية والإهتمام بقضية التوحيد والشرك المصيرية:

١- التوحيد هو الأساس لمعرفة صفات الله ولا يمكن إدراك الصفات دون ملاحظة أصل التوحيد، لأنّ وحدانيته -كما سيأتي توضيحها- تنشأ من لا محدوديته، والوجود جامع لكلّ الكلمات وخالٍ من كلّ عيب ونقص، والحقيقة أنّنا لو عرفناه بتوحيده الحقيقي فسوف نعرف صفاتـه كلـها، يـديـأـنـ الإـعـتـقـادـ بالـشـرـكـ هوـ الـذـيـ يـصـدـنـاـ عـنـ ذـلـكـ.

٢- فروع التوحيد تبلغ عالم الوجود ذات الله المقدّسة، حيث أنّ عالم الوجود واحد وهو متصل الأجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة إلى دراسة أجزائه مجتمعة، ولو تصورنا موجودات العالم كوجودات متفرقة فإنّا سوف نخطيء كثيراً في معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا: من أين تلقينا هذا الدرس، وهو أنّ عالم الوجود كتلة واحدة؟

الجواب: من وحدانية الله، لأنّ وحدة الله دليل على وحدة العالم، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَإِذْ جِئَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ» (الملك / ٣).

٣- إنّ أهمّ العناصر التي تبعث على تطور العالم الإنساني وتكامله هو وحدة المجتمع البشري، فالاختلاف والتفرق -كان وسيبقى- هو العامل على الدمار والضعف والتخلّف، في حين يشكل الإتحاد والوحدة الحجر الأساس للقوّة والإقتدار والعمaran والبناء.

إنّ الإيمان بالله بمثابة حلقة الوصل التي تؤلّف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية.

إنّ سبب الانحراف عن أصل التوحيد والإيمان جعل كلّ قبيلة عربية في زمن الجاهلية تبعد صنماً يختلف عن أصنام القبائل الأخرى وهم في غاية الضعف والانحطاط، فجاء الإسلام وحطّم الأصنام وربط القلوب بحبل التوحيد في فترة قصيرة وصنع منها مجتمعًا قوياً ومتطوراً ذا حكومة امتدّت لتشمل العالم فضلاً عن الجزيرة العربية.

٤- التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية تتوفّر في ظلّ التوحيد أيضاً لأنّ الأساس في

الأُخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ هُوَ الْإِخْلَاصُ وَتَنْزِيهُ الْقَلْبِ مِنَ الشُّرُكِ، وَالْأَسَاسُ هُوَ جَعْلُ الدَّوَافِعِ الْعَمَلِيَّةِ دَوَافِعًا إِلَهِيَّةً فَقَطَّ، أَيْ التَّحْرِكُ مِنْ أَجْلِهِ فَقَطَّ وَالْجَهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَالسَّيْرُ نَحْوَهِ وَالْإِحْتِرَازُ مِنْ أَيِّ دَافِعٍ آخَرَ.

فَالْتَّوْحِيدُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْإِنْسَانَ درسَ الْإِخْلَاصِ فِي النِّيَّةِ، درسَ مَقَارِعَةِ كُلِّ رِيَاءٍ وَشَرِكٍ، وَمُحَارَبَةِ هُوَيِّ النَّفْسِ وَالْجَاهِ وَالدُّنْيَا وَالشَّيْطَانِ.

وَبِهَذَا تَرَى كُلَّاً مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرِكِ يَتَرَكُ تَأْثِيرَهُ الْعُمَيقَ عَلَى الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ وَالنِّيَّاتِ وَالْأُخْلَاقِ فِي الْفَرَدِ وَالْمَجَامِعِ.

وَلَذَا وجَّهَ الْإِسْلَامُ اهْتِمَامَهُ تَجَاهَ هَذِهِ الْفَضْيَّةِ، وَهُنَّا نَخْتَمُ بِالْبَحْثِ بِهَدْيَتَيْنِ:

فِي حَدِيثٍ عَنِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْعُودٍ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ تَشْرُكُوا بِاللَّهِ طَرفةً عَيْنٍ، وَإِنْ نَشَرْتُ بِالْمَنْشَارِ أَوْ قَطَّعْتُ أَوْ سَلِبْتُ أَوْ أُحْرِقْتُ بِالنَّارِ»<sup>١</sup>.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ تَبَرَّزُ الْأَهْمَىَّةُ الْقَصْوِيَّةُ لِلتَّوْحِيدِ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ بْنَيَ أُمِّيَّةٍ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَعْلِيمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَطْلُقُوا تَعْلِيمَ الشَّرِكِ لَكَيْ إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفُوهُ»<sup>٢</sup>.

وَهَذَا الْحَدِيثُ شَاهِدٌ وَاضْعَفُ عَلَى أَنَّ الشَّرِكَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً هَدَامَةً سِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا بِيَدِ فَتَّةِ ظَالْمَةٍ، وَفِي الْمُقَابِلِ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ الْإِيمَانُ بِالتَّوْحِيدِ وَفِرْوَاهُ بِاجْتِثَاثِ جُذُورِ هُؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ.

## ٣٥٥

نَتَطَرَّقُ فِي بَحْثِ التَّوْحِيدِ لِمَهْمَتَيْنِ:

الْأُولَى: أَنَّ ذَاتَ اللَّهِ لَا تَتَرَكَّبُ مِنْ أَجْزَاءٍ (خَارِجِيَّةٌ أَوْ عَقْلِيَّةٌ).

وَالثَّانِيَةُ: هِيَ أَنَّ ذَاتَهُ لَا شَبِيهَ لَهَا وَلَا مِثْلُهُ، لَذَا فَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ.

وَنَجْدُ فِي الْقُرْآنِ أَدَلَّةً فِي هَذَا الْمَجَالِ مِنْهَا:

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٧.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ٤١٥، ح ١.



# **دلائل التوحيد**

- ١ - شهادة الفطرة على وحدانية الله (عزّ وجلّ)
- ٢ - تناسق العالم
- ٣ - دليل صرف الوجود
- ٤ - دليل الفيض والهدایة



## ١- شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)

تمهيد:

ذكرنا في مستهل هذا الجزء وفي بحث «استخدام برهان الفطرة في مسألة معرفة الله» أنّ هذا البرهان يمكن أن يكون نافعاً ومرشداً في البحث عن صفات الله، بل وفي مسألة النبوة والمعاد، ولهذا لنا عهد عملي مع هذا البرهان حيث نراجعه في أغلب المباحث. وفي بحث وحدانية ذات الله وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً، أي أنّنا وفي أعماق الروح والقلب لا نسمع نداء وجوده فحسب بل لا يوجد في أعماق الروح نداء آخر. فعندما تبلغ المشكلات والإبتلاءات ذروتها وحينما توصد أبواب عالم الأسباب أمامنا يقع أسماعنا هدير التوحيد في أعماق وجودنا ويدعونا إلى (المبدأ الواحد) ذي القدرة التي تفوق المشكلات وتجاوز عالم الأسباب كله.

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى هذا المضمن، وبما أنّنا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصلة في بحث (إثبات وجود الله) فسنشير إليها هنا باختصار ون侓 من خاسعين في عدد من الآيات:

١- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا حَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. (العنكبوت / ٦٥)

٢- ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُتَبَيِّنَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾. (الروم / ٣)

٣- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَشْكُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ \* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ \*.

(الأنعام / ٤٠ - ٤١)

٤- « وَمَا يَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِيَنَّ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْهَرُونَ \* ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ يَرْبِهِمْ يُشْرِكُونَ \*» . (النحل / ٥٣ - ٥٤)

٥- « قُلْ مَنْ يُنَجِّيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجْهَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيْكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلُّ كَوْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ \*» .

(الأنعام / ٦٣ - ٦٤)

## جمع الآيات وتفسيرها

### حينما يشرق نور التوحيد:

بما أنّ تفسير الآية الأولى والثانية قد مرّ في مقدمة الكتاب خلال بحث الاستدلال على معرفة الله عن طريق الفطرة فإننا نذكرهما باختصار.

الآية الأولى تتحدث عن أشخاص يدعون الله سبحانه بخلاص عند ركوب السفينة، والآية الثانية تطرح القضية بصورة عامة وتحدّث عن أشخاص يدعون الله عند مواجهة ضنك الحياة وتحيط بهم أمواج المشكلات فيتركون الأصنام التي نحتوها ويلجأون إلى ظلال لطفه، ولكن بعد إذاقتهم حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرة أخرى، ومن الملاحظ أنّ في الآيتين تركيزاً على الإخلاص والإنابة حيث يتمسّك بهما أغلب الناس عند هبوب عواصف الأحداث إضافةً إلى التركيز على حالة الرجوع إلى الشرك لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه العواصف.

وبهذا يشير القرآن الكريم إلى أنّ معرفة الله من مكونات الفطرة الإنسانية وهكذا التوحيد في العبادة، ويعتبر الشرك ظاهرة تنشأ من الحياة المترفة، ومن خلال دراسة سطحية وعاشرة لعالم الأسباب، وعند تغيير الظروف الإعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الأسباب يقوم الإنسان بقطع أمله منها وتبرز فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشرة والغفلة.

إنّ هذه الآيات تبلغ نداء الفطرة إلى الغافلين من بنى الإنسان عن طريق واضح وتوصل الإنسان إلى حيث لا يوجد صخب عالم الأسباب ولا الغرق في لذّات الحياة. نعم في مثل هذه البيئة الطبيعية والهادئة يسمع نداء الوجدان الذي يلقنه درس معرفة الله وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يضعف ويعجز عن بلوغ الأسماع حينما يمتليء الجو بصخب اللذّات المادية وعالم الأسباب.

هذه الآيات الشريفة تمسك بيد الإنسان تارةً وتلقي به في وسط الأمواج العاتية وتمسك بيده تارةً أخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميدان الأمراض المستعصية وطرق مسدودة تبعث اليأس في الحياة، مكان تخمد فيه أصوات الشياطين من الجن والإنس ويسمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت!

## ٣٥٤

الآية الثالثة تخاطب المشركين وتدعوهم إلى فطرة عبادة الواحد، وبتعبير آخر تقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَكُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». والمراد من عذاب الله هو عذاب الدنيا والمراد من (أنتكم الساعة) هو ظهور أشرطة الساعة (وهي علامات نهاية العالم الموحشة جدًا وابتداء يوم القيمة) التي أخبر عنها القرآن الكريم في آيات عديدة واعتبرتها مقرونة بالخوف والوحشة الشديدين.

إنّ الكثير من المشركين - طبعاً - لم يؤمنوا بالقيمة وأشرطة الساعة غير أنّهم كان بوسفهم تصديق نزول العذاب الإلهي وذلك بلاحظة الآثار التي خلفتها الأمم السابقة في أطراف الحجاز والجزيرة العربية، وهذا هو أحد أساليب الفصاحة حيث يبيّن القائل قضية صادقة لا يتقبلها المخاطب مقرونة بما يقبله في عبارة واحدة كي يثبتا معاً.

ولا ينتظر القرآن ليستمع إجابتهم عن هذا السؤال بل يجيب عنه بما ينبغي عليهم بيانه ويقول: «بَلْ إِيَاهُ تَدْعُونَ فَيَكْسِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ». وقد أسلفنا أنّ الكثير من المفسّرين فسّر جملة (رأيكم) بمعنى (أخبروني)، ولكن

الظاهر هو الإحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلزمه (المعنى الرئيس للجملة هو: هل شاهدتم؟ هل فكرتم؟<sup>١</sup>). على أية حال فإن القرآن في هذه الآيات يلزم المشركين بأعمالهم ويحاججهم بها.

٤٥٦

### للجوء إلى الله في الشدائدين:

الآية الرابعة تطرح هذه القضية في قالب جميل آخر فتقول: «وَمَا يِكُمْ مِنْ نَعْمَةٍ فِي اللَّهِ»، فماذا صنعت لكم الأصنام ومعبداتكم المزيفة؟ وأي رزق بسطته لكم وأية هدية وهبتها لكم؟

هذه الأصنام التي تحتاج إليكم في صنعها وبقائها (حيث يجب أن تنتحوها وتحافظوا عليها) أية بركة وموهبة وهبتها لكم؟

وتضييف الآية: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئِرُونَ».

«تجأرون»: من مادة (جئار) وتعني في الأصل أصوات الوحش والحيوانات في الصحراء دون اختيار منها عندما تحس بالألم، ثم استعملت كناية عن الأنين والإستغاثة والصرخة التي تصدر من الإنسان حينما يواجه المشكلات.

يقول الراغب في مفرداته:

ومن الواضح أن الإنسان يرجع إلى فطرته في هذه الحالة وتتكسر القيود والسلسل المفعولة وتنهار الأبنية الوهمية ويقع الإنسان مع فطرته، الإنسان ووجانه الصريح ويتجه صوب نقطة واحدة، نعم نقطة واحدة نسميها (الله) عز وجل.

انتبهوا إلى جملة (إليه تجأرون) فهي تتضمن معنى الحصر والدلالة على الوحدانية، أي أنكم تتولون إليه فقط وتطلبون منه حل مشاكلكم.

وتضييف: «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ يَرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»، وفي التعبير

١. الأولى تعني الرؤية بالعين المجردة والثانية تعني الرؤية القلبية.

ـ (فريق) إشارة إلى أنّ فريقاً آخر سيعتبر مسيرة ته بعد هذا الحادث حقّاً، وتبدأ صفحة جديدة في حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد في العبادة، وهذا هو أحد الحكم في وجود الآفات والإبتلاءات والأوجاع والآلام التي يكرها البشر وفيها إيقاظ لفريق وتربيتهم<sup>١</sup>.

«ضرّ»؛ و(ضرّ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض اللغويين، ومفهومهما هو كلّ ما ينافي النفع، وقد فسر بعض الأوّل بمعنى سوء الحال، والثاني بمعنى الضرر.

ويقول الراغب في المفردات:

«الضرّ»: سوء الحال إما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنـه لمرض أو نقص وإنما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه<sup>٢</sup>.

على كلّ حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأمراض والنقائص والألام.

وينبغي ملاحظة هذه النقطة وهي أنّ (الكشف) - كما جاء في لسان العرب - تعني رفع الحجاب عن الشيء المستور، ويلازمه ظهور ذلك الشيء ثم استعمل في رفع الغمّ والحزن والإبتلاءات وكأنّ هذه الأمور تمثل حجباً على روح الإنسان وجسمه وتُرفع من قبل الإنسان وغيره.

### النور الوهاج في الظلمات:

في الآية الخامسة والأخيرة التي نبحثها نلاحظ أنّ محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن في إطار جديد وجميل حيث تقول: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، في هذه الحالة تناهى عنكم العبودات المزيفة وتلجأون إلى لطف الله وحده وتقولون: ﴿لَئِنْ أَخْبَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

١. احتمال البعض من أنّ «من» في (فريق منكم) بيانية لا تبغيه بعيد جدّاً ويخالف ما ورد في الآية ٣٢ من سورة لقمان (فلما نجاهم إلى البر ف منهم مقتضى) راجع تفسير روح المعاني ذيل هذه الآية.

٢. لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ مفردات الراغب.

والتعبير بـ«ظلمات البرّ والبحر» تعبير جميل يمكن أن يكون إشارة إلى الظلام الظاهري الذي يحدث في الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المحملة بالغبار وعند ظهور السحب السوداء في السماء، وهذا الظلام مرعب ومخيف وخاصة إذا كان في البحر والصحراء، أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية في الصحراء، ويمكن أن يكون له – كما ذكر ذلك بعض المفسّرين – معنى كنائي فيشمل المشكلات والشدائد والألام<sup>١</sup>.

كما يحتمل تضمن الآية الظالمين: الظلام الظاهري الذي يفرض الوحشة على الإنسان والظلام المعنوي الموحش المؤلم أيضاً، وعلى كلّ حال فإنّ هذه الآلام تحصل في السفر غالباً، والآية تقصد هذا المعنى أيضاً.

والتعبير بـ«تضّرراً وخفيّة» تعبير جميل أيضاً لأنّ (التضرّر) يعني الدعاء والطلب الصريح وإظهار التذلل<sup>٢</sup>، في حين تشير (خفيّة) إلى الدعاء الكامن في أعماق القلب، ويحتمل أن يقصد التعبيران الحالتين في الإنسان، حيث يدعو الله في قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات، وعندما يُبَيِّنُ مشكلات عوいصة وكبيرة يقوم بإظهار ما في قلبه ويتضرّر إلى الله ويائمه.

ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات الفئات المختلفة، فبعضها تدعوا الله جهاراً في مثل هذه الأحوال وبعضها تدعوه خفاءً وكأنّها تشعر بالخجل أمام الأصنام! أو من الناس الذين عرفوا أنّها تعبد الأصنام فلماذا لا تلجأ إلى الأصنام في المشكلات؟! على كلّ حال فإنّها ترجع إلى فطرتها في مثل هذه الأحوال وتستقضي قلوبها بنور التوحيد وعباده الواحد، وترفض كلّ ما سواه وتتسقى كلّ ما يذكرها به وتستيقن بأنّ الأصنام ليست أهلاً وعبارة الأصنام لا فائدة فيها ولا سبيل إلا التوحيد.

في مثل هذه الأحوال تعاهد الله وتتذرّ وتعهّد بأنّه إذا نجاها من هذه الشدائ والألام

١. تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٣٦؛ وتفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٢٦٩.

٢. مفردات الراغب: تضّرراً، أظهر الضراعة.

وأذاقها حلاوة اللطف والرحمة فإنّها ستبقى شاكرة ومدينة ورهينة للطّفه، ولكنّها بعد الخلاص من المضائق تنسى - في الغالب - كلّ عهودها وتعهّداتها، كما يشير إلى ذلك ذيل الآية: «**قُلِ اللَّهُ يُجَيِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشَرِّكُونَ**»<sup>١</sup>.  
وكما ذكرنا فإنّ هذه الحالة هي حالة أغلب المشركين، وأماماً الفئة التي لها قابلية أكبر  
فإنّها تتيقّظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك.

من مجموع الآيات التي ذكرت تظاهر هذه الحقيقة وهي: أنَّ القرآن الكريم لا يعدُّ غرِيزة المعرفة الإلهية في الإنسان أمراً فطرياً وحسب بل يعتبر الإيمان بوحدانيته من الأمور الفطرية أيضاً، وبما أنَّ الفطرة الأصلية في الإنسان تتعرّض في الغالب إلى حجاب الرسوم والعادات والأفكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة فينبغي انتظار تلك الساعة التي تزول فيها هذه الحجب، من هنا فإنَّ القرآن يشير إلى لحظات حساسته في حياة الإنسان وذلك عندما تزول الحجب بواسطة عواصف الأحداث ويبيّن الإنسان وفطنته وصرighth وجدانه فيدعو حينئذٍ ربَّه لوحده ويزول عنه ما سواه، ويدلُّ هذا جيداً على أنَّ عبادة الواحد والتَّوحيد مستودعة في أعماق روحه، وفي هذا المجال مررت بحوث تكميلية أخرى في أول الكتاب في بحث الفطرة والمعرفة الإلهية.



## ٢ - تناُسق العالم

تمهيد:

من السبل التي سلكها علماء العقيدة والفلسفة في سيرهم وسلوكهم من أجل الفرب من ذات الله المقدسة هي دراسة عالم الوجود الذي هو عبارة عن مجموعة متناسقة وكتلة متراقبة، هذا الاتحاد والتناسق ينبعان عن وحدانية الخالق، ولذا أطلق على هذا الدليل (برهان الوحدة والتناسق) وقد يُطرح هذا البرهان بصورة أخرى حيث يقال: إذا كانت هناك إرادتان تحكمان عالم الوجود، ولو كان في عالم الخلقة تدبيران لظهر الفساد واللانتظام حتماً، وبما أنّ هذا الأمر - عدم النظم والفساد غير موجود - يمثل دليلاً على وحدة الخالق والمدير والمدبر لعالم الخلقة، ولذا أطلق على الاستدلال عنوان (برهان التمانع).

من هنا فإنّ برهان (الوحدة والتناسق) و(برهان التمانع) متّحدان جوهراً ومحتوياً ولكن لهما تعبيران، وبعبارة أدقّ: إنّهما ينضران إلى قضيّة واحدة ولكن من زاويتين، فنحن نصل تارّةً عن طريق وحدة العالم إلى وحدة المبدىء، وأخرى من طريق عدم الفساد الناشيء من الإرادتين، وفي الحقيقة إنّنا ننظر من الأعلى إلى الأسفل تارّةً وأخرى من الأسفل إلى الأعلى.

وعلى كلّ حال فإنّه من أفضل دلائل التوحيد التي استندت إليها الآيات القرآنية.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لنتأمل خاسعين في الآيات التالية:

١- «مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَإِذَا جَعَلَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ \* ثُمَّ ازْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ». (الملك / ٤ - ٣)

- ٢- «أَمِ اتَّخَذُوا آلهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ \* لَوْ كَانَ فِيهَا آلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ». (الأنياء / ٢١ - ٢٢)
- ٣- «مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا دَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». (المؤمنون / ٩١)

### شرح المفردات:

«فُطُور»: من (فَطَر) على وزن سَطْر وهي في الأصل: الفتق، وقد فسره البعض كالراغب في المفردات بالشقّ طولاً ومن ثمّ أطلق على كلّ إبداع وإيجاد وخلق، لما فيه من انشقاق حجاب العدم وإبداع الشيء وإيجاده أو اختياره كما يطلق هذا اللفظ على عملية استخراج الحليب من الغنم باصبعين، وكذلك على هدم الصيام (وقد وردت إيضاحات أكثر حول ذلك في بداية هذا الجزء في بحث برهان الفطرة في موضوع معرفة الله).

«إِلَهٌ»: يعني - كما يقول اللغويون - المعبود، وقالوا باشتقاقة من (إِلاهٌ) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم في الهاشم<sup>١</sup>.

وقد استعمل هذا المعنى في مواضع كثيرة من (القرآن الكريم)، كما نقرأ في قصة بنى إسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الأصنام فقالوا لموسى: «يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا كُلُّ آلهَةٌ». (الأعراف / ١٣٨)

وقد جاء في قصّة السامری: «وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنْهُرِقَّنَهُ». (طه / ٩٧)

١. مصباح اللغة، «الله، لَهُ، آلهَة» على وزن (تعب) يعني عبد عبادة، تَالَه (تعبد) والإله، (المعبود)، وقد ورد في (صحاح اللغة) هذا المعنى مع فارق بسيط، ويقول الراغب في المفردات (الله)، جعلوه إسمًا لكلّ معبود لهم و(الله) فلان يأله: (عبد)، ويقول صاحب لسان العرب: (الإله) كلّ ما اتّخذ من دونه معبوداً، وفي التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (فظاهر من هذه الكلمات أنَّ الإله بمعنى العبادة)، وقد ورد في مجمع البحرين، «الآلهة»: الأصنام سُمّوا بذلك لاعتقادهم بأنَّ العبادة تتحقّق لها، وجاء في كتاب العين للخليل بن أحمد أيضاً (التَّالَه): التعبد، وقد جاء هذا المعنى صريحاً في قاموس اللغة، (وعلى ذلك فإنَّ عقيدة أهل اللغة قاطبة هي أنَّ الإله يعني المعبود).

وباختصار فإنَّ أرباب اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسِّرين اعتبروا (الله) بمعنى المعبد وهو الغالب في موارد استعماله، وحينما نلاحظ أنَّ (الله) قد استعمل في بعض الحالات بمعنى الخالق أو المدبِّر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة - في بعض الحالات - بين هذه المعاني وبين المعبد، ولا يكون الاستعمال في بعض الموارد دليلاً على الحقيقة أبداً، وخاصة مع تصريح اللغوين على خلاف ذلك، وموارد الاستعمال شاهدة على ذلك أيضاً.

ويمكن القول: أنَّ جملة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) لا تنسجم مع هذا المعنى وذلك لوجود معبدات غير الله الواحد بين العرب والأقوام الأخرى، ولكن الإجابة على هذا السؤال واضحة لأنَّ المراد هو المعبد الحقّ لا المعبدات بالباطل، أي: لا معبد حقّاً غير (الله)، والأصنام ليست أهلاً للعبادة، وقرائنا هذا المعنى موجودة في هذه الجملة، كقولنا: لا علم إلَّا ما نفع.

هناك ملاحظة جديرة بالتدقيق وهي أنَّ البعض اعتبر (إله) من (وله) وتعني (تحير) وفيها إشارة إلى الذات التي تحيرت فيها العقول، بيدَ أنَّ المشهور بين اللغوين هو المعنى الأول أي أنه من مادة (الله) بمعنى العبادة.

وقد توضح مما ذكرنا أنَّ إصرار البعض على أنَّ (الله) لا يعني (معبد) غير مقبول أبداً.

### جمع الآيات وتفسيرها

**ظاهر التنسيق:**

تقول الآية الأولى بعد الإشارة إلى خلق السماوات: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوتٍ﴾.

إنَّ هذا العالم الواسع بكلٍّ ما يتضمنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومتراص ومتتحد ومنظم، وإنَّ وجود الاختلاف في اللون والشكل والوزن وسائل الكيفيات الظاهرة والباطنية أو الكمية أمر طبيعي جداً، ولكن الشيء الذي لا وجود له هو عدم التناقض واللامظام والاختلاف.

ولذا تقول الآية في ذيلها: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ والمراد من «فارجع»

البَصَرَ» هو النظر الدقيق والعميق، والمخاطب في هذه الآية وإن كان هو النبي الأكرم ﷺ ولكن من الواضح أنّ المراد هم البشر جميعاً، وتضييف الآية: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصْرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ»<sup>١</sup>.

بهذا الأسلوب يقوم القرآن الكريم وبتعابير مختلفة بدعوة البشر إلى النظر في عالم الوجود ولا يكتفي بالدعوة بل يرغّبهم ويحرّكهم ويحرّضهم على هذا العمل، كي يعلموا أنّهم لا يجدون خللاً أو نقصاً فيه، وعندما لا يرون ذلك فسوف يتعرّفون على حقيقة توحيد المُبدىء والوحديانية ويردّون جملة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) قلباً ولساناً.

هناك نقطة جديرة بالإهتمام وهي أنّ (نفي الاختلاف) من بين الموجودات في العالم والذي ورد في الآية أعلاه يعني حسب اعتقاد البعض: نفي العيب والنقص، وقد فسّر البعض بمعنى نفي عدم الإنسجام، وفسّر آخرون بنفي الإضطراب والتزعزع، وبعض بنفي الإعوجاج، وبعض بنفي التناقض، في حين أنّ الآية لها مفهوم واسع يشمل كلّ هذه المعاني (هذه المفردة مشتقة من (فوت) لأنّ المتفاوتين يفقد كلّ منها الصفات المختصة بالآخر).

٤٥٥

### تعدد الآلهة:

الآية الثانية تعرض هذا المضمون في إطار آخر وصورة أخرى حيث تقول: «أَمْ اتَّخَذُوا آلهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُتَشَرُّونَ»<sup>٢</sup>.

وفي التعبير بـ«من الأرض» إشارة لطيفة وهي أنّهم (أي المشركون) كانوا يصنعون

١. «ارجع البصر» كنایة عن النظر المتکرر والمقرن بالدقّة والإهتمام، و(خاسيء) من (خستاً) يعني الانقباض والإغلاق المقرن بالذلة ويمكن أن يكون هنا كنایة عن الحرمان والفشل، و(حسير) من (حسر) يعني الضعف وافتقار القدرة وتعني في الأصل: الاختفاء، وبما أنّ الشيء إذا ضعف فإنه يتجرّد عن قدرته وطاقته وقد استعمل هذا اللفظ بمعنى الصفة.

٢. لفظ (أم) في الآية - كما يقول جمع من المفسّرين - منقطعة وتعني (بل)، في حين اعتقد البعض بأنّها بمعنى هل الإستهämية، فيما أنّ المشركون لم يدعوا أنّ الأصنام خالقة، كان بمعنى الإستهämان الإنكارى أكثر مناسبة.

آلهتهم من الحجر والخشب والمعادن وهي موجودات أرضية، فهل بإمكان هذه الموجودات أن تكون خالقة للسماءات الواسعة وأن تكون الحاكمة والمديرة والمديرة لها؟! ثمّ تضييف الآية في مقام الاستدلال على بطلان عقيدتهم: «لَوْ كَانَ فِيهَا آلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا».

«فساد»: يعني في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات: خروج الشيء عن حد الإعدال كثيراً أم قليلاً، في الروح أو الجسم أو الأشياء الأخرى في العالم، ومقابلة (الصلاح). و (الفساد) هنا يعني الدمار والخراب والانظام والهرج والمرج... .

وتضييف الآية في آخرها - كاستنتاج: «فَسُبِّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَزِيزِ عَمَّا يَصِفُونَ». وخلاصة الاستدلال هي: لو تعدد المدير والمديرة والخالق والحاكم والمتصرّف في هذا العالم فإنّ العالم لا يمكن أن يتسم بالنظام والتناسق، وذلك لانتهاء التعدد في الآلهة إلى تعدد التدبّير والتصرّف، وبذلك يختلّ عالم الوجود ويتعريض للفساد والدمار حيث يريد كلّ واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وإرادته.

وهنا يرد هذا الإشكال المعروف وهو: ما المانع من تعاوض الآلهة الحكيمية فيما بينها لإيجاد نظام واحد منسجم؟ والإجابة على ذلك ستأتي في الإيضاحات بإذن الله.

٥٥٦

الآية الثالثة والأخيرة التي نبحثها تقدّم هذا البرهان في إطار جديد حيث تقول: «مَا أَتَّخَدَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ».

ولو كان كذلك فإنّ كلّ إله ينفرد بمخلوقاته الخاصة ويفرض عليها تدبّيره وتصرّفه الخاصّ، وسوف تكون الأنظمة المختلفة والقوانين اللامنسجمة هي الحاكمة على العالم، وسيكون هو السبب في انهيار الوحدة والتعادل في العالم: «إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا حَلَّقَ». ويكفي هذا الدليل على إثبات وحدانيته تعالى حيث يتألف من المقدّمتين المشار إليهما سالفاً وهما: إنّ عالم الوجود منظم ومتراوط الأجزاء وتحكمه قوانين معينة (هذا من جهة)

ولو كان في العالم خالقان ومدبران ومتصرّفان لحصل الخلل وعمّت الفوضى نتيجةً لتعدد مراكز القرار والتدبّر والنصرّف (من جهة ثانية).

والآية تشير في ذيلها إلى أمر آخر بقولها: «وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

ويعدّ هذا سبباً في اختلال النظام في العالم واتّصافه بالفوضى وعدم الإنسجام.

وهنا – أيضاً – يشار هذا الإشكال في الأذهان وهو: أنّ هذه الآلة الحكيمـة بإمكانها أن تنسق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرض وحدة العالم إلى الإختلال فقد النظام، وسيأتي – كما أسلفنا – الجواب على هذا الإشكال في البحوث القادمة.

وتنستنتج الآية الكريمة أخيراً من هذين الدليلين حيث تقول في ذيلها: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصْفُونَ».

٤٥٥

## توضيحات

### ١- النّظرة العلميّة لوحدة عالم الخلق

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرّقة: الشمس، القمر، السماء، النجوم الثابتة والمتحركة، الإنسان، الحيوانات، أنواع النباتات والعناصر المختلفة، ولكن بعد قليل من الدقة والدراسة نجد أنّ ذرّات هذا العالم متراطبة ومتصلة الأجزاء حتى تبدو وكأنّها شيء واحد، وكلّما تعمّقت دراستنا وتركت إزدادنا إيماناً بهذا التنسيق والإتحاد للأسباب التالية:

١- إنّ أجرام المجموعة الشمسيّة متراطبة فيما بينها إلى حد تكون فيه كأسرة واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنّها كانت في البداية شيئاً واحداً متصل الأجزاء ثم انفصلت تدريجيّاً وبقيت متراطبة حتّى بعد افراقها.

وتقول الأبحاث الفلكية في هذا المجال: إنّ مجموعة الشمسيّة غير مستقلة أيضاً، حيث إنّها جزء من مجرة كبيرة تشكّل مع المجرات الأخرى مجموعة واحدة يعمل فيها

قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة متراقبة الحلقات كما يعتقد العلماء بأنّ هذه المجرّات كانت بـأجمعها شيئاً واحداً متّصلاً فانفصلت أجزاؤها تدريجاً.

٢- الأجهزة المختلفة والمتباعدة تماماً تترَكّب -كما يبدو بالتحليل النهائي لها- من عدد من العناصر المعينة وهي تلك -الموجودات البسيطة التي اكتشف منها أكثر من ١٠٠ عنصر لحدّ الآن، وهذه العناصر رغم اختلافها الشديد في الظاهر نراها عند تحليلها إلى أجزاء صغيرة -أي الذرة- أنّها متشابهة والفارق فيها هو عدد الألكترونات والبروتونات.

٣- من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرة هو الحاكم على العالم الواسع أي المجموعات وال مجرّات أيضاً حيث تجمع قوة الجذب والطرد هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الألكترونات في ذرة واحدة وفي مدارات خاصة تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجادب فيما بينها.

٤- الكائنات في الأرض وإن بدت لنا متنوّعة، كما في الألوان التي نشاهدها شديدة الاختلاف فيما بينها إلّا أنّا وبالتحليل النهائي نصل إلى أنّ كلّ الألوان ترجع إلى أمواج تختلف في شدّة ذبذبتها وطول أمواجها وقصرها.

٥- إنّا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً، ولكن علم الفيزياء الحديث يقول: بأنّ هذه الأصوات كأنّها، الجميلة منها والقبيحة، الخفيفة والصاخبة ترجع إلى مُبدئ واحد هو عبارة عن أمواج خاصة تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها.

٦- للأحياء أنواع كثيرة جدّاً، فالحشرات وحدتها لها مئات الآلاف من الأنواع، والنباتات لها أنواع تفوق ذلك، غير أنّ علماء النبات والحيوان يقولون: إنّها مركبة من مادة واحدة، ومؤلّفة من الخلايا التي يحكمها نظام واحد، ولذا تجرب الأدوية التي يراد معرفة درجة تأثيرها في الإنسان على الحيوانات أولاً في الغالب.

٧- توصل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهي: أنّ العناصر التي تترَكّب منها الكواكب السماوية تشابه الأجزاء التي تترَكّب منها كرتنا الأرضية، وهذا يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم في الكون.

٨- القوانين المختلفة التي تحكم الكون مثل، قانون الجاذبية، وسرعة النور، وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها في كلّ مكان وتتبع منهاجاً واحداً، ولذا فإنّ العلماء وبإجراه تجارب على نموذج واحد أو عدة نماذج في الأرض اكتشفوا قانوناً شاملًا يحكم عالم الوجود كله، كما نجد أنّ «نيوتن» اكتشف قانون الجاذبية الساري في كلّ المجموعات وال مجرّات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة!

وباختصار، كما قرأتنا في الآية الأولى من آيات هذا البحث، أَنَّا لَا نرَى أَيْ اختلاف في خلق الرحمن ولا فظور أو خلل، وكُلُّمَا تقدَّمَ العِلْمُ وَالْفَكِيرُ البشري كُلُّمَا تجلَّتْ عَظِيمَةُ هَذِهِ الآيَةِ وَعَمَقَهَا أَكْثَرُ فَأَكْثَرُ، وَهَذَا التَّنَاسُقُ وَالْوَحْدَةُ دَلِيلٌ وَاضْعَفُ عَلَى وَحدَةِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ.

٣٥٥

## ٢- إِيْضَاحُ بَرْهَانِ التَّمَانُعِ

إِنَّ بَرْهَانَ التَّمَانُعِ الَّذِي يَعْبُرُ عَنْهُ بـ(برهان الممانعة) أو (برهان الوحدة والتناسق) يتَّسَلُّفُ مِنْ مَقْدَمَتَيْنِ:

الأُولَى: الإِنْسِجَامُ وَالْوَحْدَةُ وَالتَّنَاسُقُ فِي عَالَمِ الْخَلْقِ الَّذِي تَقدَّمُ بِحْثَهُ.

الثَّانِيَةُ: لَوْ كَانَتِ الْقُوَىُ الْحَاكِمَةُ عَلَى هَذَا الْكَوْنَ قَوْيَيْنِ أَوْ أَكْثَرُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُهُدِيٌّ إِلَى حدوث الاختلاف والإِختلال، وبما أَنَّا لَا نَلَاحِظُ أَيْ اختلال أو عدم تعادل في هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه، ندرك أنّها تنشأ من مُبْدَىٰ واحد وأنّها مخلوقة ومدبرة ومنظمة من خالق واحد.

الآيَةُ الْأُولَى مِنْ بَيْنِ الآيَاتِ السَّابِقَةِ تَشِيرُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَقْدِمَةِ الْأُولَى، وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ تَشِيرَانِ إِلَى الْمَقْدِمَةِ الثَّانِيَةِ، وَلَذَا قَدْ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا الْبَرْهَانُ: (برهان الوحدة والتناسق) بالنظر إلى المقدمة الأولى.

وَقَدْ يَعْبُرُ عَنْهُ بـ(برهان التمانع) بالنظر إلى المقدمة الثانية، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُما يَرْجِعُانِ إِلَى دَلِيلٍ وَاحِدٍ، غَيْرُ أَنَّ النَّظرَ إِلَيْهِ يَتَمَّ مِنْ زَاوِيتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ.

## الإجابة عن سؤالين:

**السؤال الأول:** إنَّ هذا السؤال يُطرحُ من قبلِ الكثير وهو أنَّ تعددَ المبدأ لا يكون سبباً لاختلالِ النظام دائمًا فإنا نشاهد مجموعات تطبق ببرنامجاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها، فلو افترضنا أنَّ للعالم آلة فانَّ التعددُ هذا يكون منشأً للفساد في العالم حين وقوع النزاع فيما بينها، ولكن إذا أقررنا أنَّها حكيمة وواعية فإنَّها تدير أمور الكون بنظام خاصٌ وتعاون فيما بينها حتماً.

**الجواب:** هذا السؤال والإشكال وإن كان ملفتاً للنظر ابتداءً ولكنَّه يتضح بعد التدقيق أنَّه ناشيءٌ من عدم ملاحظة مفهوم (التعدد).

وللتوضيح نقول: إنَّنا عندما نقول آلة متعددة فإنَّها تعني أنَّها ليست واحدة من كل جهة، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنَّها تكون ذات وجود واحد، وبعبارة أخرى: أيَّنما وجد التعدد والإثنينية وجب أن نقر بوجود اختلاف في الأمر، وإلا فإنَّه من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات.

ومن جهة أخرى يوجد (تناسب) و(سخية) بين (الفعل) و(الفاعل) دائمًا، فكل فعل يكون من آثار فاعله ويتصف بلونه - شيئاً أم أيينا - وبهذا يستحيل أن يصدر فعلان من فاعلين ثم يكونان واحداً من جميع الجهات، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساوين من حيث الإرادة والعمل، واحتلافيهما في الوجود يترك أثره على إرادتهما وعملهما حتماً.

النتيجة هي أنَّه لا يمكن أن يصدر نظام واحد وحال من الإثنينية من مبدأ متعدد. وأمّا ما يقال عن الأفعال الجماعية فلا بد أن نلتفت إلى أنَّ هذه الأفعال وإن اتصفت بنظام نسيي إلا أنَّها لا تتصف بنظام حقيقي ومطلق حيث يتنازل المتشاورون عن بعض آرائهم ورغباتهم للتعاون فيما بينهم لأنَّ رغباتهم وآراءهم واحدة دائمًا، إضافة إلى أنَّ الأنظمة القائمة على الشورى قليلاً ما تعمل بصورة متفقة، بل إنَّها تتبع النسبة العالية عادةً وهذا دليل على صحة ما ندعيه.

إضافة إلى أنَّ هذه الغالبية لا تكون أشخاصاً ثابتين دائمًا بل متغيرين، فتارة تكون

الغالبية أربعة أشخاص من سبعة أشخاص، وتارة أحد هؤلاء مع ثلاثة آخرين، وبما أنّ غالبية متغيرة فلا يمكن إذن أن تكون أعمالها واحدة.

بهذه الأدلة الثلاثة تتّصف هذه الأنظمة القائمة على الشورى بشيء من عدم الانسجام ولكنّها بسبب القناعة بالنظام النسيبي يقال إنّها منظمة! لكنّنا لا نرى في عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وانسجاماً كاملاً وتماماً.

وبعبارة أخرى: لو افترضنا وجود مبداءين للكون فإنّهما إما متساويان من جميع الجهات (فهما إذن واحد) أو مختلفان ومتباهيان من جميع الجهات (حينئذ يكون تقابل في خلقهما وتدبيرهما) ولو كانا متشابهين من بعض الجهات ومختلفين في البعض الآخر فإنّ هذا الاختلاف والتمايز سوف يترك أثره على أفعالهما لأنّ الفعل انعكاس لوجود الفاعل وظلّ وجوده.

## ٤٥٦

السؤال الثاني: ويطرح هنا سؤال ثانٍ بمحاجة جملة (ولعلا بعضهم على بعض) التي جاءت في الآيات المذكورة وهو: كيف يمكن وقوع النزاع بين آلهة يفترض أنّها حكيم؟ ويميل بعضها للتغلب على البعض الآخر؟ ولماذا يفترضهما المفسرون كسلطانين أنانيين في زمن واحد يتنازعان بصورة دائمة لتضارب المصالح؟

الجواب: ينشأ هذا السؤال من أنّهم تصوّروا أنّ الاختلاف بين المبداءين يجب أن ينشأ من هوئ النفس والأئمّة دائمًا، في حين يمكن أن ينشأ الاختلاف من الاختلاف في التشخيص والقرار والإرادة بين شخصين مهما كانوا.

ويلزم أن نكرّر هذه الحقيقة ونؤكّد عليها وهي: أنّنا حينما نفترض وجود مبداءين للكون فإنّ الإثنيّة تعني أنّهما وجودان مختلفان من بعض الجهات حتماً وإلا فإنّ وجودهما واحد، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعليه فإنّ هذا الإله يجعل تكامل الكون ونظامه وتدبيره الصحيح في شيء في حين يجعل الثاني النظام والتكميل في شيء آخر، ومن الخطأ الكبير أن يتصور أنّهما كاملان من جميع الجهات، فإنّ افتراض الإثنيّة يعني

افتقاد كلّ واحد منها كمالات الآخر المختّصة به، فلا يتصور لهما حينئذِ الكمال المطلق، بل إنّ نقصانهما النسبي حتمي، فلا عجب في أن يختلفا في العمل والإرادة والقدرة، ورغبة كلّ واحد في إدارة الكون وفق ما يراه فيضاً كاملاً.

### ٣- برهان الوحدة والتلخّص في الروايات الإسلامية

لقد ورد الدليل أعلاه بشكل واضح ومحض في الروايات الإسلامية، حيث جاء في حديث أنّ هشام بن الحكم سأله الإمام الصادق عليه السلام: ما الدليل على أنّ الله واحد؟ فأجاب الإمام عليه السلام: «اتصال التدبير و تمام الصنع كما قال الله عزّوجلّ: لو كان فيهما آلهة إلّا الله لَفَسَدَتَا»<sup>١</sup>.

وفي حديث آخر نقله الكليني في الكافي عن هشام أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال في مسألة التوحيد جواباً للرجل الزنديق: «لما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهر والشمس والقمر دلّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبر واحد»<sup>٢</sup>.

١. تفسير البرهان، ج ٣، ص ٥٥، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ح ١.



### ٣ - دليل صرف الوجود

تمهيد:

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمْثُلُ وَجْهًا لَا نِهَايَةَ لِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ - كَمَا سِيَّاسَيَّتِي شَرَحَهُ لاحقًا - وَمِنْ الْمُؤْكَدِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْوَجْدَ لَا سَبِيلٌ إِلَّا تَبَيَّنَ إِلَيْهِ، فَمِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ وَجْدٌ مُوجَدٌ لِمَنْ لَا يَنْهَايْنَ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ إِذَا كَانَ عَنِ الْإِثْنَيْنِ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَكُونُ فَاقِدًا لِلْوَجْدِ الثَّانِي وَبِتَعْبِيرٍ آخِرَ أَنَّنَا نَصَلُ إِلَى حَدٍّ يَنْتَهِي فِيهِ الْوَجْدُ الْأَوَّلُ وَيَبْدُوا وَجْدُ الثَّانِي، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْوَجْدَ الْأَوَّلَ مَحْدُودٌ وَهَذَا الْوَجْدُ الثَّانِي لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَكُونُ ذَا بَدَائِيَّةً وَنِهَايَةً، وَلِنَوْضُحَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِمَثَلٍ:

شَخْصَانِ يَمْلِكُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِسَتَانًا، وَمِنَ الْطَّبِيعِيِّ وَالْحَتَّمِيِّ أَنَّ لِكُلِّ بِسَتَانٍ حَدُودًا مُعْيَنَةً، وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ مَسَاحَةَ الْبَسْتَانِ الْأَوَّلِ تَشْمِلُ كُلَّ الْأَرْضِ فَأَيْنَ تَكُونُ مَسَاحَةُ الْبَسْتَانِ الثَّانِي؟ إِذْنًا، سَيَكُونُ أَمَامَنَا بِسَتَانٍ وَاحِدٍ فِي الْأَرْضِ.

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْأَمْحَادِ يَعْنِي الْحَدِيثَ عَنِ الْوَحْدَةِ، وَالْمَرَادُ مِنْ بَرْهَانِ (صِرْفُ الْوَجْدِ) هُوَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَجْدٌ مُطْلَقٌ وَمُجَرَّدٌ عَنِ الْقِيدِ وَالْشُّرُطِ وَغَيْرِ مَحْدُودٍ، وَلَا يَفْتَرَضُ الثَّانِي لَهُ أَبْدًا.

بِهَذَا التَّمَهِيدِ نَتَوَجَّهُ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَنَسْتَمْعُ خَاصِّيَّنَا إِلَى الْآيَاتِ التَّالِيَّةِ:

١ - ﴿ شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. (آل عمران / ١٨)

٢ - ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْكِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* هُوَ الْأَوَّلُ

وَالْأَخْرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». (الحديد / ٢ - ٣)  
 ٣- «يَا صَاحِي السَّجْنِ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (يوسف / ٣٩)

## جمع الآيات وتفسيرها

**الله شاهد على وحدانية ذاته:**

تم تفسير آية البحث الأولى في مباحث (برهان الصديقين) السالفة ونمر علىها هنا باختصار.

إنَّ مضمون هذه الآية هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ يشهد على وحدانيته وكذلك الملائكة والعلماء (كلَّ واحد بشكَل): «شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ».

ومن علامات وحدانية ذاته المقدسة هي حاكمة النظم والعدل على الكون، ولعلَ الآية تشير إلى هذا الجانب في ذيلها: «قَائِمًا بِالْقِسْطِ» ثم تستند إلى وحدانية ذاته المقدسة مرة أخرى وتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ».

ومن البديهي أنَّ لو كانت ثمة آلهة تحكم الكون، فإنَّ منطقة كلَّ إله لا تكون في اختيار الثنائي، وبتعبير آخر يكون كلَّ واحد فاقدًا لقدرة الثاني، وهذا لا ينسجم اتصافه بـ(العزيز). كما أنَّ حكمته التي تحكم العالم آية أخرى على وحدانيته، فلو تعددت الأكونات كانت نهايتها الفساد والدمار.

أمَّا كيفية شهادة الملائكة بوحدانية الله عزَّ وجلَّ فإنَّها واضحة، ولكن هناك كلام بين المفسرين حول كيفية شهادة الله على وحدانية ذاته، فبعض يقول: المراد هو الشهادة اللغوية التي وردت في آيات قرآنية مختلفة، وبعض يقول: إنَّ آثار وحدانيته ظاهرة في عالم الوجود في الآفاق والأنفس لأنَّ النظام الواحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة الله على وحدانيته.

إنَّ كلَّ ذلك صحيح، ولكن تضاف إليها شهادة أخرى و تستتحق التفصيل فيها وهي أنَّ ذاته المقدسة بنحو يأبى التعدد، وجود لا نهاية له، والوجود الالهائي واحد فقط، فذاته إذن دليل

على وحدانية ذاته (فتأنّم جيّداً).

ولا منافاة - طبعاً - بين التفسيرات الثلاثة ويمكن أن تكمن في مفهوم الآية، وعليه فإنَّ إصرار بعض المفسّرين مثل صاحب (الميزان) في أنَّ تفسير الآية ينحصر في المعنى الأول (الشهادة اللغوية) مع ملاحظة إطلاق لفظ الآية مما لا يوجد دليل واضح عليه. أمّا السبب في تكرار جملة (لا إله إلا الله) في الآية، فالظاهر هو أنَّ الأولى بمثابة المقدمة، والثانية النتيجة، ولعلَّ في الرواية التي وردت في تفسير القرطبي (المفسّر السنّي المعروف) عن الإمام الصادق علیه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول فيها: الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم يعني «قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم»<sup>١</sup>.

٤٥٥

### هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن:

الآية الثانية وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد - ونعلم أنَّ هذه الآيات تتضمّن بياناً دقيقاً وظريفاً عن صفات الله الجمالية والجلالية لذوي الأفكار الثاقبة، كما يستفاد من الحديث الوارد عن الإمام علي بن الحسين علیه السلام - يقول عزّ وجلّ: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»<sup>٢</sup> ولذلك فإنَّ الحياة والموت في قبضته أيضاً: «يُحْيِي وَيُبْتِدِئُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وعليه فإنَّ المدير والمدبر لهذا الكون هو ذاته المقدّسة فقط. وفي ذيل الآية توجد قضية يمكن أن تكون دليلاً على التوحيد في مالكيته وحاكميته وتديبه حيث تقول: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». في هذه الآية بيان لخمس صفات من صفاته المقدّسة وتدلّ بمجموعها على أنَّ ذاته المقدّسة لا نهاية لها، فهو أوّل كلّ شيء، وآخر كلّ شيء، وهو موجود في الظاهر والباطن،

١. تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٨٥.

٢. لاحظ أنَّ في تقديم (له) إشارة إلى الحصر، ويعني أنَّ ملك السماوات والأرض منحصر في ذاته المقدّسة.

وله الحضور العلمي في كلّ مكان، وأنّ مثل هذا الموجد لا يتصور أن يكون له ثانٍ، فلو كان الإله الثاني موجوداً فإنّه يعني أنّ الإثنين محدودان وذلك لانتهاء كلّ واحد عندما يصل إلى الآخر، ويبدأ الثاني.

إذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: استدلّ الكثير من العلماء على إثبات وحدانيته بعبارة: (هو الأول).<sup>١</sup>

وقد كثر الكلام حول مفهوم (الأول والآخر والظاهر والباطن) واستأنى لاحقاً أبحاث الصفات الشبوانية بإذن الله، وينبغي أن نذكر هنا هذه النقطة وهي: أنّ الأول في الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخرًا وما كان آخرًا لا يكون أولاً، كما أنّ الوجود الظاهر لا يكون باطناً، والوجود الباطن لا يكون ظاهراً، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإنّ هذه المفاهيم تكون مجتمعة فيه.

### ٣٥٥

الآية الثالثة والأخيرة التي وردت في بحثنا تتحدث عن لسان يوسف عليه السلام عندما فسر للسجينين معه من اتهمهما بعد أن طلبا التفسير منه وتشير إلى أنّ يوسف عليه السلام عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره إلى البحث عن التوحيد الذي يتضمن أصل السعادات برمتها وقال لهمما: «يَا أَصْحَابَ السِّجْنِ أَرْبَابُ مُتَقْرِّبُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

والملحوظ أنّ صفة (قهار) قد تكررت في القرآن الكريم ستّ مرات٢ وقد وردت في كلّ مورد بعد الصفة (واحد) مما يدلّ على وجود علاقة بينهما وأنّ قاهراته دليل على وحدانيته (فتأنّ جيداً).

قام يوسف عليه السلام بطرح المسألة أولاً على وجدينهما، وبما أنّ حقيقة التوحيد -كما أشرنا سالفاً - كامنة في أعماق الفطرة الإنسانية فقد أقام المحكمة بين يدي الوجدان وسائل:

١. تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢١٣ (وجاء هذا المضمون في تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٣٤٧ أيضاً).

٢. الرعد، ١٦؛ إبراهيم، ٤٨؛ الزمر، ٤؛ غافر، ١٦ وآلية البحث.

أَرْبَابُ مِنْفَرْقَوْنَ، إِلَهُ الْبَحْرِ، إِلَهُ الصَّحْرَاءِ، إِلَهُ الْأَرْضِ، إِلَهُ السَّمَاءِ، إِلَهُ الْمَاءِ، إِلَهُ النَّارِ، وَهَكُذَا الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَالْفَرَاعِنَةُ وَالْأَصْنَامُ الْحَجَرِيَّةُ وَالْخَشْبِيَّةُ وَالْمَعْدُنِيَّةُ الَّتِي تَعْبُدُهُنَا خَيْرُ أَمْ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْمُهِيمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَلْمَةُ (قَهَّار) صِيغَةٌ مُبَالَغَةٌ مِنْ (الْقَهْرِ) وَيَعْنِي كَمَا يَقُولُ الرَّاغِبُ فِي الْمَفَرَّدَاتِ: الْغَلْبَةُ وَإِذْلَالُ الْطَّرْفِ الْمُقَابِلِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْلَّفْظُ يُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِينَ الْمَعْنَيَيْنِ (الْغَلْبَةُ وَالْإِذْلَالُ) مُسْتَقْلًا، وَكَمَا يَقُولُ الطَّبَرَسِيُّ الله فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: «الْقَاهِرُ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ»<sup>١</sup>، مِنْ هَنَا تَتَضَّعُعُ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ صَفَةِ الْوَحْدَةِ وَالْقَاهِرِيَّةِ، فَهَيْنَا نَذْعَنُ بِقَدْرِهِ الْغَالِبَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَيْ أَنَّهَا غَيْرُ مَحْدُودَةٍ فَإِنَّنَا لَا نَتَصَوَّرُ لَهُ ثَانِيًّا، لَأَنَّ كُلَّ مَا سَوَاهُ مَغْلُوبٌ لَهُ وَمَفْهُورٌ، وَلَذِكَّ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ مَا سَوَاهُ وَاجِبُ الْوَجْدَ وَغَيْرُ مَحْدُودٍ (فَتَأْمُلْ جَيِّدًا).

## توضيحات

### ١- إِنَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مُتَنَاهِيَّةٌ

القضية الأولى والأكثر أهمية في باب (صفات الله) الواجب إثباتها لإيضاح مسألة التوحيد وصفات الله الأخرى كالعلم والقدرة وأمثالها هي أنّ ذاته المقدسة لا متناهية، فإن ثبتت هذه القضية وفهمت جيداً تيسّر الطريق إلى جميع الصفات الجمالية والجلالية (الصفات الشبوانية والسلبية).

ولا إثبات لهذا الأمر وهو أنه تعالى وجود لا نهاية له، لابد من ملاحظة النقاط التالية:  
أ) محدودية الوجود تعني التقارب مع (العدم) فلو لا العدم لا يستقر مفهوم للمحدودية، فعندما نقول: إنّ عمر فلان محدود فإنه يعني أنّ عمره سينتهي إلى العدم ومقرر بالعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وأمثالها.

ب) الوجود ضدّ العدم ولو كان الشيء مقتضياً للوجود ذاتاً فإنه لا يقتضي العدم أبداً.  
ج) ثبت في برهان العلة والمعلول أنّ سلسلة العلة والمعلول في هذا الكتاب يجب أن

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٠٣.

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأذلية نسمّيها واجب الوجود، أي وجوده ناشيء من أعماق ذاته لا خارجها، وعليه تكون العلة الأولى للكون تقتضي الوجود ذاتاً.

أعد قراءة هذه المقدمات الثلاث بدقة وفكّ فيها جيداً، فسوف يتضح أنّ واجب الوجود إذا تحدّد فإنه يجب أن يكون من الخارج، لأنّ المحدودية طبق هذه المقدمات تعني الاقتران بالعدم، والشيء المقتضي للوجود ذاته لا يقتضي العدم أبداً، ولو اتصف بالمحodosية فإنه راجع إلى عامل خارجي، ويستلزم هذا القول أنّه ليس واجب الوجود لأنّه مخلوق لغيره من حيث حدّ الوجودي ومعلول لغيره.

وبعبارة أخرى: لدينا واجب الوجود دون شكّ (الأنّ البحث في التوحيد والوحدانية بعد إثبات واجب الوجود) فإنّ كان واجب الوجود غير محدود فمدّعانا ثابت، وإنّ كان محدوداً فإنّ هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته أبداً، لاقتضاء ذاته الوجود دون اقتران بالعدم، فلا بدّ من فرضه عليه من الخارج، ومفهوم هذا الكلام هو وجود علة خارج ذاته وهو معلول تلك العلة، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود، والنتيجة هي أنّه وجود غير محدود من كلّ جهة.

## ٢- الحقيقة اللاحاتاهية واحدة قطعاً

ثبت في البحث السابق أنّ الله عزّ وجلّ وجود غير محدود وغير متناهٍ، وهنا نقول: أنّ مثل هذه الحقيقة تابي الإثينية ولا تكون إلا واحدة لما قلنا مراراً أنّه لا يمكن تصوّر شيئاً غير محدودين أبداً، حيث تقترن الإثينية بالمحodosية دائماً وهذا أمر واضح لأنّ تصوّر الوجودين ممكّن حينما يكون كلّ وجود منفصلاً عن الآخر، فكلّ واحد ينتهي عند الوصول إلى الثاني ويبدأ الآخر.

واختبار هذا الأمر يسير، تصوّر على سبيل المثال ضوءاً غير مقيّد أو مشروط بزمان أو مكان أو سعة أو مصدر وغير محدود من أيّة جهة، فهل يمكنك أن تصوّر ضوءاً ثانياً مثيلاً له؟! وبالتالي كيد سيكون الجواب: كلاً، لأنّ كلّ ما تصوّره هو الأول إلا أن تضيف إليه شرطاً أو قيضاً وتقول: الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك.

وبعبارة أخرى عندما نقول: يوجد ضوءان في الخارج فإنّه إما بملاحظة زمانيهما أو مكانيهما أو مصدريهما أو شدة نوريهما، ولو تجرّدا من كلّ قيد أو شرط فإنّهما سيكونان واحداً قطعاً (فتأمّل جيّداً).

ولعل الآية الكريمة التي تقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ أَهَاماً آخَرَ لَا بُرهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».  
(المؤمنون / ١١٧)

تشير إلى هذا المعنى حيث لا يمكن الاستدلال على وجود نـد الله سبحانه أبداً، فكيف يمكن الاستدلال على أمر لا يمكن تصوّره؟

### ٣- دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية

إنّ البرهان المذكور نقل بقول جميل في رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يوصِفُ بمحدوبيَّة، عَظِيمٌ رَبُّنَا عَنِ الصَّفَةِ وَكَيْفَ يُوصِفُ بمحدوبيَّة مَنْ لَا يُحْدَدُ».<sup>١</sup>  
ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تَدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهُمْ أَوْ يُضْبِطُهُ عَقْلٌ» فسأل سائل: فما حدّه؟ فقال عليه السلام: «إِنَّهُ لَا يُحْدَدُ، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ مَلِئَةُ الْأَرْضِ كُلُّ مَحْدُودٍ مَتَّنَاهُ إِلَى حَدٍّ، إِنْذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الْزِيَادَةَ، وَإِنْذَا احْتَمَلَ الْزِيَادَةَ احْتَمَلَ النَّقْصَانَ، فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ، وَلَا مَتَّزِيَّ، وَلَا مَتَّوْهِمٌ».<sup>٢</sup>

١. أصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠، باب النهي عن الصفة، ح ٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥، ح ١.



## ٤ - دليل الفيض والمداية

### (دعوة الأنبياء جمِيعاً إلى الله الواحد)

**تمهيد:**

إنَّ الله سبحانه وَجْدَنَا كاملاً، ومثل هذا الوجود يكون مصدراً للفيض على الموجودات وكمالها، فهل يعقل أنَّ مصدر الكمال يحرم الموجودات الأخرى من فيضه ولا يعرِّفهم - على الأقل - نفسه؟ مع أنَّ هذه المعرفة سبب لرقيهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفياض.

وعلى ضوء هذا البيان يتَّضح أنَّه لو كان هناك عدَّة آلهة لوجب أن يكون لكل إله منهم رسل، وأن يعرِّف نفسه إلى مخلوقاته، وأن يشملهم بفيضه التكويني والتشرعي. والنتيجة هي: أَنَّا لو وجدنا أنَّ الرسل بأجمعهم يخبرون عن إله واحد، لا تَتَّضح أنَّ غيره لا وجود له.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم ونمعن خاسعين في الآيات الكريمة التالية:

١ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .  
(الأنبياء / ٢٥)

٢ - ﴿ وَأَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ ﴾ .  
(الزخرف / ٤٥)

٣ - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا حَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ هُمْ شَرِكُ فِي السَّمَاوَاتِ أَئْتُنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .  
(الأحقاف / ٤)

## جمع الآيات وتفسيرها

**دعوة الأنبياء العاية إلى الله الواحد:**

إنَّ الْآيَةَ الْأُولَى فِي بحثنا هذَا تشيرُ إِلَى تارِيخِ الْماضِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَقُولُ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ». أَجَلْ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ جَمِيعًا كَانُوا يَنادِونَ بِالْتَّوْحِيدِ وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ وَيَشْهَدُ تارِيخُهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكَيْفَ يَعْقُلُ أَنْ يَكُونُ لِلشَّرِكِ حَقِيقَةً وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ؟!

فَهُلْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ آخَرُ وَلَكِنْهُ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ؟ أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ قَصْرٌ وَفِي إِبْلَاغِ أَمْرِهِ؟ وَالْعُقْلُ السَّلِيمُ لَا يُقْرِئُ بِقَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ.

وَكَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: يَقُولُ الْقَرآنُ الْكَرِيمُ فِي آيَاتٍ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْبِيَاءُ)  
بِالْأَسْتِدْلَالِ الْعُقْلِيِّ أَوْ لِإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ: «لَوْ كَانَ فِيهَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ...»، ثُمَّ بِالْدَلِيلِ النَّقْلِيِّ  
(آيَةُ الْبَحْثِ) حِيثُ دَعَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءَ الْمَاضِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ.<sup>١</sup>

٤٥٦

أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ: تَطْرُحُ هَذَا الْمَضْمُونُ فِي إِطَارٍ آخَرَ حِيثُ تَخَاطِبُ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
(الْمَرَادُ هُمُ النَّاسُ طَبِيعًا) وَتَقُولُ: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ  
الرَّحْمَنِ آلَهَةً يُعْبُدُونَ».

وَقَدْ احْتَمَلَ الْمُفَسِّرُونَ عَدَّةَ احْتِمَالَاتٍ فِي كِيفِيَّةِ أَمْرِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَسْأَلَ  
الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ مَعَ دُمُودِهِمْ فِي عَصْرِهِ، فَقَدْ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ الْمَرَادُ هُوَ السُّؤَالُ  
مِنَ الْأُمُمِ السَّابِقَةِ كَيْ تَتَبَيَّنَ الْقَضِيَّةُ عَنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، فَالْأُمُمُ حَتَّىَ الَّتِي تَعْتَقِدُ  
بِالتَّتَّلِيثِ وَأَمْثَالِهِ، عَنِّدَمَا تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ عَنْ اعْتِقَادِهَا بِالْتَّوْحِيدِ وَتَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ  
بِ(التَّتَّلِيثِ فِي الْوَحْدَةِ).

١. تَفْسِيرُ الْقَرْطَبِيِّ، ج٦، ص٤٣٢٠.

وهذه الآية تعطي - في الحقيقة - مفهوم الآية التالية حيث خاطبه تعالى بقوله: ﴿فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ . (يونس / ٩٤)

وقد احتمل هذا أيضاً وهو: أنّ المراد هو مراجعة كتبهم المتبقية في أممهم، فإنّ استخراج القضايا منها بمثابة السؤال عن أولئك الأنبياء.

وبما أنَّ الهدف الرئيس من الآية هو الاستدلال أمام المشركين، فقد كان المعنى الأول والثاني هو المناسب وذلك لأنَّ الإرتباط المعنوي للنبي الأكرم ﷺ مع أرواح الأنبياء السابقين لم يتقبله المشركون وكان مفيداً للنبي ﷺ نفسه، وإنَّا نعلم أنَّ إيمان النبي بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها إلى طرح مثل هذا السؤال نفسه.

والتفسیر الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطني للأية وقد تضمنَت روايات متعددة الإشارة إلى ذلك.<sup>١</sup>

على كل حال فإن المراد هو أن دعوة نبي الإسلام عليه السلام إلى التوحيد ليس أمراً جديداً أو عجيباً بل أمر قد اتفق عليه جميع الأنبياء الإلهيين وهذا بنفسه دليل واضح على قضية التوحيد.

والاستناد إلى الاسم المقدّس (الرحمن) في هذه الآية إشارة إلى أنّ من يستحق العبودية هو الإله الذي تشمل رحمته العامة حتّى الكافرین المشركين والبشر جميعاً، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولی نعمتهم الذي غمرهم إحسانه ويتوجّهوا إلى الأصنام الخاوية؟

**هل تهلكون دليلاً على الشرك؟!**

إنَّ الآية الثالثة والأخيرة ضمَّت الدليل النقلي المذكور إلى جانب دليل عقلي آخر إذ

١. تفسير البرهان، ج ٤، ص ١٤٧؛ تفسير نور الشقين، ج ٤، ص ٦٠٦-٦٠٧.

تقول: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوَنِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقة فإنها ينبغي أن تكون مبدأً للفيض، وعلى الأقل أن تخلق قسماً من الأرض وتساهم في خلق السماوات، فهل يعقل أن يكون الإله فاقداً للفيض؟

ومن جهة أخرى: أي نبي دعا الناس إلى آلهة متعددة؟: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُ صَادِقِينَ﴾.

وهذا التعبير يشير إلى أن الأنبياء عليهما السلام أجمعوا على التوحيد، وهذا الإجماع أو الاتفاق دليل واضح على القضية، وبهذا يكون كتاب الخلق دليلاً على التوحيد وكذلك كتب الأنبياء السابقين.

«أثارة من علم»: من مادة (أثر) ولهذا اللفظ - كما في (مقاييس اللغة) - ثلاثة معانٍ: التقديم، الذكر وأثر الشيء.

وقد ورد هذا المضمون في تفسير الفخر الرازي ولكن بتعبير آخر حيث ينقل المعاني الثلاثة لـ(أثار)<sup>١</sup>.

## توضيحات

### ١- الفيض والهداية في الروايات الإسلامية

ورد (برهان الهدایة والفضیل) في الروايات الإسلامية إلى جانب القرآن الكريم، فقد تحدّث الإمام علي عليهما السلام في وصيته المعروفة إلى الإمام الحسن عليهما السلام عن هذا البرهان ببيان جميل واضح حيث قال: «واعلم يابني أنه لو كان لربك شريك لأتك رسنه، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد كما وصف نفسه»<sup>٢</sup>.

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (أثر).

٢. نهج البلاغة، الرسالة، ٣١.

توضيحة: إنَّ الله حكيم، والإِله الحكيم له آثار الهدایة والفيض حتماً، في عالم التكوين والخلق وفي عالم التشريع والدين، فكيف يمكن أن يوجد إِله آخر ولا نرى آثار صنعه في ساحة الوجود ولا نشاهد عالمة من رسالته؟ وهذا لا ينسجم مع حكمته أبداً لأنَّ في ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته.

ثم إنَّ دعوة الأنبياء المرسلين من قبل الله جمِيعاً لا تنسجم مع فرض وجود إِلهين، فهل يعقل أن يطرح الإِله الذي يرسل الأنبياء قضية غير صحيحة ويدعو إلى التوحيد كذباً؟! فهذا لا ينسجم مع حكمته أيضاً.

ولا ينحصر طريق إثبات وحدانية الله في هذا الدليل فقط لوجود أدلة أخرى أشرنا إليها سابقاً، أمّا إجماع الأنبياء عليهما واتفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد فهو يُعد دليلاً مستقلاً.

٤٥٥

## ٢- برهان الترکب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلاً خامساً على إثبات وحدانية ذات الله المقدّسة ولم نثر على آية قرآنية تصرّح بذلك، ولذا نورده على شكل إيضاح في ختام هذا البحث وخلاصته:

لو كان الله مثيلُ فهما متشابهان من حيث الوجود ولكنَّ إثنينيهما توجب أن تكون لكل واحد منها خصوصيات، وبهذا يكون كلّ واحد مركباً من جزأين، (ما به الاشتراك) (ما به الإِمتياز) وحينئذ لابدَ أن نذعن بأنَّ كلّ واحد منها تحتاج إلى أجزائه، لأنَّ المركب لا يكون بدون اجزاء، ولو كان محتاجاً فإنه لا يكون واجب الوجود، لأنَّ واجب الوجود والمُبدىء الأوّل للكون غني عن كلّ شيء.

فهو إذن لا مثيل له كما أنه لا اجزاء له، ولو كان له مثيل فإنه سيكون ذا اجزاء قطعاً، فهو إذن وجود بسيط من كلّ جهة ولا شريك ولا مثل له من كلّ جهة.

٤٥٦

### ٣- التوحيد والأدلة النقلية

إنَّ الأدلة الخمسة المذكورة هي أدلة عقلية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، ويمكن هنا الاستفادة من الدليل النقلي أيضًا، لأنَّه بعد إثبات وجود الله وإثبات نبوة رسول الإسلام ﷺ وصدق دعوته، فإنَّ ما جاء في هذا الكتاب السماوي (أي القرآن الكريم) هو بيان للحقائق التي لا تُنكر، هو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل الله الحكيم والصادق، ومثل هذا الإنسان لا يقول قضية خاطئة.

من هنا يمكن الاستعانة بآيات القرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، والقرآن الكريم زاخر بهذه الآيات، بل إنَّ أي موضوع لم ينكر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكَّد صفة من صفات الله إلى هذا الحد.

يقول المرحوم العلامة المجلسي رض في بحار الأنوار لدى استدلاله بهذا الدليل. من الواضح أنَّ وجود الدليل النقلي لا يتعارض مع الاستدلالات العقلية (الأدلة السمعية من الكتاب والسنة وهي أكثر من أن تحصى ولا محذور في التمسك بالأدلة السمعية في باب التوحيد وهذه هي المعتمد عليها عندي<sup>١</sup>).  
خاصة وأنَّ الأدلة العقلية المذكورة لها جذور في الكتاب والسنة الشريفه.

# **مُصَادِرُ الشُّكْرِ الْهَامّةُ**

١ - إِتّباعُ الأَوْهَامِ

٢ - اتّباعُ الْحَوَاسِ

٣ - الْمُصَالِحُ الْوَهْمِيَّةُ

٤ و ٥ - عَامِلُ التَّقْليِدِ وَالْاسْتِعْمَارِ



## ١- إِتْبَاعُ الْأَوْهَام

تمهيد:

بما أنّ الفطرة الإنسانية - كما أسلفنا في بداية بحث التوحيد - قد نشأت على التوحيد والوحدانية، كما أنّ الأدلة العقلية والنقلية الواضحة تعزّر هذه الفكرة، فإنّ هذا السؤال يطرح نفسه وهو: ما السبب في أن ينبت الشرك وينمو كالشوك في طريق معرفة الله لدى الإنسان؟ وما هي جذور هذا الانحراف الكبير أو الانحراف الفكري الأكبر لدى الإنسان؟

من خلال دراسة تاريخ الأنبياء عليهم السلام والآقوام البشرية المختلفة وادعاءات عبادة الأوثان على مرّ التاريخ نستطيع كشف الستار عن الجذور الأساسية للشرك، ومن المسلم أن معرفة مصادر وجذور الشرك ستكون عاملاً مساعداً ومؤثراً في مواجهة هذه الآفة الكبرى، لأنّ معرفة أسباب أي مرض تكون كفيلة بعلاج ذلك المرض.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل الآيات التالية:

١- «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ أَهْلًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ يِهِ فَإِنَّا جَسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ». (المؤمنون / ١١٧)

٢- «مَا تَعْدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْهَا سَيِّئُمُوهَا أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِّي الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (يوسف / ٤٠)

٣- «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ». (الحجّ / ٧١)

- ٤- «أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَبَعُ الدِّينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا لِظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ». (يونس / ٦٦)
- ٥- «وَمَا يَتَبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طَنَّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». (يونس / ٣٦)
- ٦- «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوِي الْأَنْفُسُ». (النجم / ٢٣)
- ٧- «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلهَةً قُلْ هَاتُوا بُرُّهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعَى وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُغْرِضُونَ». (الأنباء / ٢٤)

### شرح المفردات:

«الظنّ»: يعني - كما يقول الراغب في المفردات - الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شيء، فإنّ قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنه لا يتجاوز حدّ الوهم، وأماماً ابن منظور فإنه يقول في لسان العرب: يستعمل الظنّ بمعنى الشك واليقين كليهما إلا أنّه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبر، وأماماً الحاصل عن طريق المشاهدة فإنه يطلق عليه بـ(العلم). ويقول ابن الأثير في النهاية: إنَّ الظنَّ يستعمل تارةً بمعنى العلم وأخرى بمعنى الشك وتارةً بمعنى التهمة.

وقد استعمل هذا اللفظ في آيات البحث بمعنى الأوهام الواهية وعديمة الأساس (الآيات نفسها تتضمن قرائن على هذا المعنى وستتم الإشارة إليها).

«خَرْصٌ»: على وزن (خرس) يعني كما يقول صاحب (صحاح اللغة) تخمين وزن التمر الذي يحصل من رطب النخيل، كما أورد الراغب هذا المضمون في مفرداته. ثم أطلق على كلّ حدس وتخمين وبما أنهما لا يصيّبان دائمًا، فإنه استعمل بمعنى الكذب أيضًا، وهذا اللفظ يطلق في الأساس على كلّ ظنٍ لا أساس راسخ له. كما أنّ هناك معانٍ أخرى لمشتقّاته مثل (الرمج) (الحلقة) و(الحوض الكبير) الذي يكون

على ساحل النهر ويدخل فيه مأوه ويرجع منه) ولا يبعد أن ترجع هذه المعاني كلّها إلى الجذر نفسه حيث يقترب التخمين والظن بالتلزل عدم الثبات ويتصف الرمح والحلقة والحوض الخاص المذكور بهذا الوصف<sup>١</sup>.

«برهان»: هو الدليل القطعي المحكم وجاء أيضاً بمعنى الدليل والإيضاح، ويقول الراغب في المفردات: البرهان يعني البرهان المحكم، ويعتقد البعض أنه مشتق من (برهه) ويعني الإيضاح، ثم أطلق على كلّ كلام واضح وصريح ليس فيه أي إبهام، أو الأمور الواضحة التي لا خفاء فيها<sup>٢</sup>.

وما ورد في الحديث: (الصدقة برهان) لعلة لما للإنفاق في سبيل الله من دلالة على صحة إيمان الإنسان.

«سلطان»: ويعني في الأصل - كما في مقاييس اللغة - القوة والقدرة المصحوبة بالغلبة وبما أنّ الاستدلال القوي يكون سبباً لتغلب الإنسان على طرفه المقابل فإنّ لفظ (سلطان) أطلق على الدليل المحكم أيضاً.

«سلبيط»: ورد تارةً بمعنى الرجل الفضيح، وأخرى بمعنى الإنسان المزعج والبديء اللسان (سلبيطة) الذي يستعمل في النساء يحمل على هذا المعنى الآخر وكلّها مشتقة من مادة (سلطة).

٤٥٥

## جمع الآيات وتفسيرها

### الغور في عالم الأوهام<sup>٣</sup>

تؤكد الآية الشريفة الأولى - من خلال الإشارة إلى عقوبة المشركين - على حقيقة أنَّ

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (خرص).
٢. التحقيق في كلمات القرآن الكريم والكلمات التي نلاحظها مثل (برهن، يبرهن) أو الوصف (مبرهن) فإنه لون من الإشتغال الإنزاعي نظير كلمة (سلطان) المشتقة من سلط (سلطان يسلط).

(الشرك) ليس له أي دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والأوهام فتقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ أَهْلًا آخَرَ لَا يُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ». ومن الملاحظ أنّ عقوبة المشركين هنا غير موضحة بل تقول الآية: «حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» وهو أكبر تهديد، لأنّ العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبارة (لا برهان له) تفيد -في الواقع- هذا الأمر وهو: أن الشرك لا يدلّ عليه أي دليل سواء كان عقلياً أو نقيلياً ولا تنسجم الفطرة معه ولا المنطق، بل كلّما أمعنا النظر في هذه القضية ظهر بطلانها أكثر.

والتعبير بـ «لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» شامل ينفي كلّ فلاح عن الكافرين في الحياة المادية والمعنوية، في الدنيا والآخرة، وبيّن هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون.

٤٥٧

### أسماء بلا عناوين:

طرحت الآية الثانية هذا المضمون في إطار جميل آخر وتقول عن لسان يوسف عليه السلام وهو يخاطب صاحبيه في السجن: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْسَاءٌ سَمَيَّتُمُوهَا أَمْثُمْ وَآبَاؤُكُمْ» والشاهد على ذلك هو أنّها «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»، فلو كانت حقائق لقام عليها الدليل العقلي والنقيلي، فمن المحال أن يفقد الدليل أمراً بهذه الدرجة من الأهمية (وهو وجود الشر يك الله عزّ وجلّ)، وعدم الدليل لهذا دليل على العدم!

من هنا تستنتج الآية في الخاتمة: «إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» و«أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» و«ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

وكلّ جملة -في الحقيقة- في هذه الآية بمثابة دليل على نفي الشرك، حيث تقول من جهة: إنّ الله لم ينزل أي دليل على وجود آلهتكم، وتقول من جهة أخرى: إنّ حاكمة العالم وتدبيره مختصّ به حيث تلاحظ علامات الوحدة في التدبير في كلّ مكان.

وتقول من جهة ثالثة: إنّه أمر بعبادة الإله الواحد، فهل يعقل أن يأمر الإله الحكيم بأمر كاذب؟

وفي الختام فإنَّ الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل. ونقل بعض المفسِّرين بأنَّ عبادة الأصنام كانوا يعتقدون بأنَّ الله هو النور الأعظم، ويعتقدون بأنَّ الملائكة أنوار صغيرة، وأمّا الأصنام في الأرض فإنَّها مظهر لأنوار السماوية تلك ويطلقون عليها (المعبد) وبذلك تكون معبداتهم أسماءً بدون مسمىٌ. ولو تغافلنا عن هذا المعنى أيضاً وسلمنا بأنَّ الأصنام هي الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنَّها كانت أسماء دون مسميات أيضاً، وذلك لعدم وجود أثر من آثار الالوهية في هذه الأحجار والأخشاب الجامدة.

وقد تضمنَّت الآية الثالثة محتوىً شبهاً لما في الآية السابقة حيث تقول في ذم عبادة الأواثان: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا». وهو في الحقيقة نفي لوجود دليل نقلي، وتضييف الآية: «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ»، وفي ذلك إشارة إلى نفي لوجود دليل عقلي.

وتقول الآية في الخاتمة: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».

فلا معين لهم على دفع عذاب الله ولا رشد لهم في طريق الهداية ولا ينصرهم الدليل العقلي (وييمكن أن تجتمع التفسيرات الثلاثة في مفهوم الآية).

### الاستناد إلى الحدمن والتخمين:

تحدث الآية الرابعة في أوّلها عن مالكيَّة الله لجميع مَنْ في السموات والأرض حيث تقول: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ».

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى عقيدة المشركين الذين أقرُّوا بأنَّ المالك والحاكم الأصلِيُّ هو الله، ومع ذلك فإنَّهم كانوا يعبدون الأصنام، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أنَّ النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أنَّ المدير الواحد هو الحاكم عليه. ثم تضييف: «وَمَا يَتَبَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ».

بل إنّهم يتّبعون أوهامهم وظنونهم فقط: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»<sup>١</sup>. «يخرصون»: - كما أُشير سالفاً - مشتق من (خرص) ويأتي بمعنى (التخمين) و(الكذب) لأنّ التخمين لا يصيب في أكثر الموارد، وآية البحث تحتمل المعنيين.

وقد ورد هذا المضمون وبفارق يسير في الآية الخامسة التي تقول بعد ذكر انحراف عبده الأوّهام: «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْرَهُمُ إِلَّا ظَنًا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيئًا»، ثم تهدّد هؤلاء الطانين بتعبير ذي معنى كبير: «إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

أجل، إنّ الظنّ والوهم كالسهم في الظلام، لا يمكن أن تصيب به الهدف، ولو أصاب الهدف أحياناً فإنه يكون محض صدفة، من دون معرفة للهدف.  
«الظنّ»: في اللغة يشمل كلّ ظنّ ووهم، وإن أطلق أحياناً على اليقين أيضاً إلا أنّ المراد في آية البحث هو المعنى الأول.

ومن الملاحظ إنّ اتّباع الظنّ ينسب إلى أكثرهم لا إلى جميعهم، وقد لفت هذا المعنى نظر الكثير من المفسّرين.

فقال البعض إنّ (أكثر) هنا تعني الجميع (ولم يقم على هذا التفسير دليل). ومن الأفضل: أن يقال إنّ الآية تقصد الغالبية الجاهلة التي تتأثّر بالأوهام الخاطئة وتتعرّض للشرك، وتقابلها الفتنة القليلة من رؤوس الضلال الذين يدعون الناس إلى الضلال<sup>٢</sup> على علم منهم، والأمل في الهدایة موجود طبعاً في الفتنة الأولى فقط والخطاب موجه إليهم. كما احتمل البعض أنّ في (أكثر) إشارة إلى جماعة تتبع الظنّ والوهم طيلة حياتها ومن جملتها (الشرك) فهي تطفو فوق أمواج من الأوّهام وحجب الظلام والخيال<sup>٣</sup>.

١. وفقاً لهذا التفسير تكون (ما) في «وَمَا يَتَّبِعُ» نافية وفاعل (يتبع) هو (الذين) ومفعول (شركاء) أي أنّ المشركين لا يتّبعون في الحقيقة شريك الله تعالى (إنَّ اللَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهُوَ لَاءُ الشَّرَكَاءِ مِنْ صُنْعِ الْأَوْهَامِ)، ولكن احتمل جمع من المفسّرين بأنّ (ما) هنا إستهامة فيكون معنى الجملة هو: أي شيء يتّبعونه من دون الله ويجعلونه شريكاً له؟ فهل هناك إلا الظنّ؟ (النتيجة في الإثنين واحدة تقريباً). راجع تفسير مجتمع البيان؛ وتفسير الكبير؛ والقرطبي؛ وتفسير الكشاف؛ وروح المعاني في ذيل آية البحث وقد احتمل البعض أنّ (ما) هنا موصولة إلا أنه يبدو بعيداً.

٢. ورد ما يشابه هذا المضمون في تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٤٥؛ وتفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٠٣.

٣. وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير روح المعاني.

الآية السادسة تُشبه الآية الثانية في مضمونها من جهات، حيث تقول: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» <sup>١</sup> وهذه الجملة توضح هيمنة روح التقليد الأعمى على المشركين حيث اتبّعوا أسلافهم بعيون وأذان مغلقة ثمّ تضيف: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوِي الْأَنْفُسُ».

والملاحظة الجديدة هنا هي عطف (هوى النفس) على (الظنّ) وهو تعبير كثير المعنى وفيه إشارة إلى أنّ هذه الظنون الواهية تنشأ من هوى النفس الذي يجعل من الباطل حقّاً في منظارهم، فهم إذن يعبدون أهواه أنفسهم في الواقع والأصنام الأخرى ولديه لها! وعليه يكون مصدر الانحراف والضلالة لديهم في الواقع أمران: عدم الاستناد إلى اليقين من الناحية العقلية والعقائدية والتمسّك بالظنون والإعراض عن فطرة التوحيد الصحيحة من الناحية العاطفية والإستناد إلى هوى النفس.

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام أيضاً وهي أنّ (يتبعون) و(تهوي) فعلان مضارعان، ويعني ذلك أنّ هؤلاء يستمرّ اتباعهم للظنّ وهوى النفس ويبلوونون كلّ يوم بلون جديد! والملاحظ إنّ أول الآية تخاطب المشركين وآخرها تذكرهم باستخدامه ضمير الغائب (التفات من المخاطب إلى الغائب) وفي ذلك إشارة إلى أنّهم لا شأن لهم حتّى يستحقّون الخطاب.

أظهرت الآية السابعة والأخيرة الحقيقة نفسها ولكن في إطار جديد حيث تقول: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلهَةً» <sup>٢</sup> «قُلْ هَاتُوا بُرُوهَانَكُمْ» ولعدم امتلاكم دليلاً واضحاً ووجهًا على الشرك فإنّكم مدانون. ثمّ تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول: «هَذَا ذِكْرٌ مَّنْ مَعَ وَذِكْرٌ مَّنْ قَبْلَهُ» <sup>٣</sup>. والتعبير بـ(ذِكْر) بدلاً عن الكتب السماوية إشارة إلى أنّ جميع هذه الكتب عامل تذكير

١. في هذه الآية استدلال بالدليل النقلي في حين استدلّ في الآيتين السابقتين بالدليل العقلي وبرهان التمانع (تدبر).

ووعي، وقد ذكر بعض المفسّرين معانيًّا أخرى لكلمة «ذكر» ولكنّها لا تبدو مناسبة. وقد أكّد ذيل الآية مرّةً أخرى على هذا المضمون حيث يقول: ﴿بَلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، وإن كانت هناك فئة قليلة تدرك القضايا، إلّا أنّها لا تظهر الحقّ لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة.

ويمكن الإستنتاج جيّداً من مجموع الآيات الواردة بأنّ الشرك وعبادة واتخاذ آلهة من دون الله ليس له دليل عقلي ولا برهان نصي، ومن المحال أن تكون مثل هذه القضية المهمّة موجودة ولا يوجد لها دليل عقلي أو نصي، وعليه فإنّ فقدان الدليل لهذا، دليل قاطع على بطلانه.

## ٢- اتباع الحواس

تمهيد:

عندما يولد الإنسان في هذا الكون فإنه يرى المحسوسات ويميل إليها ويتخذها أساساً معلوماته، وعندما يسمو في فكره وعلمه فإنه يتعرّف تدريجياً على القضايا العقلية والفكرية.

إن البعض وبسبب التخلف الثقافي فإن إدراكهم يتوقف على مرحلة الحس، فلا يمكنهم أن يفكروا أو يؤمّنوا بشيء سوى المحسوسات، فهم يتوقّعون بأن الله وجود حسي، فيمكنهم أن يرونه أو يلمسونه! وهذا التوجّه يمثل عاملاً مهمّاً في توجّههم لعبادة الأصنام والآلهة المحسوسة، وعلى مرّ التاريخ.

وبهذه الإشارة تتوجّه إلى القرآن الكريم لنمعن خاسعين في الآيات التالية:

١- «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقاءً نَّا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ تَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَنَّوْ عَنْنَا كَبِيرًا». (الفرقان / ٢١)

٢- «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَدَهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا». (النساء / ١٥٣)

٣- «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَيَ الطِّينِ فاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلَى أَطْلَعُ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ». (القصص / ٣٨)

- ٤- «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا \* ... أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبْلًا». (الإسراء / ٩٢ - ٩٠).
- ٥- «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْعَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». (البقرة / ٢١٠).

## جمع الآيات وتفسيرها

**لماذا لا نرى الله؟**

إن الآية الأولى نقلت ما قاله الكفار وال MSR كون والذي يشير بوضوح إلى أمنيتهم في أن يكون الله مثلهم ذا جسم ويمكن النظر إليه حيث تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقاءً نَّا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا».

إنهم طالبوا برؤية ملائكة الوحي أولاً، ثم سوّلت لهم أمنيتهم أن يطالبوا برؤية الله، وبينما أنّهم لا يقرّون بالإله المجرّد وغير المحسوس، والظاهر أنّ هذا الكلام كان لرؤوس الشرك وعبدة الأصنام وقد علموا بالحقيقة إلّا أنه ومن أجل إغفال عامة الناس الذين يرون كل شيء في إطار الحسّ قاموا بطرح هذا الكلام أمام النبي الأكرم عليه السلام لكي يهزّ موهّ حسب زعمهم ولذا وصفهم القرآن الكريم بأنّهم قوم لا يؤمنون بالقيامة ولا يشعرون بالمسؤولية، ولهذا تقول الآية في ذيلها: «لَقَدِ اسْتَكَبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ أَعْتَوْ كَبِيرًا» وقد ذكر المفسرون للآية ٢٧ من هذه السورة الفرقان سبباً للنزول يدلّ على أنّ هذه الآيات نزلت في جمع من أئمة الشرك في قريش.

وذيل الآية يشير أيضاً إلى أنّ مصدر هذه الادّعاءات الضخمة والخاطئة هو ابتلاوهم بالكبير والغرور أولاً وسلوك طريق (العتو) وهو التمرّد المصحوب بالعناد واللجاجة في أمر الله ثانياً، ولم يختص بذلك العرب فحسب، بل ما زال جمع من علماء عصرنا المغرورين والمتمرّدين المادّيين الذين يعتقدون أنّ كلّ شيء يجب إجراء التجربة عليه ورؤيته في المختبر وبالوسائل الحسّية، ويقولون: إنّا لا نؤمن بالله حتّى نراه جهراً، وبهذا تكون

المجموعتان محصورتين في إطار الحسّ، في حين تكون العوالم الخارجة عن الحسّ أوسع بكثير من عالم الحسّ.

### طلبوا ذلك من موسى!!

تتحدث الآية الثانية أولاً عن حجج اليهود وتقول: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ». قال جماعة في تفسيرها أنّ مرادهم كان بأن ينزل عليهم كتاباً مخطوطاً على قرطيس معلومة من السماء ليشاهدوه بعيونهم ويلمسوه بأيديهم<sup>١</sup>.

وقالت جماعة أخرى: إنّ مرادهم هو لماذا لم ينزل جميع القرآن مرّة واحدة على النبي ﷺ والقرآن يجيئهم: لا عجب من هذا الطلب الخاوي لهؤلاء المعاندين للجوهرين بعد مشاهدة المعجزات والقرائن التي تصدق دعوة نبي الإسلام ﷺ: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَرًا»! وبسبب هذا الطلب الخاطئ: «فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ بِظُلْمِهِمْ».

أجل، إنّهم ظلموا أنفسهم وراحوا يتعلّلون، وحبسو عقولهم في إطار الحسّ ولم يسمحوا لها بالتجدد من هذا النطاق الضيق إلى أفق عالم ما وراء الطبيعة، ولهذا أنزلت عليهم صاعقة من السماء وأهلكتهم غير أنّ اللطف الإلهي ودعاء موسى عليه السلام قد أدركهم أخيراً وواصلوا حياتهم مرّة أخرى، والعجيب أنّ هذا الحدث العجيب لم يواظبهم، حيث مالوا إلى السامي في اقتراحه بعبادة العجل! ونقرأ في الآية: «ثُمَّ اخْتَدُوا الْعِجلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ»، وكأنّهم لم يؤمنوا إلا بالإله المحسوس، ولم تقو أرواحهم على العروج إلى عالم ما وراء الطبيعة.

ومرّة أخرى شملتهم اللطف الإلهي حيث تقول الآية في ذيلها: «فَعَفَوْنَاتَ عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا».

١. وقد وافق على هذا صاحب التفسير في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٥٨٣ وقد نقله الفخر الرازي وبيده تفسيراً مناسياً وإن لم يتعارض مع التفسير الثاني.

والمراد من (سلطان مبين) هنا هي الحكومة التي أعطاها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والاستدلالية، ويعتقد بعض المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان بأنّ النصر هنا من الناحية المنطقية فقط<sup>١</sup>.

### دعني أرى الله في السما!

في الآية الثالثة مقالة تفوّه بها فرعون في هذا الشأن، وهي توضّح أفكار الشعب المصري آتى، فقد ألقى هذه المقالة في عصر كان لإسم موسى وانتصاره على السحرة صدّاه في مصر بأسرها، ولما شعر فرعون بخيبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به أنظار الناس عن موسى عليه السلام ومعجزاته: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي»<sup>٢</sup>، ولذا أرى أنّ دعوة موسى إلى رب السماء والأرض خاطئة، وبما أتى من أهل التحقيق، فقد خطر بيالي شيء يظهر به صدق موسى أو كذبه، قم يا هامان: «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلَّ أَطْلَعُ إِلَيْهِ مُوسَى»<sup>٣</sup>، «وَإِنِّي لَأَظْنُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولا شك أنّ فرعون كان شديد المكر والدهاء وهو يدرك هذه القضايا الواضحة وهي أنّه ليس إلهًا، وأنّ ما يقصده موسى من إله السماء، هو خالقه لا أنّ الله يسكن السماء حقيقة، ولو تجاوزنا هذا الأمر وافتراضنا أنّ الله يسكن السماء فإنه لا يمكن الوصول إليه ببناء برج عالي، فمنظر السماء من على قمم الجبال في العالم هو المنظر الذي يشاهد من فوق سطح الأرض، ولم تخف هذه القضايا على فرعون.

ولكن فرعون كان يفكّر في مخطط آخر وأراد صرف الرأي العام الذي مال إلى موسى بشدة وذلك بطرح هذه القضية المثيرة، كما أراد أن يشغل مجموعة من الناس ولمدة طويلة

١. تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٤.

٢. يقول اللغويون في تفسير «ملأ»: يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأ العيون (من مادة ملأ) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى أشراف القوم ورؤسائهم وحواشي الملوك أيضاً.

٣. «صرح»: في الأصل تعني الخلو من الشوائب ثم تطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنّها بلغت من الكمال في بنائها إلى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص.

بناء برج عالي جداً، وفي النهاية يصعد إلى أعلى البرج ليحرك نفسه ويقول: إنني بحثت عن إله موسى عليه السلام في السماء فلم أجده أثراً!  
 إن هذه القضية توضح أمراً مهماً وهو إن مستوى التفكير العام في مصر كان بسيطاً إلى حد أنهم لم يكونوا ليصدقو إلا بإله محسوس، وبالتالي يصدقون فرعون بادعائه الأولوية وتوقعوا أن يكون إله موسى جسماً في أعلى السماء! وفي مثل هذه الأجراء تشيع روح الصنمية وعبادة الأصنام قطعاً!

٤٥٥

الآية الرابعة تنقل أقوال المشركين واحتجاجاتهم المتنوعة والغريبة حيث طرح كل واحد اقتراحًا على النبي الأكرم عليه السلام وتمسك بحججًا معينة حيث يقول الآية: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَهْجُرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوْعًا»<sup>١</sup>، وقد تمسك البعض الآخر بحجج أخرى وقالوا أخيراً: «أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْنَافًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِبِيلًا»<sup>٢</sup>.  
 والمطالبة الأخيرة توضح جيداً أنهم تصوروا أن الله والملائكة ذرو أجساماً موجودات جسمانية، ولم يتحملوا تصوّر وجود خارج عن إطار عالم الجسم والطبيعة، ويعتقد بعض المفسّرين بأنّ مرادهم من الإتيان بالملائكة هو أن تأتي لتعيين الله!<sup>٣</sup> أو تشهد على أولويته، وتشير هذه كلّها إلى المستوى الفكري المتخلّف لأولئك القوم المعاندين.

٤٥٦

**أَيْتُوْقُونُ لَنْ يَأْتِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ؟**

تحدّث الآية الخامسة والأخيرة عن الكفار والمشركين وأفكارهم المنحطة فتقول:

١. «ينبوع» من «نبع» وتعني عين الماء.

٢. فسرت الكلمة «قبيل» تارةً بمعنى «المقابل»، وتارةً بمعنى الكفيل والشاهد، وتارةً بمعنى الجماعة والفتنة، ويمكن الموافقة على المعاني الثلاثة في مورد الآية أعلاه.

٣. تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٥٩.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾<sup>١</sup>.

وقد اضطرب المفسرون بشدة في تفسير هذه الآية، فقد عدّها بعضهم من مشابهات القرآن فيلزم تفسيرها في ضوء المحكمات<sup>٢</sup>، وقد ذكر البعض سبعة تفاسير لها<sup>٣</sup>.

وكان تصورهم عن مضمون الآية هو أنه سيأتي اليوم الذي يأتي فيه الله والملائكة في ظلّ الغيوم، ولا ينسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة في أنه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله.

في حين أنّ مضمون الآية شيء آخر، والمراد منه هو الإستفهام الإنكاري ويشبه قوله للذين يتماهلون في تحصيل العلم: أَتَتُوقُّعُ أَنْ يَجْعَلَ الْعِلْمَ لِقَمَةِ سَاعَةٍ تَوْضِعُ فِي فِمْكَ؟! إنَّهُمْ هُنَّ الظَّالِمُونَ.

إنَّ الآية أعلاه تقول أيضاً: هل أنّهم يتوقعون أن يأتي الله والملائكة للقائهم ويقفون أمامهم ويشهدون لهم؟! إنَّهُمْ هُنَّ الظَّالِمُونَ، فليس الله بجسم ولا مكان ولا رواح أو مجيء له، وبهذا ليس في الآية - كما نلاحظ - مشكلة خاصة حتّى تحتاج إلى تأويل وتفسير معقد أو أن تحسب من المشابهات.

وتقول الآية في آخرها مهدّدة هذه الفئة المعاندة بالعقاب الشديد: « وَقُضِيَ الْأَمْرُ »، وكان العذاب متحقّق الآن، ولذا جاءت بصيغة الفعل الماضي ثم تقول: « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » وليس لأحد القدرة على مواجهته وليس لأحد أن يقاوم أمره، وإذا تعلّقت مشيئته بعقوبة جماعة فـكأنّها متحقّقة.

هل يتعلّق هذا التهديد بيوم القيمة أو الدنيا أم الإثنين معاً؟ لا يبعد أن يتعلّق بالإثنين، لأنَّ الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة. يتضح مما أوردناه في تفسير الآيات المذكورة بأنَّ الميل إلى الحسّ وتأثيره في تكوين

١. يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: ج ٥، ص ٢١٢ اتفق المفسرون على أنَّ أحد معاني (النظر) هو الانتظار.

٢. تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٠٥.

٣. تفسير الكبير، ج ٥، ص ٢١٣ - ٢١٦.

عقيدة الشرك والانحراف عن محور التوحيد طيلة تاريخ الأنبياء والأمم السالفة ممّا لا يمكن إنكاره، وأنّ الأقوام المتخلّفة فكريًا وثقافيًّا، أو بقيت متخلّفة بفعل إعلام الطغاة، قد اعتقدوا أنَّ الوجود منحصر في المحسوسات وتنتهي الفطرة الإلهيَّة بالإله المحسوس وهذا هو أحد العوامل المهمة في نشوء عقيدة الشرك في التاريخ.

٤٥٦

## توضيح

### لماذا ألغوا عالم الحسن؟<sup>١٩</sup>

من الواضح أنَّ أصول المعلومات لدى الإنسان بأجمعها تستمدّ من المحسوسات أوّلاً، لأنَّ الإنسان حينما يفتح عينيه يلاحظ عالم المادة ويتعرّف على عالم المحسوسات والطريق الموصل إلى ما وراء الحسّ، بل وتصوّر الوجود المجرد عن الزمان والمكان والمادة يتمّ بعد الدراسة والتحليل في المسائل الفكرية والعقلية والروحانية، فلا غرو إذن أن تكون عبادة الأصنام مذهبًا للأمم المتخلّفة.

فمن جهة يعلو نداء عبادة الله من باطن فطرتهم وتدعوهم قوى المعرفة الإلهيَّة إليه، ومن جهة أخرى وبسبب مغلوبتهم أمام عالم الحسّ والمادة تصعب عليهم معرفة الله المجرد عن الزمان والمكان والمادة، ولذلك فإنَّهم يسيرون في طريق الشرك ويشفون ظمآن رواحهم بالآلهة الخيالية بصورة كاذبة.

وبما أنَّ مجموعة من خدمة معبد الأصنام بل الكثير من الحكام الطغاة ينتفعون من هذا الأمر فإنَّهم يرغبون فيه، وفي النهاية يصبح كدين رسمي للبلاد. ومن العجيب أن تترسّب هذه الأفكار أحياناً في أعماق الكثير من عباد الله الحقيقيين، وللمثال على ذلك أنَّ بعض الناس يقول في قسمه: قسماً بالله الذي هو في السماء!! ويتصوّرون أنَّنا حينما نرفع أيدينا إلى السماء حين الدعاء أنَّ ذلك إشارة إلى الله وأنَّه يجلس على كرسي الإقتدار وقد اجتمعت الملائكة من حوله!

إِنَّ هُؤُلَاءِ غَافِلُونَ حَقًّا، فَلَيْسَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَيْسَ فِي رَفِعِ الْيَدِ فِي الدُّعَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى مَرْكُزٍ، بَلْ إِنَّ رَفِعَ الْيَدِ يَعْنِي التَّسْلِيمَ وَالإِضْطَرَارَ، أَوْ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الرَّوَايَاتِ إِنَّ السَّبَبَ هُوَ نَزُولُ النَّعْمَ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ السَّمَاوَاتِ، فَالْمَطَرُ وَضُوءُ الشَّمْسِ - وَهُمَا الْعَمَدةُ فِي حَيَاةِ كُلِّ مُجْوَدٍ حَيٍّ - مَصْدِرُهُمَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالتَّوْجِهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ تَوْجِهٌ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ لِهَذِهِ النَّعْمَ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، مَا لَمْ يَنْضُجِ الْإِنْسَانُ فَكَرِيًّا يَصْعُبُ زِوالُ آثَارِ الشَّرْكِ عَنْهُ، فَبَنُوا اسْرَائِيلَ الَّذِينَ تَرَبُّوا فِي مَدْرَسَةِ التَّوْحِيدِ سَنِينَ طَوَالَ عِنْدَ نَبِيِّ مِنْ أُولَئِي الْعِزَمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَاهَدُوا آثَارَ عَظِيمَتِهِ بِأَعْيُنِهِمْ عِنْدَ نِجَاتِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ الْفَرَاعَنَةِ وَاجْتِيَازِهِمُ النَّيلَ، وَبِمَجْرِدِ مَرُورِهِمْ عَلَى عَبْدَةِ الْأَصْنَامِ وَمَلَاحِظَتِهِمُ الْأَصْنَامَ رَجَعُوا وَطَالُبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَجْعَلْ لَهُمْ صَنَمًا فَوَاجَهُهُمْ مُوسَى بِرَدٍّ فَعَلَ شَدِيدًا وَنَدَمُوا عَلَى مَقَالِهِمْ، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ عِنْدَمَا تَوَجَّهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى جَبَلِ الطُّورِ بِصُورَةِ مَوْقِتَةٍ لِكِي يَأْخُذَ الْأَلْوَاحَ وَأَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ حَتَّى استَغْلَقَ السَّامِرِيُّ هَذِهِ الْغَيْبَةَ لِيُصْنَعَ لَهُمْ صَنَمًا وَدَعَا بَنِي اسْرَائِيلَ لِعِبَادَتِهِ، فَتَرَكَ أَكْثَرُهُمْ طَرِيقَ التَّوْحِيدِ وَرَكِعُوا لِعَجْلِ السَّامِرِيِّ وَبَقِيتَ فَتَّةٌ قَلِيلَةٌ مَعَ أَخِ مُوسَى (هَارُونَ) مُلْتَرِمَةً بِنَهْجِ التَّوْحِيدِ وَهَذَا يَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْقَادِهِ السَّائِرِينَ فِي طَرِيقِ التَّوْحِيدِ وَخَصْوصَاتِ أَمَامِ الْأَقْوَامِ الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي تَرَعَّرَتْ فِي أَجْوَاءِ الشَّرْكِ يَوْاْجِهُونَ مُشَكَّلَاتٍ كَبِيرَةً، وَغَسْلُ آثَارِ الشَّرْكِ أَسَاسًاً مِنَ الْقُلُوبِ لَيْسَ بِالْيُسِيرِ وَيَحْتَاجُ إِلَى تَرْبِيَةِ فَكْرِيَّةٍ وَتَرْبِيَةِ ثَقَافِيَّةٍ صَحِيحةٍ.

## ٣- المصالح الوهمية

### تمهيد:

إنَّ الْوَهْمَ أَسَاسُ الشَّرِكِ، وَكُلُّمَا ازْدَادَتْ قُوَّةُ الْوَهْمِ وَالْخِيَالِ وَنَشَطَتْ لَدِيِّ الْإِنْسَانِ اتَّسَعَ أُفْقُ اعْتِقَادِهِ فِي الْأَصْنَامِ وَبِرْكَاتِهَا وَآثَارِهَا إِلَى حَدٍّ يُضْعِفُ الْمُوْجَدَاتِ الْفَاقِدَةِ لِلشُّعُورِ وَالْعُقْلِ، الْمُوْجَدَاتِ الْجَامِدَةِ وَالتَّافِهَةِ وَالْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْخَشْبِ عَلَى جَنَاحِ الْوَهْمِ وَالْخِيَالِ وَيُظِيرُ بِهَا بِشَكْلٍ يَنْسَبُ لَهَا كُلٌّ قَدْرَةٍ وَيَتَذَلَّلُ لَهَا كَيْ يَنْعَمُ بِبِرْكَتِهَا! أَجَل، إِنَّ الْمَصَالِحَ الْوَهْمِيَّةَ فِي الْأَصْنَامِ عَامِلٌ آخَرُ مِنْ عَوَالِمِ الشَّرِكِ عَلَى مِرَّ التَّارِيخِ، وَبِهَا التَّمَهِيدُ نَتَأْمِلُ خَاشِعِينَ فِي الْآيَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ التَّالِيَّةِ:

١- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَاعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى عَنِّي شُرْكُونَ ﴾. (يونس / ١٨)

٢- ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرِّفُونَ ﴾. (يس / ٧٤)

٣- ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لَيْكُونُوا لَهُمْ عِزًا ﴾. (مريم / ٨١)

٤- ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَيْنَا رُلْفَيْ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾. (الزمر / ٣)

### شرح المفردات:

«شفعاء»: جمع (شفع) من (الشفع) ويعني كما يقول صاحب (مصاحف اللغة): ضم شيء

إلى شيء آخر وكما يقول صاحب المفردات: يعني ضم شيء إلى مثيله، وأمّا صاحب (مقاييس اللغة) فإنه يذهب إلى أنّ أصله هو المقارنة بين شيئين.

هذه التعبير تعود كلّها إلى معنى واحد تقربياً ومن ثمّ أطلق على حالة اندماج شخص قوي ومحظوظ إلى شخص ضعيف من أجل إنقاذه وإعانته، وقد ورد بهذا المعنى في آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية، كما جاء عدد (الشفع) بمعنى (زوج) في قبة (الوتر) بمعنى الفرد.

«زُلْفَى»: من (الزلف) ويعني في الأصل القرب والمنزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوة لما للخطوات من تقريب للهدف، وقد استعمل في آيات البحث بمعنى القرب المعنوي الذي توخّاه المشركون من عبادة الأصنام إلّا أنّ بعض المحققين يعتقد بأنّ (زُلْفَى) أكمل من معنى القرب فهي المرتبة العالية من معنى القرب في الحقيقة<sup>١</sup>، ولكنّ رأي بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الاستعمال، ويطلق هذا اللفظ على الساعات الأولى من الليل كما في قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ وَرُلْفًا مِنَ اللَّيلِ». (هود / ١١٤)

## جمع الآيات وتفسيرها

### الأصنام شفاعونا؟!

تشير آية البحث الأولى إلى إحدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين في الأصنام حيث تقول الآية: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْعَمُونَ هُؤُلَاءِ شُفَاعَوْنَا عِنْدَ اللَّهِ». <sup>٢</sup>

الكلام في أنّ هؤلاء كيف اعتقادوا بأنّ هذه الموجودات الجامدة لها الشفاعة عند الله؟ للإجابة على السؤال قال بعض العلماء: إنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ عبادة الأصنام بمنزلة عبادة الله ووسيلة للتقرّب إليه، وقد ظهر هذا الإعتقاد من طرق مختلفة. وكانت فتاة تقول: لسنا أهلاً لعبادة الله دون واسطة، لأنّه عظيم جداً ولذا نعبد الأصنام

١. التحقق في كلمات القرآن الكريم.

كمظهر وصورة عن الملائكة لكي تقرّبنا إلى الله، بينما قالت فئة أخرى بأنّ الأصنام هي القبلة لنا لدى عبادة الله كما يستقبل المسلمين القبلة عند العبادة، وقد اعتقدت فئة أخرى بأنّ كلّ صنم يقترب به شيطان وكلّ من يعبد الصنم ويؤدي حقّ عبادته فإنّ ذلك الشيطان يلبي حوائجه بأمر الله وإن لم يعده فإنّ الشيطان يسيء إليه<sup>١</sup>، وإلى ما شاكل من هذه الخرافات والأوهام.

٤٥٦

وتشير الآية الثانية إلى عقيدة أخرى عند المشركين حيث يقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لَعَلَّهُمْ يُصَدِّرُونَ»، وذلك من أجل أن تبادر إلى حل مشاكلهم وإعانتهم في الإبتلاءات والحروب والأمراض، وتدفع عنهم خطر الجوع والقطح والجفاف، وتدفع عنهم في الآخرة؛ ولما من خطأ فادح؟! فإنّ القضية كانت معكوسه حيث يهرون لإنقاذ أصنامهم من الأخطار ويحفظونها من الأعداء والتاهبين! كما نقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام: «قَالُوا حَرَّقُوهُ وَانْصُرُوا أَهْلَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلِمِينَ» (الأنباء / ٦٨)

إنّ اعتقادهم بأنّ الأصنام تحميهم وتعينهم لم يكن سوى خيال ووهم قطعاً، ولهذا الإعتقاد سبب في الإنحطاط الفكري والتخلّف الثقافي، وهذا الأمر هو أحد مصادر الشرك على مرّ التاريخ.

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المضمون بشكل آخر حيث يقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لَيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً»، وليس المراد من العزة هو السمعة، بل اكتساب القوة والنصر والشفاعة من عند الله، وكان هذا أيضاً وليداً لتوهّمهم، ولذا نلاحظ في هذه الآية من سورة مريم نفسها بأن حجب الأوهام حينما تزول وينتبه العقل فإنّ المشركين يدركون خطأهم الفظيع وسرعان ما ينكرون عبادة الأصنام وينقمون عليها، كما ورد فإنّ المشركين يقولون يوم القيمة: «وَاللَّهُ رَأَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» (آلأنعام / ٢٣).

٤٥٧

وأخيراً فإن الآية الرابعة والأخيرة بعد الإعلان عن: «أَلَا إِلَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ» فهي تهدى المشركين وتضيف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا يُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ بِرُبُّنَا إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتِلُفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ».١

## توضيحات

### ١ - منشأ الاعتقاد بالشفاعة

يعجب كل عاقل عندما يواجه قضية الشرك لأول مرة، فكيف يمكن أن يخضع إنسان عاقل ذو شعور لتمثال حجري أو خشبي قام بصنعه بيده؟ فلو كان يمتلك قليلاً من العقل لكان هذا غير مقبول لديه، ولو عرفنا أسباب ذلك لوجدنا أن القضية ليست بسيطة كما نرى، فإن مجموعة من الأوهام والسفسطة والخيال والعادات طرحت كأدلة عقلية وخدعت المشركين.

يقول الفخر الرازي في ذيل تفسير الآية ١٨ من سورة يونس:

فيمن قالوا في الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله وذكروا فيه أقوالاً كثيرة.

١ - إن قسماً من عبادة الأوثان اعتقادوا أن المدبر لشؤون أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، ولا نهم لا يصلون إلى تلك الروح صنعوا لها صنماً معييناً واشتغلوا بعبادته، وكل قصدتهم هو عبادة تلك الروح، ثم اعتقادوا أن تلك الروح عبد للإله الأعظم ومشتغل بعبوديته.

٢ - والقسم الآخر كانوا يبعدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لئن رأوا أنها تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها وغضتهم عبادة تلك الكواكب.

٣ - أما القسم الثالث، فقد وضعوا طلاسم معينة على تلك الأصنام وأخذوا يتقرّبون إلى

١. قال كثير من المفسّرين بأن «والذين» مبدأ وخبره «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» وجملة «مَا نَعْبُدُهُمْ» فيها محدود هو منزلة الحال والتقدير «قائلين مَا نَعْبُدُهُمْ...».

الأصنام بواسطة هذه الطلاسم «والطلسم» نوع من السحر، ويقول بعض المفسرين أنّ «الطلسم» عبارة عن أشكال ورسومات يعتقدون بأنّها تمثل سلطات سماوية اخترطت مع الأرض، وأصبحت مصدراً لآثار عجيبة وغريبة! وهذه النقوش مفضلة على أشياء مختلفة، حيث يعتقدون بأنّها وسيلة لدفع الموجودات المؤذية وإبعاد أذاها عنهم<sup>١</sup>

٤ - البعض منهم صنعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنّهم متى ما اشتبهوا بعبادة هذه التماثيل فإنّ أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى.

٥ - آخرون اعتقدوا أنَّ الإله نور عظيم وأنَّ الملائكة أنوار فوضعوا على صور الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صور الملائكة صوراً أخرى.

٦ - لعلَّ من بين عبدة الأصنام طائفة من الحلوية حيث يعتقدون أنَّ الله يحل في الأجسام الشريفة ولذلك فأنهم دأبوا على عبادة هذه الأجسام<sup>٢</sup>.

ويقول مفسر آخر: إنَّ أول ما عُبدت الأصنام في قوم نوح عليهما السلام وذلك أنَّ آدم كان له خمسة أولاد صالحاء وهم «ود، وسوان، ويعوث، ويعوق، ونسر» فمات «ود» فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره في أرض بابل لا يكادون يفارقونه فلما رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم: هل تريدون أن أصنع لكم ما إن نظرتم إليه ذكر تموه؟ قالوا: نعم، فصنع لهم تمثلاً.

وهكذا كلّما مات واحد من أبناء آدم صنعوا له تمثلاً وسمّوه بإسمه، وبتقادم الزمان وبنسيان الأجيال أعاد الشيطان قائلاً: إنَّ أجدادكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها، فأرسل الله إليهم نوح عليهما السلام فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك...<sup>٣</sup>.

١. دائرة المعارف دهخدا ج ٣٢، ودائرة المعارف مصاحب، ج ٢، مادة (طلسم).

٢. التفسير الكبير، ج ١٧، ص ٦٠٠ (مع الإختصار اليسير).

٣. تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٢٦ (باختصار).

## ٢- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان

إنّ أول من أقام عبادة الأصنام بين العرب هو عمرو بن لحيٍ من قبيلة خزاعة، فقد خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مأب من أرض البلقاء رأهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدتها، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسir به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له (هبل)، فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت هناك صخرة يلي عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو: إنّه لم يمت ولكن دخل في الصخرة وأمرهم بعبادتها...<sup>١</sup>.

ونقل بعض آخر، إنّ ظهور عبادة الأصنام ابتدأته جماعة كانت تنزه الله إلى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً أجمل للتقرّب إليه! أو أنها اعتقدت إنّ الإله عندما يخفي عن الحسّ والعقل فعبادته غير ممكنة، ولذا يجب التقرّب إليه من خلال المحسوسات!

وقال بعض المؤرّخين:

«ويزعمون أنّ أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل إنّه كان لا يطعن من مكة ظاعن منهم، حتى ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطاوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم<sup>٢</sup> حتى خلق الخلوف...».

كما ورد في تفسير الميزان:

وقد كان عبادة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ

١. تفسير روح البيان، ج ٤، ص ٢٦ (مع اختصار يسير) وقد ذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٤٨ بعد الروايات: ١، ٧، ٨ قصة ظهور الشرك في قوم نوح هذا وقد ورد في (بلوغ الإرب ج ٢، ص ٢٠٠) قصة عمرو بن لحي وهديته الخبيثة التي جاء بها من الشام كما نقل ابن هشام في السيرة النبوية ج ١، ص ٧٨. موضوعاً قريباً من هذا المضمون.

٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٧٩.

الأرباب وهو الله سبحانه ويبولون: «إِنَّا عَلَىٰ مَا بَنَاهُ مِنْ أَوْاثِ الْبَشَرِيَّةِ مَادِيَّةٌ وَقَدَارَاتٌ  
الذُّنُوبُ وَالآثَامُ لَا سَبِيلٌ إِلَىٰ رَبِّ الْأَرْبَابِ لطَهَارَةِ سَاحَتِهِ وَقَدْسَهَا وَلَا نَسْبَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ.  
فَمِنْ الْوَاجِبِ أَنْ تَنْقُرِّبَ إِلَيْهِ بِأَحَبِّ خَلَاقِهِ إِلَيْهِ وَهُمْ أَرْبَابُ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ فَوْضَ اللَّهُ  
إِلَيْهِمْ أَمْرَ تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، وَتَنْقُرِّبُ إِلَيْهِمْ بِأَصْنَامِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ وَإِنَّمَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ لِتَكُونَ شَفَاعَةً  
لَنَا عِنْدَ اللَّهِ لِتَجْلِبَ إِلَيْنَا الْخَيْرَ وَتَدْفَعَ عَنَّا الشَّرَّ فَتَقْعُدُ الْعِبَادَةُ لِلْأَصْنَامِ حَقِيقَةً، وَالشَّفَاعَةُ لِأَرْبَابِهَا  
وَرِبِّمَا نَسِيَتْ إِلَيْهَا».<sup>١</sup>

وبهذا أليسوا معتقداتهم الخاطئة والخرافية ثواباً منطقياً في الظاهر، وظهر الضلال على  
صورة الهدى واحتللت وساوس الشيطان موقع المنطق والبرهان.

٤٥٦

### ٣- عوامل أخرى للشرك وعبادة الأصنام

في الحقيقة أن الشرك وعبادة الأصنام قضية معقدة وليس وراءها عامل واحد كسائر  
القضايا الاجتماعية المعقدة، بل هناك عوامل مختلفة تعاضدت على حدوثها.  
فمثلاً نجد أنّ أقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهناك جماعة عبدت النار،  
وجماعات عبدت الأنهر الكبيرة كالنيل في مصر، والكنج في الهند، ويعني ذلك أنّ كلّ ما  
فيه الخير والبركة، يكون مقدساً، وكانت تتضاعف قدسيتها تدريجياً إلى حد اعتبارها آلهة!  
وبتعبير آخر: كانوا يتبعون في عالم الأسباب وينسون الله وهو (مسبب الأسباب)،  
لافتقادهم البصيرة النافذة التي تجتاز الأسباب لتصل إلى خالق الأسباب وانتهى هذا بهم  
إلى عبادة الأصنام.

٤٥٧

١. تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٧ ذيل الآية ١٨ من سورة يونس.



## ٤ و ٥ - عاملٍ التقليد والاستعمار

### تمهيد:

لا شكّ في أنّ عامل التقليد من العوامل المؤثرة في توارث عبادة الأصنام جيلاً بعد جيل بل وانتشارها في العالم، ويستند القرآن الكريم إلى ذلك مراراً ويطرحه تحت عنوان الدليل الوحيد الذي يتمسّك به مشركو العرب.

إنّ العيش في أجواء الشرك واحترام الأجداد والأسلاف والتآثر بالتلقين في مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على إبراز عمل خرافي وخاوٍ تماماً وهو عبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب الفاقدة لكلّ شيء بشكل منطقي ووجيه بل ومقدس.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل خاسعين في الآيات التالية:

١- «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَارِهِمْ مُمْهَدُونَ \* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيرَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُمْقَنَدُونَ». (الزخرف / ٢٢ - ٢٣)

٢- «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَظَلَّ لَهَا عَاكِفِينَ \* قَالَ هُلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ \* أَوْ يَنْعَمُونَكُمْ أَوْ يَضْرُرُونَ \* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ». (الشعراء / ٧١ - ٧٤)

٣- «قَالُوا أَجِئْنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا مَنَعَنِي لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ». (يونس / ٧٨)

٤- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْيَنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ». (البقرة / ١٧٠)

٥- «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَسْتَكِنُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُونَ آبَاؤُكُمْ». (سورة سباء / ٤٣)

### شرح العفردات:

«صنم»: كما يقول الراغب في المفردات: تمثال من فضة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقربون به إلى الله، وفي (السان العربي): هذا اللفظ أخذ في أصله من (شمن) وهي كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية.<sup>٢</sup>

وتعتقد جماعة من اللغويين أن الفرق بين (الصنم) و(الوثن) هو أن صنم يطلق على أصنام لها شكل وصورة خاصة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصة أطلق عليه (وثن). «أب»: ويعني الوالد ويطلق أحياناً على السبب في حدوث شيء أو (يقوم باصلاحه أو إظهاره) إلا أن هذه المعاني لها خصائص كنائية في الظاهر، وقد جاء في (مقاييس اللغة): إن هذا اللفظ يدل في أصله على التربية والتغذية وبما أن الوالد يغذى الإبن فقد أطلق عليه هذا اللفظ.

ونقرأ في «كليات أبي اللقاء» إن أصحاب الشرائع السابقة كانوا يطلقون (أب) على الله لأنّه السبب الأول للخلق، ثم اعتقد الجهلاء والغافلون بأنّ (أب) هنا تعني الولادة (وبذلك سلكوا طريق الكفر).

وفي كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) وبعد اعتبار الأصل في هذه المادة هو التربية والتغذية ورد: بلحاظ هذا المفهوم أن للأب مصاديق كثيرة مثل الله المتعالي، الوالد، النبي، المعلم، الجد، العم وغيرها (ولذا فإن «أب» له مفهوم أوسع من معنى الوالد).

١. وهناك آيات عديدة تتضمن مضمون هذه الآيات نشير إلى مواضعها: الأعراف، ٧٠ و ١٧٣؛ إبراهيم، ١٠.

٢. ورد لفظ «شمن» في المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم (راجع دائرة معارف دهخدا وقاموس معین وغياث اللجة).

## جمع الآيات وتفسيرها

### عبادة الأصنام دين أجدادنا!

إعتقدت طائفة من مشركي العرب أنّ الملائكة بنات الله وعكفت على عبادتها، والآية الأولى في هذا البحث تردّ على هذا الفكر الجاهلي من جوانب مختلفة فتخاطبهم تارةً: إنكم تفرون بالوليد إذا كان ذكرًا ولكن تحزنون إذا كان أنثى فكيف تتسبون إلى الله البنات؟ (هذا الجواب يناسب طبعاً - درجة فهمهم وأفكارهم) وتذكر تارةً أخرى حجتهم الواهية لهذه العبادة وترددّهم وتصل إلى هذا الدليل أخيراً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهَدُّدُونَ»<sup>١</sup> ولكن القرآن يخاطب النبي الأكرم ﷺ مباشرةً ويقول: إن التقليد الأعمى هذا والإتباع اللامشروع واللامقيد يمثل عقيدة سلفية وهذه الأذعار الواهية التي لا أساس لها لا تتحضر في مشركي العرب فحسب بل: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَزِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفِّهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ».

وبذلك أشاروا إلى أنّ أحد العوامل الرئيسية في إنتشار خرافة الشرك جيلاً بعد جيل هو التقليد الأعمى واللامشروع واللامقيد والتحجيم على العقل والإدراك وعدم بذل جهود في التحقيق والتدبر والإسلام أمام خرافات الأسلاف.

والاستناد إلى عنوان (مترفون) كما يقول بعض المفسّرين فيه إشارة إلى أنّ التشبيث بالدنيا والإستمتاع باللذائذ المادية والمتنوعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والاستدلال هو السبب لهذا التقليد الأعمى القبيح، فلو أنّهم تخلّصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة، ولهذا يقول النبي الكريم ﷺ: «حَبَّ الدُّنْيَا رَأْسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ»<sup>٢</sup>.

١. «أُمَّةٌ» في الآية - كما يعتقد جمع من المفسّرين - عبارة عن المنهج المتفق عليه لدى طائفة وقد فسرّها بعض المفسّرين بمعنى الجماعة والفتنة، والمعنى الأوّل هو المشهور وإن وردت (أُمَّةٌ) في آيات أخرى بمعنى الجماعة وقد تأتي بمعنى المدّة الزمنية.

٢. التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٠٦، كما توجد إشارة إلى هذا الأمر في تفسير روح البيان وتفسير الميزان في ذيل آية البحث.

والجدير ذكره أن ذيل الآية الأولى تنقل عنهم قولهم: «إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهَتَّدُونَ» وقولهم في ذيل الآية الثانية «إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» وهذا الاختلاف في التعبير قد يكون من قبيل (العلة والمعلول) بمعنى أنهم ادعوا إننا نقتدي بأسلافنا لأن ذلك هو طريق الهدى والوصول إلى الحق!

على كل حال فإن القرآن الكريم في طول هذه الآيات يرد على هذا الفكر الباطل بشكل منطقي جميل ومحكم وينقل عن الأنبياء السابقين قولهم للمشركين المقلدين الخرافيين: «قَالَ أَوْلَوْ جِئْشُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (الزخرف / ٢٤).

وللتقليد - كما سنبين - أنواع وأقسام، فبعضه منطقي ويكون سبباً لانتقال العلوم من جيل إلى جيل آخر، وبعضه خرافية وحمق وسبب لانتقال الخرافات والقبائح ولكل ذلك علامات سوف نشير إليها لاحقاً.

٤٥٣

الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلقة بمواجهة إبراهيم عليه السلام مع عبادة الأصنام في بابل حيث سألهما بمنطقه الرصين الصريح: ما تعبدون؟ فكان جوابهما: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّهَا عَاكِفِينَ».

وبهذه الكلمات لم يقرروا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به، وقد سد إبراهيم عليه السلام الطريق عليهم من خلال سؤال واحد: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْعَوْنَكُمْ أَوْ يَضْرُرُونَ»، أي أنها (الأصنام) إن لم تتنفس ولم تضر فلا بد من أن تسمع نداء عبادها على الأقل وإلا لا معنى لعبادتها.

ولكن أولئك الذين لم يجرأوا على الادعاء بأن الأصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم وتضرّ بهم، كما أنهم لم يمتلكوا دليلاً على إثبات ضرّها ونفعها لتبصير عملهم، اضطروا للتمسّك بأسلافهم والتشبّث بالتقليد الأعمى وقالوا: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذِيلَ يَفْعَلُونَ».

وهذا الجواب وإن كان مخجلاً إلا أنهم لم يملكو شيئاً ليقدموه.

وفي طول هذه الآيات يرد لهم إبراهيم عليه السلام بمنطق رصين: «**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**\* **أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ**\* **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِإِلَّا رَبِّ الْعَالَمَيْنَ**\* **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي**\* **وَالَّذِي هُوَ يُطِعِّمُنِي وَيَسِّيرُنِي**\* **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيَنِي**\* **وَالَّذِي يُمْسِيَنِي ثُمَّ يُحْسِنُنِي**\* **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي حَطِّيَّتِي يَوْمَ الدِّينِ**». (الشعراء / ٧٥ - ٨٢)

أي أنه أهل للعبادة فهو المبدىء لكل الخيرات والبركات، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقدة للقيمة.

## ٤٥٦

وتنتقل الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها انعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: «**قَالُوا أَجِئْنَا لِتَلْقِيَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ**»<sup>١</sup> وعليه «**وَمَا تَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**».

أنهم استندوا - في الحقيقة - إلى هذه النقطة فقط لإثبات صحة مسلكهم وقداسته وهي أن هذا هو طريق الأسلاف ودينهم وعادتهم، ولكي يتهموا موسى وهارون بأنهما يتآمران قالوا: إنكم تبغيان الحكومة عن طريق الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا نسمح بذلك! ويبدو أن هذا الكلام أقى من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون للتوحيد بطريقين شيطانيين:

أحدهما: هو إثارة العواطف لدى عامة الناس الجاهلين وذلك بالتحذير من أن دين أسلافهم في خطر، والآخر: هو إثارة سوء الظن فيهم بوصف دعوة موسى وهارون أنها تجري وفق مخطط مسبق للوصول إلى الحكم وإلا فإنها لا واقعية لها.

وقد استخدم هؤلاء الجبارية والطغاة هذين الطريقين لاستغفال الناس ومواصلة حكمهم

١. «لتلقينا» من «لقت» وهو الصرف عن الشيء أو الإلتفات إلى الشيء لو تعدّت به (من) فإنّها تعني الإنصراف وبـ(إلى) فإنّها تعني (التوجه).

الاستبدادي، كما يلاحظ في الآية حيث جاء التعبير أكثر صراحة: «قَالُوا إِنْ هَذَا نَسَاحَرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَدْهَبَا بِطَرَيقَتِكُمُ الْمُشْلَّى» (طه / ٦٣).

٤٥٥

### الجواب الدائم للمشركيين:

إن الآية الرابعة تتقل هذا المضمون على صورة إجابة دائمة من قبل مشركي مكة حيث تقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَبِعُ مَا أَفْيَانَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا».

وهذا في الحقيقة هو منطق كل معاند لجوج حيث يتولّ بالتقليد حينما يعجز عن كل شيء، التقليد الأعمى للأسلاف الضالّين والجاهلين والتفاخر بذلك دون امتلاك أي جواب تجاه الأدلة المحكمة التي أقامها الأنبياء لإثبات حقّانية دعوتهم وبطلان الشرك وعبادة الأصنام.

والقرآن الكريم يردّ هذا المنطق بجملة قصيرة واحدة حيث تقول في طول هذه الآية بشكل سؤال: «أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

أي أنّ تقليدهم لو كان كتقليد الجاهل للعالم لكان مقبولاً، ولكنّه ليس كذلك بل هو تقليد جاهلٍ لجاهلٍ آخر، وابتاع ضالٍ لضالٍ آخر، فمثلهم كالآعمى الذي يقوده أعمى آخر. إنّ هذه الآية وما سبقها من آيات تتحدث - كما يفهم من سياقها - عن مشركي العرب، وما احتمله بعض المفسّرين من أنّها تقصد اليهود وما ورد عن ابن عباس بشأن سبب نزولها يُعد أمراً بعيداً.

٤٥٦

١. في الآية جملة مقدرة معناها: «أَيْتَبِعُونَ مَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

تحدّث الآية الخامسة والأخيرة عن مشركي العرب أيضاً حيث كانوا: «وَإِذَا تُشَتَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْسَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ». والملفت للنظر أنَّ القرآن الكريم يقول: إنَّهم كانوا يواجهون (الآيات البينات) بمنطق (التقليد) والاستهزاء بالنبي الأكرم ﷺ فكانوا يدعونه بكلمة «رجل» ولكي يستميلوا عامَّة الناس إليهم يخاطبونهم بـ(أَسْلَافَكُمْ)، بدلاً من (أسلافنا) ليثيروا عصبيتهم في مواجهة النبي الأكرم ﷺ.

٤٥٦

ومن مجموع هذه الآيات نستنتج أنَّ ظاهرة التقليد الأعمى تعدّ من العوامل المؤثرة في تناقل الإعتقاد بالصنم في العصور والقرون السالفة، ولم يكن الرسول الكريم ﷺ الوحيد من الأنبياء الذي تعرض لهذا الأسلوب عندما صدَّ بدعوته ونهض لمقارعة الشرك وعبادة الأصنام، فقد واجهه قومه بحججة تقليد الآباء والأجداد ومن سلفوا، وقد جاء هذا المعنى في الآية ٤٣ من سورة سباء والآية ٢٢ من سورة الزخرف بل إنَّ أنبياءً ورسلاً أمثال موسى عليه السلام، كما ورد في الآية ٧٨ من سورة يونس وابراهيم عليهما السلام، وكما ورد في الآيات ٧٠ إلى ٧٤ من سورة الشعراء وهود عليهما السلام، وكما ورد في الآية ٧٠ من سورة الاعراف وصالح عليه السلام، وكما ورد في الآية ٦٢ من سورة هود تعرضوا إلى مثل ما تعرض له الرسول ﷺ حيث يواجههم أقوامهم بحججة تقليد الأسلاف والسير على عاداتهم التي ألغوها منهم.

وهذه الحجة الواهية والمزيفة تثار في أو ساط جميع الأقوام وعلى مر العصور، فبعدة الأصنام وفي كافة أنحاء العالم ومن أجل مواجهة الأنبياء والرسل وحملة راية التوحيد، فإنهم يشيرون مثل هذه الحجة الجاهله، وقد أشارت الآية ٢٣ من سورة الزخرف إلى هذا المعنى.

ومن الواضح أنَّ التقليد الأعمى لم يكن العامل الأول لظهور الشرك، بل يشكل عاملاً لاستمراره وانتقاله من جماعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل.

٤٥٧

توضیحات

## ١- التقليد، عامل للتقدير أم للانحطاط؟

مّا لا شكّ فيه أنّ التقليد إذا تمثّل في اتّباع وإقتباس عديمي الاطلاع من العلماء فإنّه عامل على إيجاد حركة تكاملية في المجتمعات البشرية وأساساً نجد أنّ العلوم والأفكار والآداب والعادات البنّاءة، كما أنّ الشؤون التربوية والإنسانية قد انتقلت من جيل إلى جيل عبر هذا الطريق.

إن الأطفال يكتسبون جل معلوماتهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريرياً، كما أن الصناعات والحرف والفنون توسيع وتكامل بهذا الطريق أيضاً، ولو لا روح التقليد الإيجابية والبناءة لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبداً.

إن تقليل «الجاهل للجاهل» أو «العالم للجاهل» يكون سبباً لشيوخ الفساد والانحراف والأخلاق الفاسدة، والخرافات، والانحرافات الفكرية من قوم إلى قوم أو جيل إلى جيل، ومثل ذلك كمثل الماء الصافي والذي يمثل عصب الحياة، فإذا ما تلوث بالأمراض والميكروبات فسوف يصبح وسيلة لانتشار الميكروبات والأمراض والأوبئة.

وكثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والتعصب، فالذين لا يتحملون جهود التحقيق لما فيه من كسل يقبلون على التقليد، والمعاندون المتعصّبون الذين لا يهتمون للبحث عن نقاط القوّة لدى الأقوام الأخرى والإذعان لها، يألفون نقاط الضعف الموجودة في مجموعتهم، وقد كان هذا النمط من التقليد الأعمى والمعتّصّب والرجعي هو العامل المهم لشيوخ الشرك وعبادة الأصنام على مرّ التاريخ.<sup>١</sup>

୧୮

٢- تزیین الشیاطین وهوی النفس

يستخدم من الآيات القرآنية أنّ (اتباع الهوى) كان من عوامل الشرك أيضاً، كما نقرأ في

١. هناك بحوث حول أنواع التقليد وشرائط التقليد الإيجابي ودوافع التقليد الأعمى وشرح كلمة (تقليد) في الجزء الأول من هذا التفسير في موضوع (حجاب التقليد)، ج ١، ص ٢٧٣.

قصة السامر ي جوابه حينما سأله موسى عليه السلام عن الدافع لعمله بأنه لا حظ أموراً لم يلاحظها غيره فقال: أخذت بعض آثار الرسول وأقيتها خارجاً وأقبلت على الشرك: «وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي». .

كما يستفاد من الآيات القرآنية أن تزيين الشيطان ووساؤسه هي العوامل الممهدة للشرك أو استمرارها، كما نقرأ في قصة ملكة سبا أن الهدهد عندما أخبر سليمان عليه السلام عن شرك قوم سبا قال: «وَجَهْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِشَمْسٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ». (النمل / ٢٤)

وما ينبغي ملاحظته هو أن هوى النفس ووساؤس الشيطان تظهر في إطار العوامل السابقة كعبادة الأوهام (التقليد الأعمى) (العصبية الوجوجة) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل.

٤٥٦

### ٣- عوامل الاستضعاف والاستعمار الفكري

يعتبر الشرك وعبادة الأصنام من الوسائل التي استخدمها المستكرون والمستعمرون بشكل دائم لأنّه:

أولاً: إن البسطاء من الناس يعتبرون وسائل طيعة للمستكرين، ولذا يكون التحرّك الاستعماري دائماً باتجاه الجهل والغفلة في أوساط المستضعفين، ويسعى باستمرار إلى صدّ الناس عنوعي واليقظة والعلم والفكر وغلق أي نافذة للتحقيق في وجوههم وإغراقهم في التقليد الأعمى الذي ينشأ منه الجهل المطبق كما يقول القرآن عن فرعون: «فَاسْتَخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ». (الزخرف / ٥٤)

وبما أن الشرك قائم على عبادة الأوهام والظنون فإنه عامل مؤثر في استغفال الجماهير، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكرين.

ثانياً: يعتبر الشرك عاملاً من عوامل الاختلاف والتفرّق فيوزع لكلّ قوم بأن يتّخذوا

معبوداً لهم، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس، ومجموعة لعبادة القمر، ويشغل مجموعة بـ(هيل)، ومجموعة بـ(اللات) وـ(العزى)، حتى انقسم المجتمع العربي الصغير في الجزيرة إلى مئات المجموعات بسبب عبادة الأصنام المختلفة، على عكس التوحيد الذي يمثل حلقة الوصل بين القلوب ورابطًا وثيقاً بين الأفكار.

ونعلم أيضاً أنَّ الاختلاف ما دام قائماً فإنَّ المستعمرات في راحة بال، وأنَّ مقوله (فرق تسد) تُعد من أقدم المبادئ الاستعمارية، فلا عجب في أن يكون الفراعنة ونمرود وأبو سفيان وأمثالهم من أنصار الشرك وعبادة الأصنام.

ثالثاً: يهدف المستكبرون دائمًا إلى أن يخضع الناس لهم وكأنَّهم آلة ويتلقون أوامرهم كأوامر مقدسة لا نقاش فيها.

ومن الواضح أنَّ من يسجد للحجر والخشب يكون أكثر تقبلاً للآلهة البشرية، ولذا أخذ فرعون ينادي في مصر (أنا ربكم الأعلى) واعتبر نفسه أعلى من الآلهة كلها.

بناءً على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الأفكار الاستعمارية مع الشرك وعبادة الأصنام، وأن يكون خط الأنبياء الذي يمثل خط القضاء على الاستعمار والاستضعفاف هو خط التوحيد واليقظة والوعي، لنتذكّر مرّة أخرى الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام الذي قال فيه: «إِنَّ بَنِي أُمَّةٍ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَعْلِيمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَطْلُقُوا تَعْلِيمَ الشَّرِكِ لَكِي إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرُفُوهُ»<sup>١</sup>.

إنَّ هذا المضمون وان لم يصرّح به في الآيات القرآنية إلا أنه أشير إليه كما نقرأ في الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَا مُؤْمِنِينَ». (سبأ / ٣)

#### ٤ - كلمة أخيرة حول عوامل الشرك

من خلال البحوث التي أوردناها تتّضح هذه الحقيقة وهي: إنَّ الشرك وعبادة الأصنام

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٤١٥.

كثيراً الطواهر الاجتماعية لا تنشأ من عامل واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت على ايجاده، من بينها.

الميل إلى المحسوسات والإستئناس بها والمطالبة بـإله محسوس.

واللجوء إلى الأوهام في المجتمعات المتخلّفة (الظنّ) بتأثير الأصنام في الشفاعة والعزّة والنصر والتقرّب إلى الله والظنّ بعدم إمكانية عبادة الله بصورة مباشرة ووجوب استخدام الوسائل والظنّ بقداسة التماضيل المصنوعة على هيئة الأنبياء والصلحاء وأوهام أخرى).

وهكذا التقليد الأعمى للأسلاف وعدم الإستعداد للتحقيق في قضيّة المعرفة الإلهية.

كذلك استغلال المستكبرين والمستعمررين للميل إلى الشرك وعبادة الأصنام للوصول إلى أهدافهم الشيطانية، واستغفال الناس كانت عوامل مختلفة سبّبت نشوء فكرة الشرك أو استمراره وبقاءه على طول التاريخ.

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القوية خطّ الأنبياء الذي يدعو البشر من جهة إلى التحرّر من إطار الحسّ وإدراك ما وراء الطبيعة، ومن جهة أخرى يدعوهم إلى عبادة الله مباشرةً والخضوع بين يدي رب الكون كله واللجوء إلى ذاته المقدّسة في كلّ حال والقضاء على الأوهام.

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التقليد الأعمى والإقبال على البحث في عالم الوجود ومعرفة الآيات الإلهية في الآفاق والأنفس.

ومن جهة رابعة يدعو عالم البشرية إلى الوحدة وتحطيم الأصنام المفرقة والتحرّر من نير الإستغلال والاستعمار والغفلة والاستضعفاف.

هذه هي الخطوط العائمة للكفر والإيمان والشرك والتوحيد.

ونختم هذا الكلام بما أورده العلّامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان في ذيل الآيات ٣٦ - ٤٩ من سورة هود تحت عنوان (كيف وجّد الشرك): «اتّضح من الفصل المتقدّم أنَّ الإنسان في مزليّة من تجسيم الأمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوّة فائقة قاهرة والإعتناء بشأنها،

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرّز والإجتناب في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين، فترى فيها من النصب وتماثيل الرجال وتعظيمها واحترامها والمبالغة في الخصوص لها ما يمثل لك وثنية العهود الأولى والإنسان الأولى، على أنّ اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين في شرقها وغربها.

ومن هنا يأتي ديد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظام ونصب أصنامهم وخاصة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم، وكان ربّ البيت في الرومان واليونانيين القدماء - على ما يذكره التاريخ - يعبد في بيته، فإذا مات اتّخذ له صنم يعبده أهل بيته، وكان كثير من الملوك والعظام معبدون في أقوامهم، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام... وهو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظام رجال الدين كبودا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم، واتّخاذهم الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنّهم كانوا يرون أنّهم لا يطلقون بالموت وإنّ أرواحهم باقية بعده، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجوداً وأنفذ إرادةً وأشدّ تأثيراً من شوب المادة ونجحت من التأثيرات الجسمانية والإنفعالات الجermanية، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إلى الله معبد في قوله: «وقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرَكُ وَآهْتَكَ»<sup>١</sup>.

وما جاء في هذا البحث هو بعض عوامل الشرك، ولا بأس من الإشارة أخيراً إلى نقطة تشير العجب ذكرها المؤرّخ الغربي الشهير (ويل ديورانت) في كتابه التاريخي (قصة الحضارة) وأيّده الكثير من الذين سافروا إلى خارج البلاد في هذا العصر بمحاظاتهم في تلك البلدان وهو وجود أصنام كثيرة صنعت على صورة الأجهزة التناصيلية للذكر والأنثى! حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة!

١. تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ (مع التلخيص).

ويكتب: لعلَّ (القمر) هو أُولَّ شيءً كانت له أولوية العبادة، فقد كان الإله المحبوب لدى النساء وعبيده حاميًّا لهم، واعتقدن بأنَّ للقمر حكومة على الأنواء الجوية وينزل هذا الجرم السماوي المطر والثلوج، حتَّى أنَّ الضفادع - كما في الأساطير - تتضرَّع إليه كي ينزل المطر. وبعد التفصيل في هذا المجال وفي عبادة الشمس والأرض والجبال والبحار يضيف: بما أنَّ الإنسان الأوَّل لم يدرك أنَّ حقيقة انعقاد نطفة الإنسان من (الحيمن) و(البوبيضة)، فلذلك كانوا يعتقدون بأنَّ المبدأ الوحيد في وجود البشر هو هذا الموجود العجيب أي (الآلية التناسلية لدى الرجل والمرأة) اعتقدوا وجود روح عجيبة فيهما هي المبدأ لهذا الأثر العجيب، وهذا الأمر كان سبباً في الإعتقاد التدريجي بإلوهيتهم وتحوّلهم إلى عبادة لتماثيل الآلة التناسلية !!

والأعجب أنه يكتب: قلَّما نجد قوماً لا يعبدون هذا الصنم بشكل ما ! .  
وكما أشرنا فإنَّ عبادة الأصنام لا تزال منتشرة في الهند واليابان في الوقت الحاضر.  
ومن هنا يتَّضح جيداً أنَّ الإنسان إذا انحرف عن تعليمات الأنبياء: سيقع في مستنقعات متعرِّفة وسيرتكب أعمالاً مضحكة ومخجلة.

أمّا الموحِّدون ذوو الدين الحقّ والقلب السليم فعليهم أن يشكروا الله كثيراً على تحرّرهم بفضل تعليمات الأنبياء من التلويث بالشرك والسقوط في هذه الأودية الموحشة.



# **أقسام التوحيد**

**١ و ٢ - توحيد الذات والصفات**

**٣ - توحيد العبادة**

**٤ - توحيد الأفعال**



## **التقسيمات الأساسية:**

قرأنا في البحوث السابقة أنّ الأساس في دعوة جميع الأنبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم - هو التوحيد - وقد شرحنا الأدلة عليه من القرآن والمنطق العقلي، وقد آن الأوان هنا لمراجعة الأبعاد المختلفة والفروع المتنوعة والغنية للتوحيد، ومن هنا تتجلى أهمية هذه المسألة.

ومن المعروف لدى علماء العقائد أنّ التوحيد ذو اقسام أساسية أربعة:

- ١ - توحيد الذات (ذات الله واحدة ولا مثيل لها).
- ٢ - توحيد الصفات (صفات الله عزّ وجلّ ترجع كلّها إلى حقيقة واحدة هي ذاته).
- ٣ - توحيد العبادة (تليق العبادة بذاته المقدّسة فقط).
- ٤ - توحيد الأفعال (هو المبدىء لكلّ خلق ونظام الكون وكلّ حركة و فعل في هذا العالم ولا مؤثر في الوجود إلّا الله سبحانه ولا يتناهى هذا مع اختيار الإنسان أبداً وتوحيد الأفعال له فروع أخرى أهمّها:
  - ١ - توحيد الخالقية (الخلق منه فقط).
  - ٢ - توحيد الربوبية (تدبير الكون إليه فقط).
  - ٣ - توحيد المالكية والحاكمية التكوينية.
  - ٤ - توحيد الحاكمية التشريعية والتكنولوجية.
- ٥ - توحيد الطاعة (تجب طاعة أوامره فقط أو أوامر الذين أمر بطاعتهم) ولا شكّ في أنّ أفعال الله لا تنحصر في ما ذكر، ولذا فإنّ فروع توحيد الأفعال لا تنحصر فيما ذكر ولكن هذه الفروع الخمسة هي الفروع الرئيسية.

و ضروري أن نذكر بأنَّ التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمين: التوحيد (الخاص) والتوحيد (العام).

**التوحيد الخاص:** هو فروع التوحيد التي أُشير إليها بصورة إجمالية. أما التوحيد العام فهو عبارة عن:

- ١ - التوحيد في النبوة (فجميع الأنبياء: تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم منهجٌ أساسيٌ واحد، ولذا لا فرق بينهم من حيث الدعوة والمهمة): «لَا نُفُرِّقُ بَيْنَ أَهْدِ مِنْ رُسُلِهِ».
  - ٢ - التوحيد في المعاد (يحشر جميع البشر في يوم واحد ويحضرون محكمة واحدة).
  - ٣ - التوحيد في الإمامة (مبدأ الأئمة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة وهم نور واحد).
  - ٤ - التوحيد في النظم والعدل (القانون الإلهي واحد بالنسبة لجميع البشر).
  - ٥ - التوحيد في المجتمع البشري (الجميع عباد الله ومن أب واحد وأم واحدة لا يختلفون باختلاف اللون والعنصر واللسان وأمثالها ويشكلون مجتمعاً واحداً).
- وبهذه المقدمة نراجع الآيات القرآنية ونبحث حول كل فرع من هذه الفروع بصورة مستقلة.

## تمهيد:

المراد من توحيد الذات - حيالما كان الحديث عنه - هو أنّ ذات الله المقدّسة لا شبيه ولا نظير لها، وهي واحدة لا مثيل لها من أيّ جهة . وبما أنّ الأبحاث السابقة كانت تدور - عادةً - حول محور توحيد الذات وقد أقيمت أدلة مختلفة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التي تمّ تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المضمون، لذا ننصرف عن تكرار البحث بتصدها ونتابع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات، فنتأمل خاسعين أوّلًا في الآيات الآتية:

- ١- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. (الشورى / ١١)
- ٢- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَتَهَوَّعُ عَنْهُمْ يَقُولُونَ لَيْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (المائدة / ٧٣)
- ٣- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ \* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾. (التوحيد / ٤ - ١)

## جمع الآيات وتفسيرها

يامن تعالى عن الخيال والقياس والظنّ والوهّم:

تفسّر الآية الأولى توحيد الذات في جملة واحدة تفسيراً بليغاً ورصيناً غني المعنى حيث تقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ومثل هذا الشيء – بالتأكيد – يكون أعلى من الخيال والقياس والظنّ والوهم، وليس بمقدورنا تصوّر ذاته، لأنّ الأشياء الممكن تصوّرها هي التي لا حظنا أمثالها أو تحصلت بعد الترّكّب والتجزئة، أمّا الشيء الذي ليس له أي مثيل فلا يتناوله الوهم والعقل أبداً، ومعرفتنا تكون بمقدار أنّه موجود ونرى أفعاله وآثاره في عالم الوجود الواسع، ومن هذه الأوصاف ندرك صفاته إجمالياً، ولكن ليس بمقدور حتى الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين أن يدركون حقيقة ذاته.

والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة في سلسلة معرفة الإنسان لله عزّوجلّ والحديث المعروف: «ما عرفناك حقّ معرفتك»<sup>١</sup> المروي عن النبي ﷺ بيان لذروة العرفان البشري بِالله عزّوجلّ.

والدليل على ذلك واضح لأنّه كما ذكر في بحث أدلة التوحيد هو وجود لا متناهٍ ولا نهاية له من كلّ جهة، وكلّ ما سواه محدود ومتناهٍ من كلّ جهة، ولذا لا يمكن قياسه إلى غيره، وبما أنّ وجودنا وعقولنا وأفكارنا محدودة فإنّا لا نصل إلى كُنه تلك الحقيقة اللامحدودة أبداً. استناداً إلى هذا التفسير فإنّ (الكاف) في (ليس كمثله شيء) تكون زائدة وللتاكيد<sup>٢</sup>، أي لا يوجد شيء شبيه له أبداً، نعم يمكن أن يفيض سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته في عالم المكنات ولكن مخلوقاته الممكنة ليست مثله أبداً.

ولكن بعض المفسّرين لم يعتبر (الكاف) زائدة وقالوا: مفهوم الآية هو (لا يوجد مثيل لله) أي أنّ (مثل) هنا تعني (الذات) كما نقول: مثلك لا يسلك هذا الطريق الموعج، أي لا ينبغي لك أن تفعل هذا.

وقال البعض أيضاً: إنّ (مثل) هنا بمعنى الصفات، أي لا يوجد موجود يتّصف بأوصاف الله.

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤.

٢. جاء في تفسير روح المعاني: إنّ بعض المفسّرين اعتبر (مثل) زائدة ولكن أشكال عليه أبو حيّان وقال: الإسم لا يكون زائداً في اللغة العربية أبداً.

و واضح أنّ نتائج هذه التفاسير الثلاثة في بحثنا تكون واحدة وإن كانت تبحث الموضوع من طرق متباعدة.

والجدير ذكره هو أنّنا نقرأ في حديث أنّ رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ و سأله: ما رأس العلم؟ فأجاب ﷺ: «معرفة الله حقّ معرفته وأضاف: أن تعرفه بلا مثال ولا شبه و تعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادرًا أولاً و آخرًا ظاهراً وباطناً، لا كفو له ولا مثل له فذاك معرفة الله حقّ معرفته»<sup>١</sup> ومن الواضح أنّ (حقّ معرفته) هذه نسبية وإلا - كما قلنا - لا يعرفه على ما هو عليه أحد.

## ٣٥٥

في الآية الثانية يعتبر القرآن الكريم القائلين بأنّ الله ثالث أقئوم من الأقائم الثلاثة<sup>٢</sup> كفّاراً: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ».

وي ينبغي الإلتفات إلى أنّ الآية لم تقل: إنّ الذين يعتقدون بالآلهة الثلاثة كفّار، بل قالت: إنّ الذين يعتبرون الله أقئوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثة كفّار، وقد سلك المفسرون في فهم مضمون الآية مسالك مختلفة.

فقال بعضهم: إنّ المراد هم الذين يعتقدون أنّ الله جوهر واحد في الذوات الثلاثة (الأب) و (الابن) و (روح القدس)، ويقولون: إنه واحد في عين تعدد، كما أنّ لفظ الشمس يشمل فرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة.<sup>٣</sup>

وبعبارة أخرى: المراد هو عقيدة (التوحيد في التشليث) القائلة بأنّ الله في عين كونه ثلاثة يكون واحداً (وهذا كلام غير معقول طبعاً لأنّ العدد «ثلاثة» لا يساوي «واحداً» أبداً، إلا أن يكون أحدهما مجازياً والآخر حقيقياً).

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤

٢. «الأنقوم» يعني الأصل والذات وجمعه أقئيم، وهو تعبير يطلقه النصارى على الآلهة الثلاثة في مسألة التشليث.

٣. تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٦٠

وقد جاء في تفسير القرطبي: إن الآية تشير إلى فرق النصارى من الملكية (أو الملكانية) والنسطورية واليعقوبية لأنّهم يقولون: أب وابن وروح القدس إله واحد<sup>١</sup>. ولكن الظاهر أنّه خطأ لأنّهم نسبوا هذه العقيدة إلى جميع النصارى في القول بالتشليل والتوحيد معاً.

والعلامة الطباطبائي عليه السلام يقول: إن ثالث ثلاثة يعني أنّ كل واحد من هذه الثلاثة: (الأب والإبن وروح القدس، هو إله ينطبق على كلّ واحد منها وهي ثلاث ذوات وفي الوقت نفسه ذات واحدة)<sup>٢</sup>.

ولكن الآية تتحدث في الظاهر عن غير هذا كلّه، فالكلام يدور حول الاعتقاد بأنّ الله ذات ثلاثة كفر، أي ليس الإعتقداد بالآلهة الثلاثة موجباً للकفر بل جعل الله تعالى في عرض الموجودات الأخرى واعتباره الثالث من الذوات الثلاثة، وبعبارة أخرى اعتبار (الوحدة العددية) له موجب للکفر (فتاوى ملحقاً).

وقد ورد بيان هذا المعنى بشكل لطيف في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث نقرأ بأنّ أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين في يوم حرب الجمل فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إن الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال: أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم؛ ثمّ قال: «يا أعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال إنّه ثالث ثلاثة؛ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا

١. تفسير القرطبي، ج ٤٤، ص ٢٢٤٦، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في تفاسير أخرى مثل روح البيان والمنار في ذيل آية البحث.

٢. تفسير الميزان، ج ٦، ص ٧٣.

يجوز لأنّه تشبيه وجّل ربّنا وتعالى عن ذلك وأمّا الوجهان اللذان يشتبان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبيه كذلك ربّنا؛ وقول القائل: إنّه عزّوجلّ أحدٌ المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا هم كذلك ربّنا عزّ وجّلّ<sup>١</sup>.

القسم الثالث والأخير عبارة عن سورة التوحيد التي ترسم وحدانية الله بأروع الصور وتتضمن كلاماً جاماً ينفي تثليث النصارى والثنوية (عبادة الإثنين) لدى المجوس وشرك المشركين، فنقول أولاً: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وهو تعبر بدل على أنّ أسئلة مختلفة قد طرحت على النبي الإسلام ﷺ حول المعبود الذي يدعوههم إليه، فامر أن يشرح لهم جميعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل القصيرة المركزة المعنى.

«أحد»: وأصلها (وَحْدَة) من (وحدة) إستبدلت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أنّ (أحد) (واحد) بمعنى واحد، وقد أُشير إلى هذا المضمون في بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى الذات التي لا مثيل لها<sup>٢</sup>.

وقد فرق البعض بين (أحد) (واحد)، فقالوا تارةً: إنّ (أحد) من الصفات المختصة بالله لأنّه لا يطلق على الإنسان وغيره، أمّا (واحد) فأنّه ليس كذلك.

وقالوا تارةً أخرى: إنّ (واحد) يستعمل في الإثبات والنفي ولكن (أحد) يستعمل في النفي فقط.

وقالوا تارةً ثالثة: إنّ (أحد) إشارة إلى وحدة الذات و(واحد) إشارة إلى وحدة الصفات.

وقالوا رابعة: إنّ (أحد) يطلق على الذات التي لا تتقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن، ولذا لا يمكن عده بعكس الواحد الذي يتصور له الثاني والثالث.

وقالوا خامسة: إنّ (أحد) إشارة إلى بساطة ذات الله عزّوجلّ وهي أي جزء عنه، في حين أنّ (واحد) فيه إشارة إلى وحدانية ذاته قبلة أن يكون له مثيل، غير أنّ تلك التفاسير الخمسة لا تمتلك دليلاً واضحاً، فمثلاً يقال: يوم الأحد، ويطلق الواحد على الله في القرآن: «إِلَهٌ واحدٌ».

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٠٦، ح ١.

٢. المصدر السابق، ص ٢٢٢.

وكمًا أنّ «أحد» استعمل في جملة ثبوتية كما في سورة البحث وآيات قرآنية أخرى<sup>١</sup>. فالصحيح هو أن نقول بأنّ الإثنين يشيران إلى معنى واحد. على كلّ حال، يعتقد بعض المفسّرين أنّ جملة (الله أحد) هي أكمل وصف لمعرفة الله يمكن أن يستقرّ في عقل الإنسان، لأنّ كلمة (الله) تشير إلى الذات التي لها صفات الكمال كلّها وفي (أحد) إشارة إلى نفي الصفات السلبية كلّها<sup>٢</sup>. والقرآن الكريم في إكمال هذه الآيات يقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ» فهو إله قائم بالذات وغني ويقصده كلّ المحتاجين ويتوجّهون إليه.

وكلمة «صمد» كما في (مقاييس اللغة) لها أصلان: أحدهما يعني القصد، والثاني الصلابة والإستحكام، وعندما تستعمل بصدق الله تعالى فإنّ معناها هو الغني المطلق الذي يتوجّه إليه كلّ المحتاجين، وتعني أيضًا الذات الواجبة الوجود والقائمة بذاتها.

ومن الممكن أن يرجع الأصلان إلى أصل واحد، لأنّ الذات المستحکمة والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنية - طبعاً - وموضعاً لتوجّه جميع المحتاجين، وعليه فإنّ (صمد) يمكن أن يكون إشارة إجمالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى، ولعله لهذا الدليل ذُكرت معانٍ كثيرة لـ (صمد) في الروايات الإسلامية حيث يشير كلّ واحد منها إلى إحدى صفات الله<sup>٣</sup>.

على أيّة حال، لا تخفي العلاقة بين هذه الآية والأيّة السابقة لها التي تتحدث عن وحدانية الله، لأنّ واجب الوجود والمعنى وحاجة جميع الموجودات إليه تستلزم أن يكون واحداً وأحداً.

وفي الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة النصارى في الآلهة الثلاثة (الأب، والإبن، والواسطة بينهما)، وتبطل عقيدة اليهود بأنّ عزير ابن الله، كما تبطل

١. الآيات: التوبه، ٦؛ النساء، ٤٣؛ مريم، ٢٦؛ البقرة، ١٨٠؛ الكهف، ١٩؛ وآيات كثيرة أخرى.

٢. تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٨٠.

٣. راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢ من سورة الأخلاص.

عقيدة المشركين العرب في أنّ الملائكة بنات الله، أَجْل، إِنَّهَا وَمِنْ أَجْلِ نَفْيِ هَذِهِ الْأُمُورِ كُلُّهَا وَأَمْثَالُهَا تَقُولُ: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ».

وَمِنْ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنْ يَكُونَ لِلْوُجُودِ الَّذِي لَهُ وَلَدٌ أَوْ وَالْدُّ شَبِيهٍ وَمِثْلٍ، لِعَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ إِنْكَارِ الشَّبِيهِ بَيْنَ الْأَبِ وَالْإِبْنِ، وَعَلَيْهِ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا وَلَا مِثْلًا لَهُ . ولذا يقول بعد هذه الآية: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ».

وَعَلَيْهِ فِإِنَّ الْآيَاتِ الْثَلَاثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَؤَكِّدُ عَلَى أَحَدِيَّةِ اللَّهِ الْمَقْدَسَةِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَدَمِ الشَّبِيهِ وَالْمِثْلِ لَهُ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى تَكُونُ كُلَّ آيَةٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ تَفْسِيرًا لِلآيَةِ السَّابِقَةِ لَهَا، وَبِمَجْمُوعِهَا أَوْضَحَتْ مَسَأَلَةَ التَّوْحِيدِ بِشَكْلِ جَامِعٍ وَتَامٍ وَتَجَسَّدَتْ شَجَرَةُ التَّوْحِيدِ الطَّيِّبَةُ بِكُلِّ أَغْصَانِهَا وَأَوْرَاقِهَا.

٤٥٥

## توضيحات

### ١- المفهوم الدقيق للتوحيد الذات

يذهب الكثير إلى أنّ: معنى توحيد الذات هو أنّ الله واحد وليس إثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليهما السلام في تفسير هذه الآيات، لأنّ مفهومها الواحد العددي (أي أن يتصور الثاني الله عزوجل ولكن لا وجود خارجي له) ومن المسلم أنّ هذا كلام غير صحيح، وال الصحيح هو أن يقال: إنّ توحيد الذات هو أنّ الله واحد ولا يتصور له الثاني، وبعبارة أخرى: إنّ الله لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شيء ولا هو يشبه شيئاً لأنّ هذا الوجود اللامتناهي الكامل هو الذي يتّصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليهما السلام سأله أحد أصحابه: أي شيء أكبر من الله؟ فأجاب: «الله أكبر من كلّ شيء»، ثم قال الإمام عليهما السلام: «فكان ثمّ شيء فسيكون أكبر منه!؟»، فقال: فيما هو (ما المراد من هذه الكلمة)؟ فأجاب عليهما السلام: «الله أكبر من أن يوصف»<sup>١</sup>.

١. معاني الأخبار للصدق، ص ٧، ح ١.

## ٢- مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إنّ توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإنّ مفهومه هو: كما أنّ ذات الله عزّ وجلّ أزلية وأبدية فإنّ صفاتـه كالعلم والقدرة وأمثالها أزلية وأبدية أيضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هذه الصفات ليست زائدة على ذاتـه فلا يوجد فيها عارض ومتروض بل هي عين ذاتـه.

ومن جهة ثالثة لا تفصلـ الصفـات عن بعضـها، أي أنّ علمـه وقدرـته شيء واحد والإثنان عين ذاتـه!

بيان: عندما نراجع أنفسـنا نرى أنـنا كـنا ن فقدـ الكـثير منـ الصـفاتـ، فـلمـ نـملـكـ حينـ الـولـادـةـ عـلـمـاًـ وـلاـ قـدرـةـ، وـلـكـنـ هـذـهـ الصـافـاتـ نـمـتـ فـيـنـاـ تـدـريـجـيـاًـ، وـلـذـاـ نـقـولـ: إـنـ هـذـهـ أـمـورـ زـائـدـةـ عـلـىـ ذـواـتـنـاـ، وـلـذـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـمـرـ بـنـاـ الـيـوـمـ الـذـيـ نـفـقـدـ فـيـهـ الـقـوـةـ الـعـضـلـيـةـ وـالـعـلـمـ وـالـأـفـكـارـ الـتـيـ نـمـلـكـهـاـ وـنـرـىـ بـوـضـوـحـ أـيـضاًـ إـنـ عـلـمـنـاـ وـقـدـرـتـنـاـ مـنـفـصـلـتـانـ، فـالـقـدـرـةـ الـجـسـمـيـةـ فـيـ عـضـلـاتـنـاـ وـلـكـنـ الـعـلـمـ مـوـجـودـ فـيـ الرـوـحـ!

وـلـاـ يـتصـوـرـ فـيـ اللـهـ أـيـ مـعـنـىـ مـنـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ، فـذـاتـهـ كـلـهـاـ عـلـمـ وـقـدـرـةـ وـكـلـ شـيـءـ فـيـ ذـاتـهـ وـاحـدـ، وـنـسـلـمـ طـبـعـاًـ بـأـنـ تـصـوـرـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ -ـ بـالـنـسـبـةـ لـنـاـ نـظـرـاًـ لـفـقـدـانـاـ لـهـذـهـ الصـفـةـ -ـ مـعـقـدـ وـغـيـرـ مـأـلـوفـ وـلـاـ سـبـيلـ إـلـيـهـ إـلـاـ قـوـةـ الـمـنـطـقـ وـالـاسـتـدـلـالـ الدـقـيقـ وـالـلـطـيفـ.

٦٥٥

## ٣- الدليل على توحيدـ الصفـاتـ

إـنـ الـخـوـضـ فـيـ صـافـاتـ الـمـخـلـوقـاتـ وـعـدـمـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـيـعـابـ مـفـهـومـ تـوـحـيدـ الصـافـاتـ هوـ السـبـبـ فـيـ انـحرـافـ بـعـضـ الـمـتـكـلـمـينـ وـعـلـمـاءـ الـعـقـيـدـةـ عـنـ الـمـسـيرـ الصـحـيـحـ فـيـ مـوـضـوعـ صـافـاتـ اللـهـ، أـمـثالـ طـائـفةـ (ـالـكـرـامـيـةـ)ـ وـهـمـ أـتـبـاعـ مـحـمـدـ بـنـ كـرـامـ السـيـسـتـانـيـ الـذـيـنـ اـعـتـقـدـوـاـ بـأـنـ صـافـاتـ اللـهـ حـادـثـةـ، وـكـذـلـكـ كـانـوـاـ يـعـتـقـدـونـ أـنـ اللـهـ لـمـ يـكـنـ مـالـكـاًـ لـهـذـهـ الصـافـاتـ اـبـتـدـاءـ ثـمـ اـمـتـلـكـهـاـ!

وـهـذـاـ الـكـلـامـ فـيـ غـايـةـ الـقـبـحـ!ـ وـلـاـ يـمـكـنـ لـأـحـدـ أـنـ يـصـدـقـ، مـنـ يـصـدـقـ بـأـنـ اللـهـ كـانـ عـاجـزاًـ فـيـ الـبـداـيـةـ ثـمـ اـقـتـدـرـ؟ـ فـمـنـ الـذـيـ أـعـطـاهـ الـقـدـرـةـ!ـ وـمـنـ الـذـيـ وـهـبـهـ الـعـلـمـ؟ـ!

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات الفعل كالخالقية والرازقية، لأنَّ الله قبل أن يخلق موجوداً ويرزقه لا معنى للخالقية أو الرازقية بالنسبة إليه (طبعاً كان قادرًا على الخلق والرزق ولكن القدرة على شيء غير إيجاده) إلا أنَّ البحث في توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو في صفات الذات كالعلم والقدرة، وكما سبأته مفصلاً بأنَّ صفات الفعل مستقلة عن صفات ذات الله، صفات الفعل شيء ينتزعه العقل بعد مشاهدة أفعال الله وينسبها إلى الله (سفراً تفصيل ذلك لاحقاً).

وأوضح إشارة في باب إثبات وحدة الصفات في الآيات القرآنية هي الآية القائلة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...» التي تقدم تفسيرها وتدلُّ على أنَّ ذاته المقدسة لا تتَّصف بأيةٍ إثنينية.

ويمكن في الاستدلالات العقلية الاستناد إلى بعض النقاط:

١- ثبت في الأبحاث السابقة أنَّ الله غير متناءٍ من جمع الجهات ولذا لا توجد خارج ذاته أية صفة كمال، فكلَّ ما يوجد مجموع في ذاته، وعندما نرى أنَّ صفاتنا حادثة أو أنها غير ذاتها فإنَّ السبب هو أنَّنا موجودات محدودة، ولهذه المحدودية تكون الأوصاف والكمالات خارج ذاتنا وهي مما نكتسبها أحياناً، أمَّا ذات الله وهو الكمال المطلق فأي صفة يمكن تصوّرها خارج ذاته المقدسة؟

٢- لو قلنا بأنَّ صفاته مضافة إلى ذاته أو اعتقדنا بأنَّ صفاته كالعلم والقدرة منفصلة عنه فإنَّ النتيجة هي التركيب (تركيب من الجوهر والعرض بل عوارض متعددة) في حين ثبت مسبقاً أنه لا سبيل لأي تركيب في ذاته خارجياً أو عقلياً.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المضمون في الخطبة الأولى من نهج البلاغة بعبارة جميلة جداً في باب توحيد الصفات:

«وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلَّ صفة أنَّها غير الموصوف، وشهادة كلَّ موصوف أنَّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله».



### **٣ - التوحيد في العبادة**

#### **تمهيد:**

إنَّ التوحيد في العبادة هو من أكثر فروع التوحيد حساسية ويعني أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد إلَّا له.

ويمكن القول: إنَّ عنوان دعوة الأنبياء عليهما السلام والقاعدة الأولى لشرائعهم هو قضية التوحيد في العبادة، وغالباً ما كانت مواجهاتهم مع المشركين تنشأ من هذه النقطة.

صحيح أنَّ (التوحيد في العبادة) يلزم (توحيد الذات والصفات) حيث تقرر أنَّ واجب الوجود كُلّ ما سواه ممكן ومحتاج إلَيْه فلا سبيل إلَّا أن تكون العبادة مختصة به. إنَّه هو الكمال المطلق، ولا يوجد كمال مطلق سواه، والعبادة تعتبر طريقاً للوصول إلَيْه، فلابدَّ أن تكون مختصة به.

والملحوظ أنَّ الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى التوحيد في العبادة ونحن نذكر هنا أقسامها الحساسة بغية الوصول إلى هذا النداء القرآني المهم ونفهم بالبقية ضمن إشارات بلغة.

بهذا التمهيد نمعن خاسعين في الآيات القرآنية الآتية:

١ - ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوْا الطَّاغُوتَ فَيُنْهِمُونَ هَذَيِ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَدِّبِينَ ﴾.  
(النحل / ٣٦)

٢ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾.  
(الأنبياء / ٢٥)

- ٣- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمَ عَظِيمٌ﴾. (الأعراف / ٥٩)
- ٤- ﴿... وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (التوبه / ٣١)
- ٥- ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيَتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَتْيُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَّتْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ﴾. (الأنعام / ٥٦)
- ٦- ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا تَتِيكَ الْيَقِينَ﴾. (حجر / ٩٩)
- ٧- ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنْفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾. (بیتنة / ٥)
- ٨- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. (مریم / ٣٦)
- ٩- ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاهُ فَاعْبُدُونِ﴾. (عنکبوت / ٥٦)
- ١٠- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. (نور / ٥٥)
- ١١- ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا مَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَّامُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. (آل عمران / ٨٠)
- ١٢- ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾. (رعد / ١٥)

**شرح المفردات:**

### المفهوم الدقيق للعبادة:

«العبادة»: و(ال العبودية) كلمتان تعنيان إبراز الخضوع، وعلى ما يذهب إليه الراغب في المفردات، فإن للعبادة مفهوماً أعمق وتعني غاية الخضوع بين يدي من له غاية الإنعام والإكرام وهو الله عز وجل.

ويبدو أنَّ الأصل في هذا اللفظ مشتقٌ من (عبد) إِلَّا أنَّ (عبد) كما في (السان العرب) و(كتاب العين) يطلق على كلِّ إنسان عبداً كان أم حراً (لأنَّ البشر كلُّهم عبيد الله) ويطلق تارةً على العبيد خاصةً.

ويضيف الراغب: العبد أربعة أضرب:

١ - عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذي يصح بيعه وشراؤه.

٢ - عبد بمعنى مخلوق.

٣ - عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عباد الله وعباد الدنيا (وعباد الرحمن) و(عبد الدنيا).

وفي مجمع البحرين إنَّ هذه الكلمة تستعمل تارةً بمعنى (الحزب والفئة) والأية: (الفجر / ٢٩) «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي».

فيها إشارة إلى ذلك.

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام وهي أنَّهم قسموا العبادة إلى نوعين: العبادة الإختيارية التي أمرت بها الآيات القرآنية، والعبادة غير الإختيارية، كما يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ». (الاسراء / ٤٤)

ويقول الطريحي في (مجمع البحرين): إنَّ الحكماء قسموا العبادة إلى ثلاثة أقسام وهي: الأول: ما يجب على الأبدان كالصلوة والصيام والسعى في المواقف الشريفة لمناجاته جل ذكره (عبادة جسمانية).

الثاني: ما يجب على النفوس كالإعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقه من الثناء والتمجيد والتفكُّر فيما أفالله سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثم الإتساع في هذه المعارف (عبادة روحانية).

الثالث: ما يجب عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الأمانات ونصح بعض بضروب المعاونات وجihad الأعداء وحماية الحوزة<sup>١</sup> (عبادة اجتماعية).

١. مجمع البحرين للطريحي، ج ٣، ص ١٠٨.

«طاغوت»: صيغة مبالغة من (الطغيان)<sup>١</sup>، والطغيان كما نعلم هو: تجاوز كلّ حدّ، ولذا تطلق كلمة طاغوت على كلّ موجود متمرّد ومعتدي كالشيطان، والسحر، والجبارين، والحكام الظالمين، والتيارات التي تنتهي بغير الحقّ. وتأتي هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع.

وذكر (الطبرسي) في (مجمع البيان) في تفسير آية الكرسي خمسة معانٍ للطاغوت هي: الشيطان، الكاهن، الساحر، الإنس والجنّ المتمرّدون والأصنام (ومن الواضح أنّ هذه الأقوال ترجع كلّها إلى معنى جامع واحد أشير إليه).

## جمع الآيات وتفسيرها

### هو المعبد وحده:

إنّ آية البحث الأولى تعتبر الدعوة إلى التوحيد هي المنهج الأساسي لرسل الله أجمعين حيث تقول: «ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبِبُوا الطَّاغُوتَ».

وهذه الكلمات تُطرح في مواجهة الذين تنقل عنهم (هذه الآية) تبريراتهم في عبادة الأصنام: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَعْبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...» (النحل / ٣٥) والقرآن يقول في ردّهم: «ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَبُوا الطَّاغُوتَ» فقد دعا الأنبياء عليه السلام جميعاً إلى التوحيد في العبادة وعارضوا عبادة أي موجود غير الله، فما هذه الفريدة التي تنسبونها إلى الله؟!

وتضيف: إنّ الناس انقسموا إلى طائفتين تجاه دعوة الأنبياء عليه السلام، طائفة استعدّت للهداية وكانت تطلبها فهدتها الله، «فَهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ»، وطائفة خالفت: «وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَالَةُ»، ثمّ تأمر الآية: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»، أجل، إنّهم وبسبب انحرافهم عن جادّة التوحيد وبسبب الطغاء وقعوا في وحل الفساد والشقاء، فنزل عليهم العذاب الإلهي.

١. قال البعض: إنّ الأصل هو «طغووت» ثمّ جاء لام الفعل بدلاً عن عين الفعل وانقلب الواو المفتوحة قبلها إلى الف وصارت (طاغوت).

والملاحظ أن الآية تتسبب الهداية إلى الله عز وجل، فلولا التوفيق والإمداد الإلهي لما كان لأحد أن يبلغ الهدف بقدرته، في حين تتسبب الضلاله لهم لأنها نتيجة أعمالهم.

٤٥٥

الآية الثانية توافق الآية الأولى بعبارة أخرى وتقول كقضية عامّة وخالدة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِنَّ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

والملفت أن (نوح) فعل مضارع ويدل على الاستمرار، أي إننا أو حينما التوحيد في العبادة إلى كلّنبي وقد أمر جميع الأنبياء بإبلاغ ذلك طيلة دعوتهم. وعليه فإن هذه المسألة استمررت أصلًا أساسياً في تاريخ الأنبياء عليهما السلام.

٤٥٦

الآية الثالثة تنقل كلاماً عن أول نبي من أولي العزم وهو شيخ الأنبياء نوح عليهما السلام الذي لم تتضمن دعوته منذ بدايتها نداء سوى نداء التوحيد في العبادة ونبذ عبادة الأصنام حيث يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ويستفاد من هذه الجملة بأن الشرك وعبادة الأصنام كان ولا يزال أسوأ شوكة في طريق سعادة البشرية، والأنبياء الذين يمثلون الرعاة لبستان التوحيد كانوا يهتمون قبل كل شيء بزرع وبرعاية زهور الفضيلة في روح البشر ويقتلون الأشواك التي تعترض طريقهم بسلاح التوحيد، وخاصة في عصر نوح عليهما السلام، كما يستفاد من الآية ٢٣ من سورة نوح حيث كانت هناك أصنام عديدة ومتعددة يُسمى باسم (ود، وسوان، ويعوث، ويعوق، ونسرا).

وكانت على هيئة رجل، وامرأة، وأسد، وفرس، ونسر على التوالي، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم، ولما رأى نوح منهم العناد والإصرار هددتهم بعذاب الله، كما نقرأ في ذيل الآية: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي إنني أخاف عليكم عاقبة الشرك.

والظاهر أن المراد من اليوم العظيم هو يوم الطوفان الذي لم يحدث نظيره في تاريخ

العقوبات التي نزلت على الأقوام السابقة، كما احتمل أنّ (يوم عظيم) إشارة إلى يوم القيمة<sup>١</sup>. وقد جاء في تفسير الميزان بأنّ هذه الآية قد جمعت أصلين من أصول الدين في جملة قصيرة هما: (التوحيد والمعاد) كما جاء الأصل الثالث وهو (النبوة) في آية، «يَا قَوْمٍ لَيْسَ بِكُمْ ضَلَالٌ إِلَّا لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>٢</sup>.

٤٥٦

الآية الرابعة تتحدث عن اليهود والنصارى الذين انحرفو عن جادة التوحيد، فقد اعتبر اليهود أحبارهم (علماء الدين اليهود) واعتبر النصارى رهبانهم والسيد المسيح معبدات لهم!

ثمّ تقول: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» وَتَؤَكِّدُ:

«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وللتاكيد تضيف: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ».

وبهذا فإنّ الدين الذي أقام النبي نوح عليه السلام قواعده وواصل طريقه في دعوة موسى عليه السلام والسيد المسيح عليهما بكلّ قوّة وثبات.

صحيح أنّ النصارى كانوا يعبدون السيد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الأخبار، والنصارى لم يعبدوا الرهبان، بل لا طاعتكم المطلقة لهم واستسلامهم لتحرifyهم وتغييرهم الأحكام الإلهية أطلق على ذلك عنوان الشرك، ولذا جاء في الأحاديث: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكتهم أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتّبعوهם وعبدوهם من حيث لا يشعرون»<sup>٣</sup> وسيأتي تفصيل هذا الموضوع في بحث (توحيد الطاعة) بإذن الله.

١. هذان التفسيران قد صرّح بهما في كلمات المفسّرين السابقين ومنها ما أشار إليها الفخر الرازي في التفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٤٩ في ذيل آيات البحث.

٢. تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٨٠.

٣. تفسير نور التقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.

## لَا أَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ:

في الآية الخامسة يصل الدور إلى النبي الأكرم ﷺ حيث يأمره الله عز وجل: «قُلْ إِنِّي نُهِيَتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

والاستفادة من لفظ (الذين) الذي يستعمل لجمع المذكور العاقل في معبوداتهم هو إما لتصورهم في عالم وهمهم وخيالهم أن الأصنام ذات روح وعقل وشعور، وأماماً لوجود أشخاص كال المسيح أو الملائكة والجنّ بين هذه المعبودات.

ولتبیان الدليل على هذا المنع والنهي الإلهي تضییف الآیة: «قُلْ لَا تَأْتِيْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ صَلَّتْ إِذَاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهَدِّدِينَ».

ويعني هذا أن جذور الشرك كلها ترجع إلى عبادة الهوى والظن والوهم، ومن المسلم به أن اتباع الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهي بالسعادة والهداية أبداً.

٤٥٦

الآية السادسة توجّه الخطاب إلى النبي ﷺ وتأمره بأن يثبت ويواصل عبادة الله الواحد واجتناب كل شرك وعبادة للأصنام حيث تقول: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَقّاً يَأْتِيكَ الْيَقِينُ».

وقد فسر المفسرون (اليقين) هنا بمعنى الموت، واعتبروه نظير قول السيد المسيح ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالرِّكَأَةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾.

ونقرأ في موضع آخر من القرآن على لسان أهل النار: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ \* حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ».

كما جاء التعبير عن (الموت) بـ(اليقين) في الروايات الإسلامية، ففي الحديث عن الإمام الصادق ع عليه السلام نقرأ قوله عن الموت: «لم يخلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»<sup>١</sup>، لأن الناس لا يكتنون به وكأنهم لا يصدقون أنهم سيموتون!

والتعبير عن (الموت) بـ(اليقين) إما لما أشير إليه في الحديث المذكور أي هو مسألة يقطع

بها جميع الناس ولا اختلاف بين المذاهب والعقائد المتباعدة في هذه المسألة، وإنما أنّ الإنسان يتيقّن بالكثير من القضايا التي يتردد فيها وذلك عند زوال الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق (من الممكن طبعاً الجمع بين هذين المعنيين).  
والتعبير بـ(يأريك) أيضاً إشارة لطيفة إلى هذا الموضوع وهو أنّ الموت سيقع على  
الإنسان شاء أم أبى!

٤٥٥

في الآية السابعة يلاحظ هذا المضمون نفسه مع إضافات أخرى، وفيها إشارة إلى طائفه من أهل الكتاب الذين انحرفو عن التوحيد وجعلوا الله أنداداً في العبودية حيث تقول: «وما  
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنْفَاءِ» .<sup>١</sup>

والملاحظ أنّ الآية تحصر الأوامر الإلهية كلّها في العبادة المخلصة ثمّ في إقامة الصلاة وأدائها: «وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الرِّزْكَةَ»، وهذا يدلّ على أنّ الأصل في التعاليم الدينية يرجع إلى الإخلاص في العبودية، والملاحظ أيضاً أنّ الآية تضييف في ذيلها: «وَذَلِكَ دِينُ  
القِيمَةِ» .<sup>٢</sup>

٤٥٦

الآية الثامنة تنقل نكتة وردت في قول السيد المسيح عليه السلام حيث قال: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّ  
وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» .

ونعلم أنّ الخط المستقيم الذي يصل بين نقطتين واحد لا أكثر، في حين توجد آلاف

١. يقول الراغب في المفردات: «حنف» على وزن «كنف» تعني الميل من الضلال إلى الصراط المستقيم وإنما يقال للإسلام (الدين الحنيف) لأنّه يمنع المسلمين عن أي إنحراف عن الصراط السوي.

٢. «قيمة» مشتقة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب في المفردات: إنّ معناها هي الأمة التي تقوم بالقسط والعدل كما جاء في الآية.. «كونوا قوامين بالقسط» .

الخطوط المنحرفة بينهما، فخطٌّ التوحيد واحد وكلٌّ ما سواه فهو شرك وعبادة أصنام. (مستقيم) من (الإستقامة) ومشتقة في الأصل من (القيام)، وبما أنَّ الإنسان يقف مستوىً في قيامه فإنَّ هذه الكلمة استعملت بمعنى كلٌّ طريق ومنهج معتدل ومستوٍ وحالٍ من الانحراف.

والملاحظ أنَّ القرآن وفي سورة الحمد قد جعل النقطة المقابلة للصراط المستقيم هو طريق المغضوب عليهم (الضالل)، والطائفة الأولى هم الضاللون من أهل العناد واللجاجة والذين يصرُّون على مسیرتهم ومسيرة غيرهم المنحرفة، والطائفة الثانية هم الضاللون البسطاء.

### إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا:

نواجه في الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوجه الأمر إلى المؤمنين، وذلك عندما يكون البقاء في مكان - حتى أو طائفتهم الخاصة - مانعاً من عبادة الله ومزعزاً لتوحيد عبادته فعليهم أن يهجروا ذلك المكان تقول الآية: «يَا عَبْدِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضَى وَاسِعَةً فَإِيَّاِيَ فَاعْبُدُونَ».

أجل، أنَّ أرض الله واسعة ولا يمكن أبداً الإذعان لذلِّ الشرك وأسر الكفر وعباده الأصنام من أجل أمور من قبيل القوم والقبيلة والبيت والوطن الحبيب، بل إنَّ واجب كلٍّ مؤمن موحد هو أن يهجر وطنه في مثل هذه الظروف ويحلُّ في وطن مناسب ويفقي شمعة التوحيد مضيئه في روحه، وقد يوفق - كالمهاجرين في صدر الإسلام - لإعداد القوة اللازمة ويرجع إلى وطنه ويزيل آثار الشرك وعبادته الأصنام من ربوعه.

والتعبير بـ(ياعبادي)، و(أرضي)، و(إياتي فاعبدون) في الآية مقرون بالرحمة واللطف الإلهي وإشارة إلى نصره المستمر للموحدين أينما كانوا وفي كل زمان.<sup>١</sup>

والملاحظ أنَّ المخاطب في الآية هم (العباد)، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة الله الواحد،

١. لاحظوا أنَّ «إياتي فاعبدون» بسبب تقدُّم المفعول على الفعل تدلُّ على الحصر وتبيّن انحصر العبادة في الله.

وفي ذلك إشارة إلى أنّ العباد ينبغي أن يواصلوا مسيرة التوحيد إلى آخر العمر ولا ينحرفو لحظة واحدة، وهذا نظير تكرار الجملة: «إِهْدِنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، لدى المؤمنين، حيث يطّلبون فيها استمرار هذه النعمة إلى جانب الهدایة، على أية حال، فإنّ الآية دليل على وجوب الهجرة من أرض الشرك وعبادة الأصنام إلى دار الإيمان، إلا أن يُوفّق الإنسان لتغيير الأوضاع السائدة على تلك الأرض.

آية البحث هي من آيات سورة العنكبوت التي يقول عنها المفسّرون: إنّ الآيات الإحدى عشرة الأولى منها نزلت في المدينة بقصد الذين كانوا في مكة وأظهروا الإسلام ولكنّهم لم يعزّموا على الهجرة إلى المدينة، والآية التي بعدها تقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ» وفيها إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ الجميع سيموتون وينفصلون عن الوطن والزوج والمال، فلا تظنّوا أنّكم إن بقيتم في أجواء ملوثة بالشرك فإنّكم سوف تبقون إلى جنب أحبابكم أبداً!

٤٥٦

وتستند الآية العاشرة إلى نقطة جديدة أخرى في هذا المجال، وتعد المؤمنين جميعاً بأنّهم سيكونون مالكين وحكاماً للأرض كلّها، كما أنّ التوحيد سينتشر في العالم بأسره وسوف لن يبعد إلا الله، وعلى هذا فإنّها تبشر بتوحيد العبادة الخالصة كبشرارة كبرى لكل المؤمنين وتقول: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلُفُنَّمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وهناك بحث بين المفسّرين في تحديد ماهية هذه الطائفة التي ورثت الأرض وعاشت في عصور قديمة، والمناسب أن يقال: إنّها إشارة إلىبني إسرائيل الذين أصبحوا ملوكاً وحكاماً على مساحة واسعة من الأرض بعد نهضة موسى عليه السلام وإنهايار حكومة الفراعنة، وكما يقول القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْفِفُونَ مَسَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا الَّتِي بَارَكَنَا فِيهَا»<sup>٢</sup>. (الأعراف / ١٣٧)

١. راجع تفسير روح البيان؛ وروح المعاني؛ والقرطبي في ذيل آية البحث.

٢. هناك بحث مفصل آخر في هذا المجال قد ورد في تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٥ من سورة النور، تحت عنوان

وتتضمن الآية الحادية عشرة إشارة إلى نقطة جديدة في هذا المجال حيث تؤكد أن الأنبياء العظام والملائكة المقربين لا يستحقون العبادة فضلاً عن الأصنام، فالعبادة مختصة بالله عز وجل وتقول: «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا»<sup>١</sup>. ولمزيد من التأكيد تضيف الآية: «أَيَّاً مُرْكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

«أرباب»: جمع (رب) ويعني في الأصل المالك المصلح، أي المالك الذي يسعى في تدبير ملكه وتربيته وإصلاحه، ولذا فإنّ (رب الدار) و(رب الإبل) جاء بمعنى المالك والمدير للبيت أو الإبل، وقد ندر استعمال الكلمة «رب» في القرآن الكريم في غير الله، منها الآية ٤٢ و ٥٠ من سورة يوسف حيث استعملت الكلمة (رب) في نعت ملك مصر، ويستفاد من عبارات هذه السورة بأنّ هذه الكلمة كانت كثيرة الاستعمال كسمة للشخصيات المصرية الكبيرة.

وفي المقابل استعملت هذه الكلمة التي وردت مئات المرات في القرآن الكريم -في كل المواطن تقريباً- كصفة لله عز وجل، لأنّه هو المالك الأصلي -في الواقع- والمدير والمربي لمحvodات الكون كله، المهم أنّ الكثير من الأمم كانوا يعتقدون بالله صغيرة ويطلقون عليها (رب) أو (رب النوع) ويطلقون على الله (رب الأرباب) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الأمم تجاه الملائكة أو بعض الأنبياء، آية البحث تتفى بصراحة هذه العقائد الباطلة وتعرّف الله وحده ربّاً وليس ربّ الأرباب، لأنّها تعتبر انتخاب أي ربّ سواه كفراً والإسلام على طرف تقىض معه.

 الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكة والإنتصارات الواسعة بعد النبي ﷺ والنموذج الأثم والكامن سيتحقق عند قيام الإمام المهدي (عج).  
١. لاحظ أن «يأمر» منصوب لأنّه معطوف على (أن يؤتى به الله).

آية البحث الثانية عشرة والأخيرة تشير إلى الكلام الأخير في هذا البحث وهو أنَّ التوحيد في العبادة لا يختص بالبشر بل: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ».

«مَنْ»: وان كانت إشارة إلى العقلاء عادةً ولذا يعتقد جمع من المفسّرين بأنَّ آية البحث تقصد بني الإنسان والملائكة وأمثالهم، إلا أنَّ في الآية قرائن تدل على أنَّ هذه الكلمة تشير إلى الموجودات كلّها ونعم العاقل وغير العاقل والنبات والجماد، والمراد من السجدة ما يعم السجدة التكوينية (غاية الخضوع والتسلیم في الموجودات تجاه قانون الخلق) والسجدة التشرعيّة (السجود والعبادة الإعتياديّة) لأنَّ:

أولاً: التعبير بـ(طوعاً وكراهاً) دليل على عمومية الآية.

ثانياً: إشتراك (ظلال) في هذه السجدة والعبادة العامة دليل آخر على هذا المعنى.

ثالثاً: ورد هذا المعنى بجلاء في آيات قرآنية أخرى: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

وهكذا في الآية: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُانِ».

وعلى هذا فإنَّ موجودات الكون كلّها وبدون استثناء لها سجود تكويني وتسلیم للأوامر الإلهية، ومن بينها المؤمنون حيث لهم - مضافاً إلى السجود التكويني الذي لا يتّصف بالإختيار - سجود اختياري تشيّعي أيضاً.

وتعيّم هذا الحكم إلى (ظلال) تعبير كبير المعنى، لأنَّ الظلال تتّصف بالعدم في الواقع لأنَّ الظلّ هو المكان الذي لا يسقط الضوء عليه) ولكن بما أنَّ الظلال تابعة للأجسام في وجود النور فإنَّ لها قسطاً ضعيفاً من الوجود، ويقول القرآن: إنَّ هذه الأعدام الشبيهة بالوجود تسجد لله أيضاً فكيف بال الموجودات الحقيقة؟ وهذا يشابه العبارة التي نقولها وهي أنَّ عداوته لفلان بلغت إلى حدّ أنه يرمي ظله بالسهم.

ثم إنَّ الظلال تسقط عادة على الأرض والتعبير بالسجود أليق بها.

وما تقوله الآية: «بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ» فإنه من الممكن أن يكون وصفاً خاصاً للظلال،

واختيار هذين الزمرين هو لأنّ كُلّ شيءٍ في هذين الوقتين يكون ذا ظلّ، ظلّ طويل وممتدّ على العكس من منتصف النهار إذ يكون له ظلّ أو له ظلّ قصير. ويحتمل أيضاً أن يكون هذان الوصفان لكلّ الموجودات في السماء والأرض والمراد هو الإشارة إلى استمرار هذا السجود، كما نقول في عباراتنا اليومية: يجب أن نلقى فلاناً صباحاً ومساءً، أي، دائماً وباستمرار<sup>١</sup>.

٤٥٦

أخيراً وبمراجعة عامة لما تقدم نصل إلى أنّ مسألة (التوحيد في العبادة) لها من الأهمية ما جعلها في صدارة دعوة الأنبياء والرسل ﷺ، ومن أهم القرارات في تعليماتهم، وقد أقام جميع الأنبياء أولي العزم دعوتهم عليها، وكان رسول الله ﷺ طيلة عمره الشريف يدعو للتوحيد بعبارات مختلفة، وصراط الهدایة المستقيم يمرّ عبر هذا الطريق، ولتحقيق هذا المنهج الإسلامي المهم ينبغي - عند الحاجة - ترك الأوطان وهجر أجواء الشرك وعبادة الأصنام.

ومن الخصائص المهمة لذلك اليوم الذي تهيمن فيه حكومة العدل الإلهي في العالم بأسره هو ظهور عقيدة التوحيد في العبادة هذه والتي تسود العالم كله، وليس البشر فقط بل وكلّ الموجودات في الأرض والسماء تسجد لله وفي كلّ الأحوال، وإذا لم تسجد باختيارها فإنّها تسجد من حيث تكوينها وبلسان حالها وتسبّح له.

## توضيحات

### ١- شجرة توحيد العبادة المثمرة

لابدّ من ملاحظة هذه النقطة قبل كلّ شيء وهي: أنّ الإحترام والتواضع والخضوع

١. على الصورة الأولى يكون الجار والمجرور متعلقاً بالفعل أو الوصف المقدّر (وفيه امتياز أنه يعود للأقرب) وفي الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلقاً بالفعل يسجد وفيه امتياز أنه مذكور.

والثناء صفاتٌ لها مراتب ودرجاتٍ آخرها وذروتها العبادة والعبودية.  
ومن البديهي أن يخضع الإنسان لأوامر من يحترمه إلى هذه الدرجة وينقاد له بكلّ وجوده انقياداً تاماً ويُهوي إلى الأرض ويُسجد له.  
هل من الممكن أن ينفصل الخضوع الذي يصل حدّ العبودية والثناء والإحترام  
اللامحدود عن الطاعة والتسليم للأمر؟

ومن هنا نقول: إنَّ الإنسان إذا استوعب روح العبادة الخالصة فإنه يكون قد خطأ خطوة كبيرة في طريق الطاعة لأمر الله والعمل بالصالحات والإبعاد عن السيئات، ومثل هذه العبادة - خاصة إذا كانت دائمةً ومستمرةً - تكون رمزاً ل التربية الإنسانية وتكامله.  
مثل هذه العبادة الخالصة المقرونة بعشق المحبوب، الذي يشكل عاملاً مهمّاً للحركة إليه، وكما أنَّ التحرّك نحو ذلك الكمال المطلق عامل على ترك القبائح والدنيّات والتلوّث  
بالمعاصي.

ولهذا حازت مسألة العبادة الخالصة على هذه الدرجة من الأهمية إلى الحدّ الذي يقول القرآن فيها: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاهِرِينَ». (المؤمن / ٦٠)  
إنَّ العابد بداعٍ من خصوصه اللامحدود بين يدي الله يسعى إلى نيل رضاه والتقرّب إليه  
ولأنَّه يعلم أنَّ تحصيل رضاه يتمّ عن طريق طاعة أمره فإنه يسعى في هذا الطريق ويتقدّم  
أوامر بطيب نفس تامٌ.

العبد الحقيقي يسعى للتتشبه وتقليد صفات معبوده ومعشوّقه الحقيقي ويعكس في هذا الطريق قبساً من صفات جماله وجلاله في نفسه، ولا ينكر ما لهذه الأمور من تأثيرات على  
تكامل الإنسان وتربيته.

## ٢ - روح العبادة والإحترام من الإفراط والتفريط

هناك إفراط وتفريط عجيبان في معنى العبادة كما هو الحال في الكثير من القضايا الأخرى حتى أنَّ بعضًا أفرط إلى حدّ جوز فيه السجود لغير الله (مع عدم الاعتقاد بملكية

وربوية المسجود له)، وذكر سجود الملائكة لآدم وسجود أخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك.

وفي المقابل اعتبر بعض آخر أنَّ الاستغاثة والتسلُّل بالنبي ﷺ والأئمَّة علَيْهِمُ السَّلَامُ وطلب الشفاعة وأداء الاحترام لهم، شركاً، واعتقدوا بأنَّ فاعله مشرك.

وفي الحقيقة أنَّه لا يمكن التوفيق بين هاتين العقیدتين.

وللإيضاح نقول: إنَّ حقيقة العبادة كما نقلنا عن اللغويين في بداية البحث في شرح المفردات هي: الخضوع المطلق وغاية التواضع والتذلل أمام المعبد، وهذا العمل مختص بالله من وجهة نظر إسلامية ويكون شركاً في العبادة إن كان موجهاً إلى معبد آخر.

وبعبارة أخرى إنَّ للخضوع والتواضع درجات، درجة منها تحدث أمام الأصدقاء ويعاقبها التكبير عليهم، ودرجة أخرى تكون أمام أفراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن:

**«وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ».** (الاسراء / ٢٤)

والدرجة الأكمل تكون أمام الأنبياء والأئمَّة المعصومين علَيْهِمُ السَّلَامُ حتى أنَّ المسلمين لم يحقق لهم رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ بدليل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهِرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ».

(الحجرات / ٢)

ولكن آخر مرحلة من الخضوع والتواضع والتذلل التي نطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو (السجود).

وعليه فإنَّ الخضوع المطلق وغاية التذلل (وإن لم يقترن بالإعتقد بالربوبية والمملوكية) يكون عبادة ومتخصِّصاً بالله ولهذا لا يجوز السجود لغيره.

ولصاحب تفسير (المنار) في تفسير سورة الحمد كلام في معنى العبادة ملخصه: أنَّ العبادة ضربٌ من الخضوع بالغ حدَّ النهاية، ناشئٌ عن استشعار القلب عظمَة المعبد لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطته له لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصير ما يعرفه منها أنَّها محيطة به ولكنَّها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى الذلِّ لملك من الملوك لا يقال أنَّه عبد وإن قبَّل موطئَ أقدامه، ما دام سبب الذلِّ والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود،

أو رجاء كرمه المحدود، اللهم إلّا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أنّ الملك قوّة غيبيّة سماوية أُفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم لِلاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنّهم أطيب الناس عنصراً وأكرّهم جوهرًا، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الإعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتّخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقة.<sup>١</sup>

وللمفسّر الكبير العالّامة الطباطبائي عليه السلام كلام قريب منه في تفسير سورة الحمد في تفسير (الميزان) حيث يقول: «الرب مقصور في المالكية والعبد مقصور في العبودية».

قد عرفت من سورة الفاتحة أنّ العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك، فال فعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولويّة المولى، أو عبودية العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد والمشي خلفه حينما يمشي وغير ذلك، وكلّما زادت الصلاحية ازدادت العبادة تعيناً للعبودية وأوضح الأفعال في الدلالة على عزّ المولوية وذلّ العبودية، السجدة... لكن الذوق الديني المتّخذ من الإستيناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله في غير هذا المورد<sup>٢</sup>.

وبناءً على ذلك يستفاد من التدبر في موارد استعمال الكلمة العبادة في القرآن والسنة والاستعمالات اليومية وشهادة اللغوين أنّ المفهوم اللغوي لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الإعتقاد بربوبية المعبد ومالكيته، ولذا إذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب بركاتها، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس والقمر والنار، وهكذا إذا سجد إنسان لتماثيل الأسلام أو الملوك والسلاطين وأعلى منه إذا للأئمّة عليهم السلام لمقامهم الرفيع فإنّ تلك العبادة غير جائزة.

ولهذا ينهى القرآن الكريم بصراحة في آية السجدة بقوله تعالى: «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ». (فصلت / ٣٧)

١. تفسير المنار، ج ١، ص ٥٦ و ٥٧.

٢. تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٢ و ١٢٤.

ولهذا أيضاً تكرّر النهي في الروايات الإسلامية عن السجود لغير الله ومنها: الروايات السبع التي وردت في (وسائل الشيعة) في أبواب السجود الباب ٢٧ حيث نقرأ في إحدى الروايات أنّ النبي ﷺ خاطب مشركي العرب: «اخبروني عنكم إذا عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له أو صلّيتم ووضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها مما الذي يُبَتَّقِّتُم لرب العالمين؟ أما علمتم أنّ من حقّ من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوي عباده؟»<sup>١</sup>.

وهناك روايات عديدة تتضمن الإجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وأبنائه بين يدي يوسف، أو كيفية جواز سجود الملائكة لآدم.

١- عن أبي الحسن الرضا ع: «أَمّا سجود يعقوب وولده فإِنَّه لَم يَكُن لِيُوسُف إِنْمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَحْمِيلَةً لِيُوسُفَ، كَمَا كَانَ السَّجُودُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ، وَلَمْ يَكُن لِآدَمَ إِنْمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَحْمِيلَةً لِآدَمَ فَسَجَدَ يَعْقُوبُ وَوَلَدُهُ وَيُوسُفُ مَعْهُمْ شَكْرًا لِلَّهِ لِاجْتِمَاعِ شَمْلَهُمْ أَلَا تَرَى إِنَّهُ يَقُولُ فِي شَكْرِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: «رَبِّنَا مَنْ أَنْتَ مِنَ الْمَلَكِ» الْآيَةِ.

٢- عن الإمام العسكري ع قال: «لَمْ يَكُنْ لَهُ سَجُودُهُمْ - يَعْنِي الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ إِنْمَا كَانَ آدَمَ قَبْلَهُ لَهُمْ يَسْجُدُونَ نَحْوَهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ بِذَلِكَ مَعْظَمًا مُبَحِّلًا لَهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَخْضُعُ لَهُ كَخُضُوعِهِ اللَّهِ وَيُعَظَّمُ بِالسَّجُودِ لَهُ كَتَعْظِيمِهِ اللَّهِ، وَلَوْ أُمِرْتَ أَنْ يَسْجُدَ هَكَذَا لَغَيْرِ اللَّهِ لَأُمِرْتَ ضَعْفَاءَ شَيْعَتِنَا وَسَائِرَ الْمَكْلَفِينَ مِنْ مَتَّبِعِنَا أَنْ يَسْجُدُوا لِمَنْ تَوَسَّطَ فِي عِلْمِهِ عَلَيْهِ وَهِيَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَحْضُ وَدَادُ خَلْقِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ...» الحديث.

والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهي نفي السجود لغير الله، وقد نقل العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) روايات عديدة في هذا الباب<sup>٢</sup>.

وقد ورد في القصة المعروفة حول هجرة المسلمين إلى الحبشة، إنهم حينما دخلوا على

١. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٣٨٦، ح ٣.

٢. بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٨ و ١٣٩، ح ٣، ٤، ٦.

النجاشي أمرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للملك، فقال لهم جعفر بن أبي طالب: لا نسجد إلا لله<sup>١</sup>.

إنَّ هذه الروايات تؤكِّد عدم جواز السجود لغير الله وتفسِّر حقيقة العبادة.

٤٥٧

### ٣- توحيد الوهابيين المشوب بالشرك

«الوهابيون»: جماعة لا تزال تحكم الحجاز وهم أتباع (محمد بن عبد الوهاب) الذي استمدَّ أفكاره من (ابن تيمية، أحمد بن عبد الحميد الدمشقي) المتوفى عام ٧٢٨هـ.

استطاع محمد بن عبد الوهاب خلال السنوات ما بين عام ١١٦٠ إلى ١٢٠٦هـ والتي مات فيها وتعاون مع الحكام المحليين وإثارة نيران العصبية القاسية بين القبائل التي تجوب صحارى الجزيرة أن يدمِّر معارضيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أريقت دماء كثير من المسلمين في الجزيرة وغيرها.

وبعد موته هاجم أتباعه العراق عن طريق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء واستغلُّوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من أهاليها إلى النجف فاقتحموا سور المدينة ونفذوا إلى داخلها وشروعوا بهدم صحن الإمام الحسين عليه السلام والأماكن المقدسة الأخرى ونهبوا الأبواب الشمينة والهدايا النفيسة من المرقد الحسيني وأموال الناس!

لقد قام أولئك بهدم قبور عظماء الإسلام في الحجاز عام ١٣٤٤هـ بحيث استوت مع الأرض باستثناء قبر النبي عليه السلام خوفاً من سخط المسلمين!

ويمتاز الوهابيون بالتعصب والقسوة والفتواة وعدم الرحمة والتحجر والسطحية ويعتقدون بأنَّهم المدافعون عن التوحيد الخالص في هذا المجال، وينكرون الشفاعة وزيارة القبور والتوكُّل بالقادة العظام ويصيّبون جلَّ اهتماماتهم تقريباً في هذا السبيل، وقد رفض

١. بحار الانوار، ج ١٨، ص ٤٢٠، ح ٨ (نقلًا عن خرائق الرواوندي).

ال المسلمين قاطبة (سنته وشيعة) أفكار هذه المجموعة بل وكفرّهم بعض العلماء<sup>١</sup>.

ولم يختص البحث هنا عن هذه المجموعة وعقائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث عقائدهم في التوحيد في العبادة.

إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَطْلُبَ الشَّفَاعَةَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: **»لَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا«**.

ويقول مؤلف كتاب (الهدية السنّية) وهو من الوهّابيين: من جعل الملائكة والأنبياء وسائط بينه وبين الله لما لهم من قرب إلهي فهو كافر ومشرك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلّى وصام!<sup>٢</sup>

وله منطق مشابه في التوسل بزيارة قبور الأنبياء والأئمة والصالحين.  
إن الخطأ الكبير الذي يرتكبه الوهابيون القشريون هو أنهم تصوّروا أنّ موجودات هذا  
العالم لها تأثير مستقل ولذا اعتقدوا أنها تراحم توحيد الأفعال والتّوحيد العبادي لله في حين  
أنّ هذا المعتقد هو نوع من الشرك!

وإليضاح نقول: الموحّد الكامل يرى أنّ الوجود المستقلّ القائم بذاته في الكون واحد فقط وهو الله عزّ وجلّ، وسائر عالم الوجود ممكّن ومرتبط بوجوده، فكلّه انعكاس لشمس وجوده وليس له استقلالية من نفسه فكما كان محتاجاً في حدوثه فإنّه محتاج إليه ومتعلّق به في بقائه أيضاً، فكلّ ما يملّكه الوجود فإنّه منه، وتأثير الأسباب منه فهو مسبب للأسباب، وهذا هو معنى جملة (لا مؤثّر في الوجود إلا الله)، لأنّ نسقّط الأسباب من سببيتها أو نعتقد أنّها مستقلّة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد.

بناءً على ذلك إذا كان النبيّ الأكرم ﷺ مالكاً للشفاعة فإنّ ذلك يأذنه كما يقول القرآن:

١. كتب أحد العلماء السنة وهو (إحسان عبد اللطيف البكري) رسالة باسم (الوهابية في نظر علماء المسلمين) أوضح فيها آراء علماء الإسلام حول الوهابية ومحمد بن عبد الوهاب ودون الوثائق كلها بدقة في آخر الكتاب وقائمة بعناوين الكتب التي ترددت حيث تبلغ ٥٠ كتاباً لمحققي البلدان الإسلامية المختلفة، وهذا الكتاب دليل واضح على تنافر المسلمين عموماً من هذه المجموعة المنحرفة.

٢. الهدية السنّية، ص ٦٦

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. (يونس / ٣)

وعندما يحيي السيد المسيح ﷺ الموتى ويُبرئ الأعمى والمبتلين بالأمراض المستعصية فإن ذلك بإذن الله أيضاً: «وَأَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْسِنِ الْمُؤْقَنِ بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران / ٤٩)

وعندما يستطيع (آصف بن برخيا) وهو وزير سليمان ومن وصفه القرآن به: «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» أن يأتي بعرش بلقيس في طرفة عين - كما يصرّح به القرآن - من بلاد سبا إلى سليمان في الشام فإنه كما قال: «مِنْ فَضْلِ رَبِّي». (النمل / ٤٠)

ولكن الوهابيين الغرباء عن القرآن وقعوا في خلط كبير وتصوروا أن هذه الأعمال التي تصدر عن هؤلاء العظماء تصدر منهم بالإستقلال، ولذا قاموا من أجل حل المشكل بإنكار بعض الضرورات في الدين مثل مسألة الشفاعة.

وعليه فإنّ هؤلاء ومن أجل تثبيت قواعد التوحيد كما يزعمون سقطوا في وادي الشرك ووادي إنكار ضرورات الدين والقرآن، وللشهيد المطهري رحمه الله كلام جميل في هذا المجال نقل خلاصته حيث قال تحت عنوان (حدود التوحيد والشرك):

١- الإعتقاد بموجود غير الله سبحانه ليس شركاً ذاتياً كما يعتقد أنصار الوحدة النوعية للوجود، لأنّ هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنها نظيرة له.

٢- لا يعتبر الإعتقاد بتأثير المخلوقات شركاً في الخالقية (كما يعتقد الأشاعرة والجبريون) لأنّ المخلوقات كما أنها ليست مستقلة ذاتياً فإنّها غير مستقلة في تأثيراتها أيضاً، بل أنها تابعة له.

٣- لو اعتقدنا بالتأثير المستقل للمخلوقات وقلنا أنّ عالم الخلق أمام الله كالماكنة وال الساعة التي يصنعها الصانع فهي بحاجة إليه في حدوثها ولا تحتاجه بعد صناعتتها لأنّها تعمل حتى لو ارحل صانعها من الدنيا، وهذا هو الإعتقاد بالتفويض وهو لون من الشرك (إعتقداد المعترلة).

٤- الإعتقاد بقدرة الموجودات التي تفوق الطبيعة وتأثيراتها في العالم بإذن الله وأمره

ليس شركاً كما يظن الوهابيون، بل إن اعتقادهم يمثل أسوأ ألوان الشرك، لأننا لو اعتبرنا ذلك شركاً لكان الإعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً أيضاً.

وهكذا فإن الإعتقاد بقدرة الإنسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعد شركاً، لأنّ الإنسان لا يكون جماداً بعد موته.

ثم إن اعتقاد الوهابيين يتسم باللإنسانية حيث ينزلون الإنسان منزلة الحيوان الطبيعي وهو الذي اعتبره الله خليفة له وأعلى منزلة من الملائكة الذين سجدوا له.

وهنا نصل إلى حقيقة الحديث الشهير الوارد عن رسول الله ﷺ ويقول فيه ما نصه: «إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفة سوداء، في ليلة ظلماء»<sup>١</sup>.

والطريف أن الرد على الوهابيين موجود في الآية التي يستدلّون بها على إنكار الشفاعة و(التوسل)، لأن القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا». (الجن / ١٨)

ويعني المثلث الذي يكون في عرضه وعلى هيئة الموجود المستقل كذاته المقدسة، ولكن إذا كان تأثيره بإذنه وأمره لا في عرضه فإن ذلك ليس شركاً فحسب بل فيه تأكيد جديد على أصل التوحيد الذي ينتهي كل شيء إليه.

وهذا يشابه ما طلبه أخوه يوسف من أبيهم يعقوب وكاننبياً عظيماً وقد تقبل ذلك منهم حيث قالوا: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا».

(يوسف / ٩٧) (يوسف / ٩٨) فاستجاب لهم وقال: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي».

هذه هي حقيقة التوحيد في العبادة، وتوحيد الأفعال التي ستتم الإشارة إليها وليس كما يظنه الوهابيون المتحجرون.

١. مقدمة في الرؤية الكونية للشهيد المطهرى، ص ١١٣ (مع الإختصار).



## ٤ - توحيد الأفعال

### أ) توحيد الخالقية

تمهيد:

إنَّ مفهوم (توحيد الأفعال) في تفسير مبسط واضح يعني أنَّ الكون بأسره هو فعل الله، وكلَّ الأفعال، والحركات، والتآثيرات، والتآثرات تنتهي إلى ذاته المقدسة، وفي الحقيقة (لا مؤثِّر في الوجود إلَّا الله)، فالسيف حينما يقطع النار حينما تحرق والماء حينما يروي الناس والنباتات كل ذلك بإرادته وأمره، وباختصار فإنَّ أثر كلَّ موجود يكون مصدره الله سبحانه.

وبعبارة أخرى: إنَّ الموجودات كما أَنْهَا تابعة في أصل وجودها إلى ذاته فإنَّها كذلك في تأثيرها وفعلها.

ولكن هذا المعنى لا ينفي عالم الأسباب وحاكمية قانون العلية، وطبقاً للحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام «أَبِي اللَّهِ أَنَّ يُجْرِي الأَشْيَاءِ إِلَّا بِأَسْبَابٍ»<sup>١</sup>.

كما أَنَّ الإِعتقاد بتوحيد الأفعال لا يستوجب الإِعتقاد بأصل الجبر وسلب الحرية من إرادة الإنسان، كما سنتم الإِشارة إلى ذلك لاحقاً بإذن الله.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الأفعال ونذهب أولاً إلى توحيد الخالقية فنتأمل خاسعين في الآيات الآتية:

١- «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ».

(انعام / ١٠٢)

١. أصول الكافي، ج ١، ص ١٨٣، باب معرفة الإمام، ح ٧.

- ٢- ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلٍّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ﴾ . (رعد / ١٦)
- ٣- ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تُؤْفَكُونَ﴾ . (فاطر / ٣)
- ٤- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتُمُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّمَا يُؤْفَكُونَ﴾ . (عنكبوت / ٦١)
- ٥- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ . (صفات / ٩٦)
- ٦- ﴿ أَلَا لَهُ الْخُلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . (اعراف / ٥٤)

### شرح المفردات:

(خلق) في الأصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التقدير المباشر ويستعمل عادةً في الإيجاد والإبداع لشيء من دون أن يكون له سابق ومثيل، وعلى ما ورد في (مقاييس اللغة) فإنّ (خلق) لها معنيان أصليان: الأوّل هو التقدير، والثاني هو استواء الشيء، ولذا يطلق على الحجر المستوى (خلقاء) وعلى الصفات الباطنة (أخلاق) لأنّه يحكي عن نوع من الخلق، وعلى كلّ حال بما أنّ الخلق يعني التقدير والتنظيم والتسوية فإنّ هذه الكلمة استعملت في خلق الله الإبداعي.

### جمع الآيات وتفسيرها

**هو الخالق لكلّ شيء:**

تقول آية البحث الأولى بعد تبيان صفات الله الجلالية والجمالية:

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ، لا الأصنام التافهة ولا المعبدات من الملائكة والجنّ التي هي من المخلوقات والمربوّبات، والله عزّ وجلّ هو ربُّ الجميع<sup>١</sup>.

١. جملة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فيها (ذلكم) وهو إسم إشارة إلى بعيد وفي مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة غير الإعتيادية لمقامه الخارجي عن حدود الأفكار.

وتضييف: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

لأن اللائق للعبادة هو الذي يكون (رباً) أي مالكاً ومربياً ومدبراً لكل شيء، وللمزيد من التأكيد وإقامة دليل آخر على إنجصار المعبد فيه تضييف الآية: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم تستنتج لتنقول: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

ولقطع كل أمل بغير الله وصد البشر عن التعلق بعالم الأسباب وإجتناث جذور الشرك تقول الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

كلمة (شيء) كما يقول اللغويون: تعني كل أمر يمكن أن يناله علم الإنسان<sup>١</sup>، إلا أنها في آية البحث تعني كل الموجودات ما سوى الله سبحانه.

وعلى آية حال فإن لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كل الموجودات المادية وال مجردة والذهبية والخارجية والجوهر والعرض، وباختصار: إنها تشمل كل شيء، وهذه الآية دليل واضح على عمومية الخلق الإلهي بالنسبة لكل شيء.

وقد وقع هنا نزاع معروف بسبب شمول (شيء) لأعمال الإنسان بين جماعة تقول بالجبر - كالفارخر الرازي - حيث يقول: (إن أعمالنا داخلة في كلمة (شيء) أيضاً، فالله إذن هو خالقها)، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم، ولكن المؤيدون لحربيته الإرادة لهم إجابة واضحة ومستدلة وستأتي في الإيضاحات.

وقد استدلت جماعة بهذه الآية على نفي الصفات الزائدة على الذات في مواجهة الأشاعرة القائلين بأن الله ذو صفات منفصلة عن ذاته، فلو كان الأمر كذلك فإن كلمة (شيء) تشملها ويجب - حينئذ - أن تكون مخلوق الله، ولا معنى لأن يخلق الله صفاته كالقدرة والعلم ... ولا ينسجم هذا مع وجوب الوجود أساساً.

فأجاب بعض الأشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن تقول: إن (خالق كل شيء) لا يشمل صفات الله! ولكن الآية تأبى الإستثناء ولم يرد عليها أي تخصيص كما سنبين ذلك بإذن الله.

الآية الثانية تبيّن محتوى الآية السابقة إضافة إلى تأكيدها على وحدانية الله وقهاريته حيث جاء فيها: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلٌّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ».»

«قهار»: من (قهـر) ويعني في الأصل الغلبة المقرونة بتحقيق الطرف المقابل ولذا، تستعمل في هذين المعنين كليهما، ونظرًا لاستعمالها هنا بصيغة المبالغة فانـها تعنى غلبة الله والنصر المطلق - دون قيد أو شرط - على كل شيء وكل فعل حتى معبوداتهم وأصنامهم غير مستثنـاهـ، وعليـهـ كيف تكون شـريـكاً للـلهـ؟!

٤٥٦

الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة أخرى وهي صورة الإستنكارـيـ حيث تقول: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، كـلاـ، فهو الذي بدأ خلقـكمـ وبـقاـؤـكمـ مستـندـ إلى رـزـقـهـ المتـواصلـ.

فـبـأـمـرـهـ تـشـرقـ الشـمـسـ عـلـيـكـمـ مـنـ السـمـاءـ، وـيـنـزـلـ الـمـطـرـ لـاـحـيـاءـ الـأـرـضـ وـيـسـخـرـ الـرـيـاحـ، وـهـوـ الـذـيـ يـتـفـضـلـ عـلـيـكـمـ بـالـنبـاتـاتـ وـالـشـمـارـ وـالـغـذـاءـ وـالـمـعـادـنـ وـالـثـرـوـاتـ الـشـمـيـنةـ. وـعـلـيـهـ عـنـدـمـاـ لـاـ يـوـجـدـ خـالـقـ وـرـازـقـ سـوـاـهـ فـبـداـيـةـ الـجـمـيعـ وـنـهـاـيـهـ إـذـنـ بـيـدـهـ: «لَا إِلَهَ إِلـّاـ هـوـ فـأـنـيـ تـؤـكـونـ».»

### خالقـةـ اللـهـ لـلـكـونـ:

لا يـنـكـرـ حتـىـ المـشـرـكـونـ أـنـ اللـهـ هوـ الـخـالـقـ لـلـكـونـ، وـالـآـيـةـ الـرـابـعـةـ تـطـرـحـ مـسـأـلـةـ التـوـحـيدـ فيـ إـطـارـ آـخـرـ وـهـوـ أـنـ الـمـشـرـكـينـ أـنـفـسـهـمـ يـقـرـرـونـ أـنـ الـأـصـنـامـ لـيـسـ خـالـقـةـ لـلـسـمـاءـ وـالـأـرـضـ وـالـشـمـسـ وـالـقـمـرـ أـبـداـ وـتـقـولـ: «وَلَئِنْ سَأَلَتْهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».»

فـقـدـ كـانـ الـمـشـرـكـونـ يـعـتـقـدـونـ أـنـ الـأـصـنـامـ شـرـيكـةـ اللـهـ فـيـ الـعـبـادـةـ أوـ لـهـ التـأـثيرـ عـلـىـ مـصـيرـ

الإِنْسَانُ فِي الْخَالِقِيَّةِ، فَلَا يَصِدِّقُ عَاقِلٌ بِأَنَّ كُنْتَلَةً مِنَ الْحَجَرِ وَالْخَشْبِ مُصْنَوَّعَةٍ بِيَدِ إِنْسَانٍ عَلَى هَيَّةِ الصَّنْمِ تَكُونُ خَالِقًا لِلسمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهَتَّى أَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ لِلنَّبِيِّينَ وَالْأُولَائِهِ هَذَا الْمَقَامُ أَيْضًاً.

يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ إِشارةً إِلَى نَفْوِ ذَلِكَ الْعَقِيدةِ فِي أَعْمَاقِ الْفَطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَعَلَى أَيَّتِهِ حَالٌ فَإِنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ (تَوْحِيدِ الْخَالِقِيَّةِ) وَ(تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ) تَنَاقُضُ صَرِيحًا، لِأَنَّ الْخَالِقَ وَالرَّازِقَ هُوَ الْلَّائِقُ بِالْعِبُودِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَنْعُمَ بِهِمَا إِنْسَانٌ وَجَعَلَهُمَا فِي خَدْمَتِهِ.

بَنَاءً عَلَى ذَلِكَ لَا تَنْفَصُلُ (الْخَالِقِيَّةِ) عَنِ (الرَّبُوبِيَّةِ) وَلَا (الرَّبُوبِيَّةِ) عَنِ (الْأَوْلَاهِيَّةِ)، وَبِعِبَارَةٍ أَوْضَحَ: هُوَ الْخَالِقُ وَهُوَ الْمَدِيرُ لِلْعَالَمِ وَهُوَ أَهْلُ لِعِبُودِيَّةِ الْعِبَادِ.

وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ الْمَفَسِّرِينَ مِثْلُ مَوْلَفِ تَفْسِيرِ (فِي ظَلَالِ الْقُرْآنِ) أَنْ يَعْتَبِرَ التَّفَاتَاتَ مُشْرِكَيِّ الْعَرَبِ إِلَى (تَوْحِيدِ الْخَالِقِيَّةِ) نَاسِيًّا مِنْ تَعْلِيمَاتِ الْأَنْبِيَاءِ كَالنَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>١</sup>. إِلَّا أَنَّهُ لَا ضَرُورَةٌ لِهَذَا الْإِصْرَارِ، حِيثُ يَقُرَرُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ عَنْدَ مَرَاجِعَتِهِ لِلْعُقْلِ وَالْوِجْدَانِ، كَمَا أُشِيرَ إِلَى هَذَا الْمَضْمُونِ فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ<sup>٢</sup>.

إِنَّ الْإِسْتِنَادَ إِلَى مَسَأَلَةِ الْخَلْقِ ثُمَّ التَّسْخِيرِ إِشارةٌ إِلَى مَسَأَلَتِي (الْخَلْقِ) وَ(الْتَّدِبِيرِ) حِيثُ يَكُونُ الْجَمِيعُ بِأَمْرِهِ وَالْمَرَادُ مِنْ (الْتَّسْخِيرِ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ - بِقَرِينَةِ آيَاتِ التَّسْخِيرِ الْأُخْرَى الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - هُوَ اسْتِخْدَامُهَا فِي سَبِيلِ الْمَصَالِحِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَبِعِبَارَةٍ «فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ» مَعَ مَلِاحِظَةِ اشْتِقَاقِهِ مِنْ (افْك) بِمَعْنَى (إِرْجَاعِ الشَّيْءِ عَنِ مَسِيرِهِ الْأَصْلِيِّ) يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ إِشارةً إِلَى أَنَّ الْمَسَارَ الصَّحِيفَ وَالْمَنْطَقِيُّ هُوَ أَنَّهُمْ بَعْدَ إِلَقَارِ بِخَالِقِيَّةِ اللَّهِ وَتَدَبِيرِهِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ «أَنْ لَا يَعْبُدُوا سَوَادَهُ»، إِلَّا أَنَّهُمْ انْحَرَفُوا عَنِ الطَّرِيقِ فَتَعَرَّضُوا إِلَى الْعَوَاصِفِ الْعَاتِيَّةِ لِلشَّيْطَانِ وَالنَّفَسِ الَّتِي رَمَتْ بِهِمْ - كَالْقَشْشَةِ - مِنَ الْطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى التَّيِّهِ وَالضَّلَالَةِ (لَا حَظَ أَنَّ الْمَؤْتَفِكَاتَ تَعْنِي الرِّيَاحَ الْمَضَادَةَ).

١. تَفْسِيرُ فِي ظَلَالِ الْقُرْآنِ، جَ ٦، صَ ٤٢٨.

٢. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ، جَ ٦، صَ ٤٨٨.

في الآية الخامسة استناد خاص إلى كون الأصنام مصنوعة باليد حيث تقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» وذلك لما ورد في الآية السابقة لها عن قول إبراهيم عليه السلام - رمز التوحيد - للمرشكين: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ»؟ ويقول في هذه الآية: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» فلا تستحق أي منها العبادة، بل إن أصنامكم موجودات أحط منكم لأنها مصنوعة بأيديكم.

و «ما» في جملة (وما تعملون) في هذه الحالة تكون موصولة.

وقد احتمل بعض أو أصرّوا على أن اعتبار (ما) هنا مصدرية فيكون معنى الآية: إن الله خلقكم وخلق أعمالكم، في حين لا يتناسب هذا المعنى لأنّه:

أولاًً: إن الله يوبخ الكفار في الآية على عبادتهم للأصنام فلو كان الله خالقاً لأعمالهم فلماذا التوبيخ؟!

ثانياً: إن جملة (ما تعملون) دليل على أنّهم خلقوا أعمالهم، وعليه لا تنسجم معخلق الإلهي.

ثالثاً: في الآية السابقة ورد حديث عن الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم فالمناسب أن تكون (ما) هي المراد هنا، وإلا فإن الآيات تفقد ترابطها، ولذا اختار كثير من المفسّرين التفسير الأول أمثل الزمخشري، في الكشاف والألوسي في روح المعاني، والعالمة الطباطبائي في الميزان وغيرهم.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن تكون الأصنام مصنوعة لله والبشر في الوقت ذاته؟!

يقول الزمخشري: إن موادها مخلوقة لله وصورتها مخلوقة لصانعي الأصنام<sup>١</sup>.

إلا أن الصورة والشكل مخلوقة لله من إحدى الجهات، لأن الله سبحانه أعطى الإنسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة وإن نهاده عن سوء الاستفادة منها.

وأخيراً نواجه في الآية السادسة والأخيرة عبارة جديدة في باب توحيد الخالقية حيث تقول: «أَلَا لَهُ الْخُلُقُ وَالْأَمْرُ» و «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ».

١. تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٥١.

ولا شك في أن الآية دليل على انحصار (الخلق) و(الأمر) في الله عزوجل<sup>١</sup>، وعليه فإن الآية تبيّن (توحيد الخالقية) بوضوح.

ولكن وقع بين المفسرين كلام حول المراد من (الأمر)، فبعض فسّره بمعنى تدبير العالم والأنظمة والقوانين الجارية وذلك بقرينة الآيات الكثيرة التي ورد فيها هذا المعنى نظير (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا). (النازعات / ٥)

والآية: «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِإِمْرِهِ». (الجاثية / ١٢)

الآية: «النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِإِمْرِهِ». (النحل / ١٢)

وآيات عديدة أخرى.

أما بعضهم الآخر فقد اعتبرها بمعنى الأمر التشريعى والدستور الإلهي المقابل للنهى، فيكون معنى الآية: أن الخلق خاص بالله والأمر والدستور التشريعى يصدر عنه أيضاً، مثل: «فَلَيَحْذِرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ». (النور / ٦٣)

وفي تفسير ثالث فسّر (الأمر) بمعنى الإرادة مثل: «إِنَّ اللَّهَ بِالْعُلُوِّ أَمْرِهِ». (الاطلاق / ٣)

وفي تفسير رابع فسّر عالم (الخلق) بعالم المادة، وعالم (الأمر) بعالم المجرّدات وذلك بقرينة قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي». (الاسراء / ٨٥)

والواضح أن التفسير الأول من بين هذه التفاسير أكثر انسجاماً مع الآيات القرآنية الأخرى ومع آية البحث أيضاً، لأن القرآن الكريم يريد أن يذكر المشركين بهذه الحقيقة، وهي أن الخلق وتدبير المخلوقات مختص بالله والشاهد على ذلك قوله: «رَبُّ الْعَالَمَينَ» في ذيل الآية، وعليه فإن الأصنام لا دور لها لا في الخلق ولا في التدبير والربوبية، فلماذا تعبد إذن؟!

## توضيحان

### ١- الخطوة الأولى نحو الشرك في الخالقية

لعل المجنوس ليسوا أول من جعل الله شريكًا في الخالقية، ولكنهم أكثر شهرة من غيرهم على الأقل.

إنهم قسموا الموجودات إلى مجموعتين: حسنة وسيئة (خير وشر) وافتراضوا لكل مجموعة لها (يزدان وأهريمن) أو النور والظلمة، ودليلهم هو أنّ مخلوق الإله تكون له سخالية معه، وعليه لا يمكن أن يكون الإله الخير وإله الشر واحداً، فإله الخير خير، وإله الشر شرّاً!

لو كانت موجودات العالم مقسمة على هذا النحو لامكناً أن يكون الاستدلال صحيحاً، لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد في عالم الوجود إلا الخير، وما يطلق عليه (الشر) أمر عدمي أو أنه ذو جهة نسبية، فمثلاً قول: الفقر شرّ، في حين أنّ الشر ليس إلا فقدان لمستلزمات الحياة، والفقدان أمر عدمي والعدم ليس شيئاً ليكون له خالق.

أو نقول: إنّ لسعة النحل ومخالب الحيوان المفترس شرّ وذلك عندما نجعل أنفسنا محوراً ثم نحكم بهذا النحو، في حين لو نظرنا إلى النحل نجد أنّ الإبرة فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين، والأنياب والمخالب في الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتغذى ولها جانب حيوي بالنسبة إليها فهي إذن خير، وعليه فإنّ الكثير من الموجودات تتخذ صورة (شرّيرة) نتيجة لأفكارنا.

وقد يكون جهلنا هو السبب في اعتبار الأشياء شرّاً وذلك لعدم علمنا بفوائدها، فمثلاً من الممكن أن نعتبر وجود الجراثيم شرّاً لأنّها تسبب الأمراض ولكن إذا لاحظنا نظرية بعض العلماء في أنّ الجراثيم المسببة للأمراض تدعوا خلايا الإنسان إلى معركة دائمة وفيها تكون أكثر نشاطاً ونمواً ورشداً، ولو لا الجراثيم لكان معدل طول الإنسان لا يتجاوز الشهرين ستة، ولأنّه أصبح ذا جسم ضعيف وعاجز، سندع عن ندرك ذلك أنّ إطلاق الشرّ عليها ناشيء من جهلنا، وبخاصة أنّ الذي خلق الجراثيم قد أوجد طرق معالجتها في حالة استفحالها أيضاً.

ونعلم كذلك أن بعض الأدوية في عصرنا الراهن تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُرتب كثيرون من الأفاعي والحيوانات السامة الأخرى، وعلى هذا فإن أبiera وسمومها ليست شرّاً مطلقاً، وستأتي تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع في بحث العدل، بإذن الله.

٦٥٥

## ٢- خطوة أخرى على طريق الشرك

في هذا الموضوع انحرفت مجموعتنا إسلاميتان هما (الأشاعرة) و(المعتزلة) أي المفوّضة، المجموعة الأولى تتبع «أبا الحسن الأشعري» المتوفى عام ٣٢٤ هـ وقد أنكرت التأثير والعلة والمعلول في عالم الخلق إنكاراً تاماً وقوله: إذا كانت النار محرقة فانه مجرد تصوّر ولا غير! فالمحرق الأصلي هو الله، ولكن إرادته حكمت بشكل إذا مسست النار -مثلاً- يد الإنسان فإن الله يوجد الإحتراق مباشرة في يده! وبهذا النحو أنكروا عالم العلة والمعلول تماماً واعتبروا الله تعالى علة لكل شيء مباشرة دون واسطة.

إنهم أنكروا هذه القضية المحسوسة بل والأكثر من المحسوسة<sup>١</sup> بسبب إيمانهم بأن الإعتقداد بوجود عالم الأسباب يخل في توحيد الخالقية.

بسبب هذا الخطأ الكبير تعرّضت مجموعة الأشاعرة إلى انحراف كبير آخر وهو أنّها تعتبر أفعال الإنسان وأعماله مخلوقة الله أيضاً، وهذا أسوء أنواع الجبر!

وبعبارة أخرى أنه شيء أعلى من الجبر لأنّ الأشاعرة يقولون: لسنا نحن الفاعلين للأعمال الصالحة والسيئة بل إنّ الخالق لها كلّها هو الله سبحانه، فهي في الحقيقة أعماله المباشرة لا أعمالنا الجبرية (فتتأمل جيداً)، وفي النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تأثير للأسباب والعلل فحسب بل يعتبرونها مستقلّة في تأثيراتها، فمثلاً أنّ الله خلق بعض الأنبياء والأولياء وأوكل إليهم أمر الخلق، كما يعتقدون أنّ الإنسان مستقلّ

<sup>١</sup>. ليس لقانون العلية بعد حسيّي فقط بل يمكن التوصل إليه عن طريق الوجdan والعلم الحضوري، لأنّ كلّ شخص يرى بوضوح أنّ روحه توجد الإرادة والتفكير.

في أعماله تماماً، وبهذا يعتبرون الإنسان خالقاً صغيراً والله عز وجل خالقاً كبيراً! ولا شك في أن المجموعتين على خطأ، وقد وقعا في لون من الشرك، شرك جلي وصريح، وشرك خفي، فالقلائلون بـ(التفويض) ابتلوا بشرك جلي لأنّهم اعتنقوه بأنّ الإنسان مستقل في أفعاله أو اعتنقوه بأنّ الله قد أوكل إلى أوليائه خلق السماء والأرض وتنحى جانبًا! وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التي تعتبر الله خالقاً لكل شيء ورباً ومدبراً لجميع الأمور، ومن العجيب أنّ الإنسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتبع مثل هذه الأبحاث المنحرفة؟!

أما الأشاعرة فقد ابتلوا بلون آخر من الانحراف والشرك، لأنّهم أنكروا أولاً: أصل العلية في عالم الخلق خلافاً للوجدان والحسن، وثانياً: إذا كان الإعتراف بأصل العلية شركاً فإن الإعتقداد بأصل وجود الإنسان شرك أيضاً، إنّ الإنسان مختار وحرّ في فعله ولكن يجب أن لا ننسى أنّ قدرته وقوته كلّها و حتّى حرية إرادته هي من الله تعالى، فهو الذي أودع كلّ هذه القوى في الإنسان وهو الذي شاء أن يكون الإنسان حرّاً، وعلى هذا فإنّ أعمال الإنسان في الوقت الذي تستند فيه إلى الإنسان فانّها تكون مستندة إلى الله أيضاً، ولا تخرج عن دائرة خلقه، كالإعتقداد بأصل وجود الإنسان فإنه وجود تابع ومتعلّق بغيره، ولذلك لا يستوجب الشرك.

وبملاحظة المثال الآتي يمكن أن تتّضح الحقيقة: إنّ كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية، وهذه الطاقة تجري في شبكة على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة، السائق في مثل هذا القطار حرّ في عمله ولكن في الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذي يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك، فإذا كانه أن يقطع التيار الكهربائي بإرادته فيأتي لحظة شاء وذلك بالضغط على زرٍ معين فيتوقف القطار في مكانه. وبإمكانه - إذن - أن يقول إنّ حرّكت القطار بإرادتي، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الإننان، إلا أنّهما فاعلان طوليان الأولى في المرحلة الأولى والعليا والثاني في المرحلة الثانية والسفلي التابعة، فالفعل يناسب إذن إلى الإنثنين ومع ذلك فإنّ سائق القطار

مسؤول عن عمله وليس بمحير.

وعلية لا يكون الإعتقاد بحرية إرادة الإنسان شركاً في الخالقية.

وبعبارة أخرى: مثلاً يرتبط أصل وجود الإنسان بالله تعالى والإيمان بوجود الإنسان لا يستلزم الشرك فأفعاله كذلك.

والأشاعرة كأنهم يرون أصل وجود الإنسان مستقلاً في حين أن هذا نوع من الشرك، وإلا فإن الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فإن الأفعال التابعة للإنسان لا تكون معارضة للتوكيد أيضاً.

ولا يأس أن يتوضّح هذا البحث بضرب مثال:

جاء إنكار الأشاعرة للعلية والسببية نتيجة لتوهم وقع الشرك، أي إذا اعتبرنا الإحراف من النار فأنهم يقولون: إن هذا شركاً في حين يبقى هذا السؤال: أليس الإعتقاد بوجود أصل النار أمام وجود الله شركاً؟

سيقولون: لا حتماً، لأن هذا الوجود تابع لذاته المقدسة (كالضوء المنبعث من المصباح المتوقف على ارتباطه بالطاقة الكهربائية ويفتاً عند انقطاعها)، ونذكر هنا الكلام ذاته في تأثير الأسباب ونقول: إنها تكون في النهاية تابعة لله تعالى، وقدوة الإنسان و اختياره تابع له أيضاً، وعليه فإن التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً في هذا المجال، فالله خالق كل شيء مع ثبوت أصل العلية والحرية في إرادة الإنسان.

وستأتي إيضاحات أكثر بهذا الشأن في بحث الجبر والإختيار، بإذن الله.



## **ب) توحيد الربوبية**

### **تمهيد:**

إنَّ توحيد الربوبية يعني أنَّ المدير والمدبر والمربي والمنظم لعالم الوجود هو ذات الله المقدسة فقط.

وكلمة (رب) التي هي من صفات الله عزوجل قد تكررت في القرآن الكريم أكثر من غيرها حتى بلغت ٩٠٠ مرة بألفاظ: (رب، ربكم، ربنا، ربّي وأمثالها)، والعديد من الآيات القرآنية تعرّف الله بـ(رب العالمين) ويدل ذلك على أنَّ القرآن يولي اهتماماً خاصاً بتوحيد الربوبية، حيث كان أغلب المشركين يجعلون مع الله تعالى موجودات أخرى تشاركه في تدبير العالم، وأغلبهم - كما أسلفنا - آمنوا بتوحيد الخالقية ولكنهم تورّطوا بالشرك في الربوبية، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الانحراف العقائدي الكبير لدى أقوام مختلفة مكرراً وباستمرار، والشرك في الربوبية طبعاً يكون مصدراً لأنحرافات خطيرة أخرى سنتعرض لها في بحوث مقبلة.

بهذا التمهيد نمعن خاسعين في آيات قرآنية تمثل نماذج من آيات توحيد الربوبية في القرآن الكريم:

- ١- «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (الفاتحة / ٢)
- ٢- «قُلْ أَعْيُّنَ اللَّهَ أَبْيَانًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ». (الأنعام / ١٦٤)
- ٣- «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ». (الرعد / ١٦)
- ٤- «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». (المؤمنون / ١١٦)
- ٥- «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ». (الصفات / ١٢٦)
- ٦- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنٌ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَمَّ»

مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيٍّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قَاتِلٌ أَفَلَا تَتَّعَذُونَ ﴿٣١﴾.

(يونس / ٣١)

### شرح المفردات:

«رب»: له أصل واحد وفروع وشعب كثيرة وموارد استعمال كثيرة.

والأصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التربية وسوق الشيء إلى الكمال، وفي (مقاييس اللغة) ذكر عدداً من الأصول له هي: المصلح والقائم على الإصلاح الملائم والمقيم على الشيء، الإدغام بين الشيئين ولكن كما ورد في (التحقيق في كلمات القرآن الكريم)، فإن هذه ترجع جميعها إلى أصل واحد وهو عبارة عن سوق الشيء إلى الكمال ورفع الناقص في أبعاد مختلفة: مادية ومعنوية، ذاتية وعرضية، وفي الإعتقاد والصفات والأخلاق.

وبما أنّ أداء هذا العمل يقترن بمفاهيم أخرى نظير: الإصلاح، التدبير، الحكومة، المالكية، الصحبة، السيادة، الاجتماع، التعليم، والتغذية فأنّه يطلق على هذه المعاني أيضاً. من هنا ذكرت له كتب اللغة معاني متعددة، فقد جاء في (لسان العرب) مثلاً إنّ (رب) إضافة إلى إطلاقه على ذات الله المقدّسة فأنّه يعني المالك والسيد والمدير والمربي والقييم والمنعم أيضاً، وجواهر الكلام هو أنّ هذه الكلمة تعني في الأصل التربية والسوق إلى الكمال ثم أطلقت على المعاني الملازمة له.

ولكن كما يستفاد من أقوال اللغويين إذا استعملت هذه الكلمة مطلقة فأنّها تستعمل فيما يخصّ الله تعالى فقط لأنّه المالك الحقيقي والمربي والمصلح لكلّ شيء، وإذا استعملت في سوى الله تعالى فالواجب هو أن تكون مضافة مثل (رب الدار) (رب الإبل) (رب الصبي) <sup>للله</sup> .

١. ينبغي ملاحظة أنّ «رب» مشتقة من «رب» في حين أنّ «التربية» مشتقة من «ربو» ويستفاد من التفاسير التي وردت حول كلمة رب في كتب اللغة أنّ (ربو) (رب) لهما تشابه شديد في المعنى وقد اعتبر الطبرسي <sup>للله</sup> في

مجمع البيان ج ١، ص ٢٢، هاتين الكلمتين بمعنى واحد.

٢. راجع، لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ وقاموس اللغة مادة (رب).

إنَّ هذه الكلمة عندما تطلق على الله عزُّ وجلُّ يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أبعاد الربوبية المختلفة أي المالكية والتدبير والإصلاح والتربية والقيمة والإنعام.

«تدبير»: من (دُبْر) ويعني المجيء خلف شيء، والتدبير يعني جعل الشيء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة، العمل الذي لا يمكن إنجازه إلا بالعلم والوعي وبهذا فإنَّ لفظ (مدبر) يطلق على أشخاص يتدبرون عواقب الأعمال ويصلونها إلى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً .

٤٥٥

## جمع الآيات وتفسيرها

**الله سبحانه وتعالى رب العالمين:**

إنَّ الآية الأولى التي نرددتها صباحاً ومساءً تقول: «الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قد تكررت في سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل الله تعالى، وتكون تارة مرتبطة بالدنيا، وأخرى ببيوم القيمة<sup>٢</sup>.

هذه الآية تتضمن في الحقيقة استدلالاً لطيفاً على أنَّ الله عزُّ وجلُّ أهل لكلٍّ حمدٍ وثناء، لأنَّه المربي الحقيقي للعالمين أجمعين، فهو الخالق وهو الرزق وهو المالك وهو المربي وهو المدير والمدير وهو المرشد والمعلم والهادي، واللاحظ أنَّ (الحمد) استعمل كجنس يشمل كلَّ أنواع الثناء، والعالمين). كذلك، فانه جاء على هيئة الجمع المحلّي بالألف واللام فانه يشمل موجودات العالم كلّها من عقلاً وغير عقلاً مادية وغير مادية (واستعمالها بصورة الجمع العاقل فانه من باب التغليب).<sup>٣</sup>

١. مقاييس اللغة والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ومفردات الراغب.  
٢. الانعام، ١٠.

٣. لهذا فانه حينما وصف موسى عليه السلام الله تعالى أمام فرعون بأنه (رب العالمين) سأله فرعون: ومن رب العالمين؟ فأجاب موسى: رب السماوات والأرض وما بينهما.

وعليه إنّ ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربيّة وإنعام في زاوية من العالم فإنّ ذلك قبس من فيضه سبحانه، ومن كان مالكاً فإنّ ذلك شعاع من مالكيته المطلقة، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمد هم ونشتري عليهم يجب أن نحمد الله ونشكر ذاته المقدّسة.

والفارغ الرازى يقدم شرحاً إجمالياً لنعم الله نظراً إلى أنّ الحمد والثناء يكون إزاء النعمة ويقول: «... ثمّ أنّ أصحاب التشريع وجدوا قريباً من ٥ آلاف نوع من المنافع والمصالح التي ذكرها الله عزّ وجلّ بحكمته في تخلیق بدن الإنسان ثمّ إنّ من وقف على هذه الأصناف المذكورة في كتب التشريع عرف أنّ نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى مالم يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط» ثمّ يذكر آثار الروبوبيّة في بقية أنحاء العالم، ويقول: «إنّ هذا المجموع «مجموع نعم الله» مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل، ثمّ إنه تعالى نبه على أنّ أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان أو كما قال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

وحيثئذ يظهر أنّ قوله جل جلاله «الحمد لله» مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقلّ<sup>١</sup>.

المفسّر المذكور تحدّث طبعاً في إطار العلوم السائدة في عصره، وبملاحظة الإكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المختلفة يتّضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد، ففي جسم الإنسان وحده ١٠ ملايين مiliار خلية! كلّ خلية منها تعداد من خدّمه ومشموله بربوبيّة الخالق سبحانه وتسليزم الشكر والحمد، ولو أراد الإنسان أن يعدّ هذه الخلايا ليلاً ونهاراً فضلاً عن حمدّها والثناء عليها لاحتاج إلى ٣٠٠ ألف سنة!

٤٥٦

الآية الثانية التي تناطّب النبي ﷺ تقول: «قُلْ أَعَيْرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ». كيف تريدون الإستقلال لأنفسكم عن النظام العام لعالم الخلق؟ فالله ربّ الموجودات كلّها فكيف لا نعتقد بأنّه (ربّنا)؟ فهل من الممكن أن نجعل شيئاً تحت ربوبية الله شريكاً له

١. تفسير الكبير، ج ١، ص ٦.

ونعتبر المرءوب ربّاً والمخلوق شريكًا للخالق، والعبد في عرض المولى؟ فائي حكم هذا؟! وبملاحظة سعة مفهوم (شيء) الذي يشمل كلّ ما سوى الله سبحانه فإنّ توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة فالله سبحانه يأمر النبي ﷺ ضمن آيتين سابقتين بأن يخاطب المشركين بصرامة: «**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» (انعام / ١٦٢).

لماذا أعبد غيره؟ ولماذا أسجد لغيره؟ وكيف أبقى حيّاً بذكر غيره؟ أو أموت فداءً لغيره؟ في حين أنه وحده هو الخالق والمالك والمربي لي.

ونرى هنا التلامم والتآلف بين (توحيد العبادة) و(توحيد الربوبية) حيث أوجدا خليطاً مربياً للروح<sup>١</sup>.

٤٥٥

في الآية الثالثة خطاب للنبي ﷺ أيضاً ولكن الكلام هنا جاء عن رب السماء والأرض والذي لا يختلف في الحقيقة عن (رب العالمين) و(رب كل شيء) كثيراً، وإن ذكر عبارات مختلفة فتقول الآية: «**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»، لأنّهم ليس بسعهم الإدعاء بأن الأصنام أو المعبدات البشرية وأمثالها مدبرة ومربيّة ومنظمة للسماء والأرض فإن الآية تأمر النبي ﷺ مباشرة: أجب عن هذا السؤال و«**قُلِ اللَّهُ**».

ينبغي لك أن تهجر كلّ ما سواه وتُعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدّسة فقط، واجعل قلبك مرتبطاً به وعفر خدّك له، لأنّ جميع الموجودات لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيرها: «**لَا يَكُونُ لِنَفْسٍ ضَرًا وَلَا نَعْمًا**». (الفرقان / ٣)

٤٥٦

١. «نسك» مفرد وفسره الكثير من اللغويين بمعنى كلّ عبادة في حين فسره البعض بمعنى الهدي ولكن لا توجد آية قرینة عليها بل إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ المراد هو كلّ العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة من قبل العام بعد الخاصّ.

الآية الرابعة تتحدث عن ربوبية الله للعرش ولكنها تبدأ بحاكمية الله وتقول: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلَكُ الْحَقُّ﴾.

وهذه جملة تكمل ما ورد في الآية السابقة لها وفيها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبْثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. (المؤمنون / ١١٥)

ويستفاد منها بأنّه لو لا المعاد والقيامة فإنّ خلق الإنسان يكون عبثاً، لأنّ الحياة لعدة أيام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من الدلائل المهمة للمعاد، سيكون لنا حديث مفصل عنها في بحث المعاد بإذن الله.

ثمّ تضييف الآية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

«ملك»: يعني الحاكم والمالك، ولا يصدق ذلك بمعناه الحقيقي إلا في الله سبحانه لأنّه من شؤون الخالقية ومستلزماتها ولعدم وجود خالق سواه فإنه لا مالك وملك غيره. ولذا تصفه الآية بعبارة (الحق)، ثمّ تحصر المعبد في لأنّ العبادة تليق بالملك الحق وتكلّم ذلك بوصفه بـ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، هذه الصفات الأربع جاءت لدعم عقيدة المعاد والقيامة الواردة في الآيات السابقة.

«العرش الكريم»: إشارة إلى عالم الوجود كله، لأنّ العرش يعني كرسي السلاطين العالمي، وكرسي الحكومة الإلهية كنайه عن مجموعة عالم الخلق وعلى هذا ينسجم مع جملة: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ التي جاءت في الآيات السابقة، واتّصاف العرش بـ (الكرم) الذي يعني الشريف والمفيد والجيد بسبب أنّ كرسي الحكومة الإلهية مصدق كامل لهذه الصفات.

ولكن بعضاً اعتقد أنّ (الكرم) يعني الصاحب الكريم، وأنّ هذا المعنى لا يصدق في العرش فإنّ هذه الصفة تكون لذات الله المقدّسة لا العرش، في حين أنّ كريم يمكن أن يكون وصفاً لغير الموجودات العاقلة أيضاً مثل: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. (الحج / ٥٠) أي كثير الفائدة والشرف.

١. هنا أبحاث مفصلة في معنى «العرش» في اللغة والقرآن الكريم ومنها في تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف وذيل الآية ٣ من سورة يونس.

الآية الخامسة تتحدث عن ربوبيّة الله للبشر وتنقل عن النبي العظيم «إلياس عليه السلام» خطابه لقومه، وفيه وبخّهم على عبادة صنّهم المعروفة بـ(بعل) وقال لهم: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» وأضاف: «الله ربكم ورب آبائكم الأولئين»<sup>١</sup>.

وهذا في الواقع لجميع الوثنين الذين كانوا يبرّرون عبادة الأصنام حينما يسألون عنها بقولهم: إنّ هذه سنة آبائنا ولا نتركها، وفي المقابل استند النبي إلياس عليه السلام إلى هذا المعنى وهو: أنّ اللائق للعبودية هو رب العالم ومدبره والمربي الحقيقى للإنسان، والله ربكم ورب آبائكم وأجدادكم فإذا كان أولئك على خطأ في معرفة المعبود الحقيقى وربّهم فلماذا تسلكون نفس الطريق الخاطئ؟

٤٥٧

### هو المدبر للأمور:

تحدّث الآية السادسة والأخيرة عن تدبیر الأمر بدلاً من استخدام الكلمة (الرب) وهو مفهوم شبيه بالربوبية، وليس عينه تماماً، فتخاطب النبي عليه السلام: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

من الذي سخر لكم نور الشمس الضروري لوجودكم والأمطار التي تنزل من السماء لتهب الحياة في كلّ مكان والهواء الذي تتنفسونه فيمنحكم طرافة ولطافة؟ وهكذا النباتات التي تنبت في الأرض، وتتوفر المواد الغذائية والفواكه اللذيذة والمعادن الشمينة التي تستخرجونها من باطن الأرض، من الذي أعطاها لكم؟ هل هذه الأرزاق من الأصنام؟!

ثم تذكر الآية جسم الإنسان وتشير إلى مجموعتين من أهمّ أعضائه بعنوان الطريق الأصلي في ارتباط الإنسان مع العالم الخارجي والمبدأ الأساس للعلوم والأنفكار حيث تقول: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ»، ثم تتناول أهمّ ظاهرة في عالم الخلقة وهي قضية

١. «الله» منصوب لأنّه بدل من «أحسن الخالقين» في الآية السابقة وقال بعض إنّه عطف بيان.

الحياة والموت وتقول: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، فهل هذا من فعل الأصنام أيضاً؟!

والآية في آخرها بعد ذكر المسائل المهمة الثلاث (الأرزاق السماوية والأرضية، السمع والبصر، الحياة والموت) تذكر القضية بصورة كلية وجامعة وتقول: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾. ومن المسلم به أنّهم لو راجعوا عقولهم وضمائرهم لم يكن لهم جواب إلّا أن يقولوا الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

ثمّ تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمسكاً وقل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

إنّ جميع الأرزاق المعنوية والمادية للإنسان وتدبير العالم كله قد اجتمعت في الحقيقة في هذه الآية، فإنّ الأرزاق المادية إمّا تكون من السماء أو من الأرض، والأرزاق المعنوية عادةً تكون عن طريق البصر والسمع للذين ينقلان العلوم الحسّية والعقلية والنقلية إلى الإنسان، وتدبير العالم يشمل هذه كلّها وغيرها، فمن يستطيع أن يدّعى أنّ العباد الضعفاء أو الموجودات الحقيرة كالأصنام هي الحالقة لهذه الأرزاق والمدير لهذه الأمور؟ إنّ توحيد الربوبية ليس قضية معقدة حتّى بالنسبة لعباد الأصنام فيما لو فكروا قليلاً.

والتعبير بـ(يملك السمع والأبصار) يمكن أن يكون إشارة إلى خلقها أو حفظ نظامها وتدبيرها أو هذه الأمور كلّها.

٣٥٧

من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها في القرآن الكريم وهي كثيرة وواسعة نحصل على هذه الحقيقة، وهي أنّ القرآن الكريم يعرّف الله القادر المتعال بأنّه هو المالك والمربي والمدير لعالم الوجود كله وكلّ شيء، وكلّ موجود في السماء والأرض والعرش والكرسي والبشر في الزمان الحاضر والماضي، ونقول بصرامة لا ربّ عالم الوجود غيره.

## توضيحات

### ١- التوحيد يعني حذف الوسائل!

من خلال مطالعة دقيقة للآيات القرآنية نستنتج أنَّ القرآن يصرُّ مُؤكّداً بأنَّ لا يضيع الناس بين الوسائل وعليهم أن يتوجّهوا إلى ذات الله المقدّسة مباشرةً، ويتحدّثوا معه ولنتعلق قلوبهم به وحده ولا يعبدوا غيره، والتعبير بـ(رب العالمين) في سورة الحمد والسور القرآنية الأخرى إشارة إلى هذه الحقيقة، وتكرار ذكر الركوع والسجود (سبحان ربِّ العظيم) و(سبحان ربِّ الأعلى) كلَّه لبيان هذه الحقيقة وهي: ليس خلقنا بيده فحسب بل وبقاونا وتربيتنا وتكاملنا وتدبير أمورنا.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بدقةٍ وهو أنَّ (الخالق) و(الربُّ) لا يمكن أن ينفصلا، ولو دققنا جيداً في الإنسان لوجدنا له خلقاً جديداً في كل لحظة، وكل ذلك منه سبحانه. إنَّ موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقيرة وهو الغني المطلق من كل جهة.

وتاريخ الديانات يشير إلى أنَّ البشرية بسبب التيه في الوسائل والخرافات التي ابتليت بها، وكم من الموجودات المنحطَّة التي جعلتها آلهة تحكم بمصائرها، وهذا التعدد في الأرباب والآلهة قد جلب للبشرية كلَّ هذا التفرق والاختلافات والشقاء.

ولكن عندما نهجر هذه الوسائل ونعتبر أنَّ الله هو الربُّ المطلق كما تقول الدلائل والبراهين العقلية، نعرف أنَّ كلَّ شيء محتاج إليه فإنما سنصل إلى مبدأ النور والعظمة والوحدة والوحدانية.

ولذا فإنَّ صفة (ربُّ) تكررت أكثر من ٩٠٠ مرّة في الآيات القرآنية ولم تتأكد صفة أخرى من الصفات الإلهية إلى هذه الدرجة.

وفي الحقيقة يجب معرفة ومطالعة الإخلاص في توحيد الإسلام قبل كلَّ شيء في هذا التوحيد الربوي.

### ٢- تاريخ الديانات وخرافة الوسائل

كلَّما تعمقنا في دراسة تاريخ المذاهب والديانات تتجلّى أمامنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر

وهي شیوع الشرك و تعدد الآلهة (الإله بمعنى الرب) بين المجتمعات البشرية المختلفة منذ أقدم العصور بشكل أوسع، ولو قمنا بجمع أسماء هذه الآلهة وعوائق المجتمعات البشرية المختلفة لحصلنا على كتاب مفصل مليء بالعقائد العجيبة والغريبة والخرافية، ولا بأس في الإشارة إليها بصورة مختصرة، ليطلع القراء على تلك القصة الطويلة من خلال هذه المقدمة المتواضعة.

### أ) آلهة الروم

كتب أحد المؤرخين الغربيين بهذا الصدد: «لم تكن الديانة الرومية تشابه ما نصلح عليه «دين» أبداً، ولم تتضمن أي تشريع لمعتقidiها، ولم تكن بصدق إصلاح التفسّخ الأخلاقي بين الناس، بل كانت تعلمهم أفضل السبل لاكتساب رضا الآلهة وعونها... وكانت آلهة الروم كثيرة جداً مما جعل كل إله يحظى باتجاه معين! وله دور في قضية معينة، فلم يكن لأبواب البيوت إله فحسب، بل والعتبة منها وقواعدها كانت لها أرباب، كما أن هناك آلة مستقلة تتولى أمر المحافظة على كل فرد من أفراد البشر، فوجود رب النوع الخاص الذي يعلم الطفل أول صرخة، وأخر يعلمه شرب الماء، وأخر يعلمه الخروج من البيت وأخر يعلمه كيف يرجع! وهناك إله خاص لحراثة الأرض وإله آخر خاص بالزراعة وأخر لبذر البذور (أعداد كبيرة من الآلهة)، ولا عجب في أن يكون للروم (٣٠) ألف إله! حتى أن أحد شخصياتهم مازح بقوله: إن آلهة بلادنا في الشوارع والمجتمعات هي أكثر من أفراد شعبنا!».<sup>١</sup>

### ب) آلهة اليونان

ويكتب ذلك المؤرخ أيضاً: (لقد اعتقاد المجتمع اليوناني - كالكثير من الأمم - باللوهية الظواهر الطبيعية كلها تظير الشمس والرعد والمحيطات والأعاصير والأنهار والعيون

١. تاريخ البرمالة، تاريخ الروم، ج ١، ص ٢٩ و ٣٠، (علامة التعجب من).

والرياح والأمطار، وقام بعبادتها واعتقد أنّ هذه الآثار تنشأ من وجود خفي، واعتقد أنّها منشأ الخير والشرّ ومن هنا قام بعبادتها كي يحصل على كرمها أو يدفع الشرّ بها. ثمّ يذكر إله اليونان المعروف وهو (زيوس) ابن (كرونوس) وهو المتصرّ لديهم على شكل إنسان، له الهيمنة التامة والجبروت ذو جبهة عريضة وشعر كثيف ولحية كثّة طويلة على شكل حلقات!

كان زيوس رب الأرباب وإله البشر في اليونان ويحيطه عدد كبير من الآلهة وأرباب الأنواع، وكانت زوجة زيوس (هيرا) تعيش في السماء.

ويعتقدون أنّ لزيوس أبناء ثلاثة هم: (هرمس) و(آرتميس) و(آبولون) وهم على التوالي مظاهر المطر ورب النوع للقمر والشمس! كما اعتنقوا بالله عديدة أخرى نظير آلهة البحر وألهة الأرض وألهة جوف الأرض وألهة العمل<sup>١</sup>.

### ج) آلهة مصر

أغلب المصريين القدماء اعتنقوا بديانة تؤمن بتعدد الآلهة، واعتقدوا أنّ إلهاً واحداً هو أعلى من الآخرين عرف به (إله الآلهة).

في مصر القديمة كان للناس في كلّ منطقة آلة ومعبد خاص تجاوزت الـ ٢٠٠ معابوداً تسعة منهم يحظون بذكر أكبر، أحدهم إله الشمس، ثمّ إله الهواء، وإله الفضاء والفراغ، وإله الأرض وهكذا هناك إله الصحراء والأراضي الخصبة والموات<sup>٢</sup>.

يقول المؤرّخ الشهير ويل دبورانت في (قصة الحضارة):

«لم تكن في العالم منطقة تناظر مصر في تعدد الآلهة، وكان المصري يعتقد أنّ الخلق ابتدأ من السماء، وكانت سماء نهر النيل أعظم ربّ الأنواع.

١. تاريخ آبرمان، تاريخ أمم الشرق، ج ٢، من ص ١٧١ إلى ص ١٧٩ (باختصار).

٢. الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٤٦.

وقد اعتقاد المصريون بأنّ كواكب السماء ليست أجساماً فحسب بل إنّها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء والحيوان والنبات، وقد بلغت حداً أصبحت فيه المعابد المصرية معارض للحيوانات المختلفة»<sup>١</sup>.

#### د) آلهة ایران

إعتقد الإيرانيون قديماً بالثنوية ثمّ بتعدد الآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة (امشايسندان) أو الآلهة الستّة، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء، إله النار، إله المعادن، إله الأرض، وإله المياه والحيوانات وإله الثوابت والسيارات السماوية<sup>٢</sup>.

#### ه) آلهة الصين

إعتقد الصينيون القدماء أيضاً بأنّ العالم يحكمه أصلاح أحدهما (المذكر) أو (الموجب) أو (النور) والآخر (الأثنى) أو (السالب) أو (الظلام) وتبعه التفكير بالثنوية (شانكتي) وهو فعل مظهر لأصل الذكورة وكان يدعى إله الأفلاك، واعتقدوا أنه هو الذي يجازي الإنسان على أعماله الصالحة والسيئة في هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العام. وكانت (هاتن) إلهًا مؤنثًا ويشنى عليه، ثمّ ظهرت آلهة أخرى تدريجياً وتبديل الشنوية إلى تعدد الآلهة، إله الخصوبة، إله المطر، إله الرياح، إله الشجر، إله النار، إله الجبل و...<sup>٣</sup>.

#### و) مشركو العرب

يؤكّد بعض المؤرّخين والمفسّرين بأنّ العرب كانوا يعتقدون بأنّ الخالق والرّزاق والربّ والمدبر للعالم إله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدث عن إقرارهم في قضيّة خالقية الله ورازقيته، وعليه فإنّ عبادة الأصنام بينهم لم تنشأ من الإعتقاد بتعدد الآلهة، بل من

١. تاريخ الحضارة، ويل دورانت، ج ١، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ (باختصار).

٢. الإسلام والعقائد والأراء البشرية، ص ٣٤ (باختصار).

٣. المصدر السابق، ص ١٥٧.

اعتبارهم الأصنام ذات مقام ومكانة عند الله يرجون منها الشفاعة والقرب من الله، حتى اعتقاد البعض منهم أنَّ إلى جانب كلِّ صنم شيطان موكول به من قبل الله، وكلَّ من يعبد الصنم حقَّ عبادته فإنَّ ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من الله!!<sup>١</sup>

ولا يمكن إنكار أنَّ طائفة من العرب كانت ترجمَّح عبادة النجوم، وتعتقد أنَّ كواكب خاصة حين الغروب والشروع تقوم بإزالة المطر وقد عبروا عنها بالأنواع) وهو جمع نوء يعني النجم الذي يميل إلى الغروب، وقد اعتقدوا بارتباط الحركة والسكون والسفر والإقامة بهذه النجوم (واعتقدوا بتتأثيرها على مصائرهم) وقد شيدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب .<sup>٢</sup>

وفي اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد أشار القرآن الكريم إليها في قصيدة ملكة سبا، وطائفة أخرى عبدت القمر، وأخرى عبدت نجمة الشعراء، كما عبدت قبائل أخرى نجوماً أخرى .<sup>٣</sup>

### ز) آلهة بلدان أخرى

في بلدان أخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الإعتقاد بأرباب الأنواع والآلهة المتعددة، كما اعتقاد الصابئة (عبد النجوم) بأنَّ السيارات السبع هي التي تحرس الأقاليم السبعة وتحافظ عليها (حيث قسموا الأرض قديماً إلى سبعة أقسام أطلق على كلِّ قسم منها إقليم)<sup>٤</sup> واعتقدوا أنَّها مبدأ الخيرات ودافعة للأضرار عن أهل الأرض.  
والإعتقاد بـ(توتم) الذي ساد في مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً للاعتقاد برب الأنواع أيضاً، حيث كان لكلَّ قبيلة (توتم) بمثابة الأب وروح القبيلة واعتقد بأنه على صورة الحيوانات أو ما شاكله.

١. بلوغ الأربع، ج ٢، ص ١٩٧.

٢. المصدر السابق، ص ٢٢٣.

٣. الإسلام والجاهلية، ص ٢٩٥.

٤. يمكن مراجعة معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧ للمعرفة التفصيلية بالأقاليم السبعة وحدودها.

### ح) الإعتقاد بالمثل الأفلاطونية

إفترض أفالاطون لكلّ نوع من أنواع عالم الطبيعة فرداً مجرّداً عقلياً، واعتقد أنه قائم بالذات وبما أنّ هذه الأفراد المجرّدة اعتبرت أمثalaً ومظاهر لأسماء وصفات الله وشبيهه للأنواع الطبيعية فقد أطلق عليها عنوان (مثال) وجمعه مُثُل على وزن رسول.

إعتقد أفالاطون أنّ ما له الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذي لا يتغيّر ومجرّد من الزمان والمكان وأبدي وكلي، وأمّا هذه الأجسام الجسمانية والمادية التي نشاهدها متعدّدة وذات زمان ومكان وفانية فإنّها إنعكاس لتلك، وعليه تكون نسبة الإنسان الجسماني لمثاله هو نسبة الظل إلى ذي الظل.

ولأفراد الإنسان قسط من الحقيقة ما يناسب قربها من المثال، ومن هنا اعتبر أفالاطون العالم المحسوس مجازاً وعالم المعقولات حقيقة.<sup>١</sup>

إنّ الإعتقاد بالمثل اليونانية وإن تغاير مع الإعتقاد بأرباب الأنواع لكنّه لا يخلو من تشابه من عدة جهات ويعتبر شكلاً فلسفياً من أرباب الأنواع اليوناني.

كما أنّ الإعتقاد بالعقل الفلكلية المجرّدة له تشابه مع أرباب الأنواع من جهة.

وإيضاحه: أنّ جماعة من الفلاسفة اعتقدوا بأنّ الله - بسبب بساطته من كلّ جهة - له مخلوق واحد لا أكثر، وهو مخلوق مجرّد أطلقوا عليه (العقل الأول) ثمّ اعتقدوا بأنّ العقل الأول لتركّبه من وجود وماهية فهو الخالق للعقل الثاني والفلك الأول، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة أفلاك!

وقد اعتقد البعض منهم أنّ عدد العقول لا حصر لها، كما اعتقدوا بـ(العقل العرضية) إلى جانب العقول الطولية (العقل العشرة التي يكون أحدها مخلقاً للآخر)، واعتبروها وسائل لفيض الصور النوعية والمرتبة العليا للموجودات الجسمية (مثل أرباب الأنواع والمثل الأفلاطونية)، ولكلّ مفردة من هذه المسائل بحوث مطولة ننصرف عنها لأنّها خارجة عن موضوع بحثنا.

١. كليات الفلسفة الإسلامية وسير الحكم في أوربا وكتب أخرى.

المهم هنا هو أن نعلم بأنَّ القرآن الكريم واجه هذه الأفكار كلُّها وفي هذا الوسط الواسع من الأفكار العجيبة والغريبة والملووقة بالشرك وأمام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التي تُشمِّ منها رائحة الشرك قام بعرض توحيد خالص في مسألة الخالقية وتدبيير العالم وربوبيته وهو بحقٍّ من معجزات القرآن الكريم.

لقد أبطل القرآن هذه الآلهة الوهمية وربَّ الأنواع الخيالية وعرف (الله عز وجل) كربلاً للعالمين فقط، واعتبر كلَّ شيء وكلَّ إنسان مخلوقاً له وتحت تربيته وتدبيره، وقام بإفاضة الصفاء على قلوب البشر وأرواحهم بنور الوحدة ووجهه أنظار البشر المشتتة إلى ذلك الواحد الأبدى.

أجل، إنَّ دراسة تلك العقائد المشووبة بالشرك ومطالعتها تفصح عن قيمة التوحيد الإسلامي في منظار أتباع الحقّ.

والطريف أنَّ الإسلام قد انبعث من أجواء لا يتحكم فيها سوى الجهل، وكان الشرك يفرض قوَّته على عقول الناس، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجزيرة العربية متخلقاً عنها، فقد أشرنا سالفاً إلى أنَّ الفلاسفة والمفكِّرین كانوا متورِّطين بلون من الأفكار المشووبة بالشرك.

ويدلُّ ذلك على أنَّ طريق التوحيد الأصيل ليس أمراً يسمح للإنسان أن يسير فيه بنفسه، بل لا بدَّ من يد غيبية تمتَّدُ إليه عن طريق الوحي، ومن أنبياء يقودونه من وادي الظلمات ويوصلونه إلى معين التوحيد الخالص.

٤٥٥

### ٣- التفويض لون من الشرك

بالرغم من أنَّ للتفسير معاني مختلفة تبلغ سبعة عند بعض، وجود بحوث واسعة مرتبطة به، إلا أنَّ من اللازم التذكير بأنَّ جماعاً من المسلمين القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأنَّ الله تعالى خلق النبي ﷺ والأئمة المعصومين علية السلام ثمْ أوكل إليهم

أمر الخلق والرزق والموت والحياة لسائر الموجودات في العالم.

وأفضل ما قيل عن هذه العقيدة هو ماذكره العلامة المجلسي رحمه الله في مرآة العقول: «ثم أعلم أن التفويض يطلق على معانٍ بعضها منفي عنهم عليهم السلام وبعضها مثبت لهم، فال الأول: إن التفويض في الخلق والرزق والتربيـة والإماتـة والإـحـيـاء، فإن قوماً قالوا: إن الله خلقهم وفـوض إلـيـهم أمرـ الخـلـقـ فـهم يـخلـقـونـ وـيرـزـقـونـ وـيـحيـيـونـ وـيـمـيـتـونـ وهذا يـحـتمـلـ وجهـينـ أحـدـهـماـ:ـ أنـ يـقـالـ:ـ إـنـهـمـ يـفـعـلـونـ جـمـيعـ ذـلـكـ بـقـدـرـ تـهـمـ وـإـرـادـتـهـمـ وـهـمـ الـفـاعـلـونـ لـهـاـ حـقـيقـةـ وـهـذـاـ كـفـرـ صـرـيحـ،ـ دـلـلـتـ عـلـىـ اـسـتـحـالـتـهـ الـأـدـلـةـ الـعـقـلـيـةـ وـالـنـقـلـيـةـ وـلـاـ يـسـتـرـيـبـ عـقـلـ فـيـ كـفـرـ مـنـ قـالـ بـهـ.ـ وـثـانـيـهـمـاـ:ـ إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ يـفـعـلـهـاـ مـقـارـنـاـ لـإـرـادـتـهـمـ كـشـقـ الـقـمـرـ وـإـحـيـاءـ الـمـوـتـىـ وـقـلـبـ الـعـصـاـ حـيـةـ وـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـعـجـزـاتـ،ـ فـانـهـاـ جـمـيعـهـاـ إـنـمـاـ تـقـعـ بـقـدـرـ تـهـمـ سـبـحـانـهـ مـقـارـنـاـ لـإـرـادـتـهـمـ لـظـهـورـ صـدـقـهـمـ فـلـاـ يـأـبـيـ الـعـقـلـ مـنـ أـنـ يـكـوـنـ اللـهـ تـعـالـىـ خـلـقـهـمـ وـأـكـلـهـمـ وـأـهـمـهـمـ مـاـ يـصـلـحـ فـيـ نـظـامـ الـعـالـمـ ثـمـ خـلـقـ كـلـ شـيـءـ مـقـارـنـاـ لـإـرـادـتـهـمـ وـمـشـيـتـهـمـ،ـ وـهـذـاـ وـإـنـ كـانـ الـعـقـلـ لـاـ يـعـارـضـهـ بـتـاتـاـ لـكـنـ الـأـخـبـارـ الـكـثـيـرـةـ مـمـاـ أـوـرـدـنـاـهـاـ فـيـ كـتـابـ (ـبـحـارـ الـأـنـوـارـ)ـ يـمـنـعـ مـنـ القـولـ بـهـ فـيـمـاـ عـدـاـ الـمـعـجـزـاتـ ظـاهـراـ بـلـ صـرـيـحاـ»<sup>١</sup>.

وعليه فإن الاحتمال الثاني غير محال عقلاً، إلا أن الأدلة النقلية لا ترضيه، وقد كثرت الأمور التي ليست محالة عقلاً ولكن الشرع يرفضها، فمن الممكن - مثلاً - أن يكون عدد الأنبياء أو الأنemic أكثر من المعروف إلا أن الأدلة النقلية قد حددت أعدادهم بما نعلمه.

وهناك احتمال ثالث وهو أن الله عز وجل يوهب النبي أو الإمام قدرة يستطيع بها إحياء الميت أو إبراء المريض من مرضه المستعصي بإذنه والظاهر من الآيات القرآنية حول السيد المسيح هو ما ذكرنا، وهذا كلّه ممكن أيضاً بالنسبة للمخصوصين، ولكن كما وردت في العبارات المذكورة تكون هذه المسألة في إطار المعجزات والكرامات فقط، لا في مورد خلق السماء والأرض وتدبير أمور الكائنات، لأن القرآن الكريم قد صرّح في حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية في الله عز وجل، والآيات التي ذكرناها في هذا الفصل حول

١. مرآة العقول، ج ٣، ص ١٤٣ (باختصار).

التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى.

وبما أنّ الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من الخلق وبما أنّ المعصومين هم أفضل البشر، يمكن القول أنّ عالم الوجود قد خلق من أجلهم، وبتعبير آخر، أنّهم بمثابة العلة الغائية لعالم الوجود.

٤٥٦

#### ٤- هل أنّ الملائكة تدبّر الأمور؟

يُقسّم القرآن الكريم في سورة النازعات الآية ٥ بـ(المدبرات أمراً)، والمشهور بين المفسّرين هو أنّ الملائكة هي التي تدبّر أمور العالم، فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية؟ الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فلو كانت الملائكة لها الإستقلال في التأثير لم يكن ذلك منسجماً مع توحيد الربوبية ولكنّا نعلم أنّها منفّذة للأمر الإلهي وقد أوكلت إليها الأمور بإرادته ومشيّنته نظير الأسباب في عالم الطبيعة التي لها تأثيراتها بأمر الله.

وقد لاحظ الكثير من المفسّرين هذه النقطة في هذه الآية ولم يجدوا تناقضًا بين القول بأنّ الله (رب العالمين) و(رب كلّ شيء) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبّر الملائكة بإذن الله، فكما ينصّ القرآن الكريم على أنّ الرازق لجميع الموجودات هي الذات المقدّسة لله عزّ وجلّ: «وَمَا مِنْ دَائِيَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا».

(هود / ٦)  
في حين يقول في موضع آخر: «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِشْوَهُنَّ  
بِالْمَعْرُوفِ».

ومن المسلم به أنّ إطلاق الرازق على والد المولود لا يتنافى مع إطلاقه على الله سبحانه، فهذا مستقلّ بالذات وذلك بالعرض والتبع.

عندما نقول: إنّ في العسل شفاء: «فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ».

(النحل / ٦٩)  
فإنّ ذلك لا يتنافى مع أنّ الشافي هو الله فقط، كما يقول رمز التوحيد، إبراهيم عليه السلام: «وَإِذَا  
مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ».

(الشعراء / ٨٠)

هذه كلّها تبيّن سلسلة العلة والمعلول، أي تبدأ بالعلة غير المستقلّة حتّى تصل إلى علة العلل ومسبّب الأسباب، أي الذات المقدّسة لله تبارك وتعالى حيث يكون كلّ سبب مدیناً له في تأثيره.

٤٥٥

## ٥ - «توحيد الربوبية» في الأحاديث الإسلامية

لقد انعكس هذا المضمون بصورة واسعة في الروايات والأدعية المأثورة عن المعصومين: ومنها الأدعية المختلفة التي وردت في الجزء الثاني من أصول الكافي، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الأدعية: «اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع... رب العرش العظيم... رب المشعر الحرام ورب البلد الحرام ورب الحل والحرام... الحمد لله رب الصباح... رب الملائكة والروح.. رب المستضعفين.. رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ورب القرآن العظيم ورب محمد خاتم النبيين»<sup>١</sup>.

كما وردت هذه التعبيرات في روايات أهل السنة<sup>٢</sup>.

وعليه فلا رب للسماء والأرض والملائكة والنبيين والأغنياء والمستضعفين والصباح والمساء والكعبة ومكة والعرش العظيم إلا الله القادر الواحد.

والتنسيق في شؤون الكون وتنفيذ الأنظمة الحاكمة عليه دليل واحد على وحدة المدبر، ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للزنديق الملحد الذي سأله عن وحدانية الله عزّ وجلّ: «فلما رأينا الخلق منتظمًا، والفلك جاريًا، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحة الأمر والتدبر واثبات الأمر على أن المدبر واحد»<sup>٣</sup>.

٤٥٦

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٥١٤ - ٥٨٥.

٢. للمزيد من الإيضاح راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج ٣، ص ٢٠٧.

٣. توحيد الصدوق، ص ٢٤٤، باب ٣٦ (باب الرد على الشنوية والزنادقة).

## ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية)

تمهيد:

من الأقسام المهمة الأخرى لـ(توحيد الأفعال) هو التوحيد في المالكية، ويعني أنَّ المالك الحقيقي تكويناً وتشريعاً هو الذات الإلهية المقدسة، والمالكيات الأخرى مجازية وغير مستقلة.

إيضاح ذلك: أنَّ المالكية على قسمين: مالكية حقيقة (تكوينية) ومالكية حقوقية (تشريعية).

المالك الحقيقي هو من له السلطة التكوينية والخارجية على الأشياء، وأما المالكية الحقوقية والتشريعية فأنَّها العقود التي تمضي عليها السلطة القانونية نظير مالكية الإنسان لأمواله.

والقسمان من المالكية لله تعالى في الدرجة الأولى من منظار الموحد لعالم الوجود، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع الأشياء في الكون، لأنَّ الموجودات كلُّها منه و تستمدُ منه فيض الوجود آنَّا بعد آنَّ، والجميع تبع له، وبهذا ثبت مالكيته الحقيقة على كلِّ شيء من كلِّ جهة.

وأما المالكية القانونية فإنَّ كلِّ شيء له لأنَّه الخالق وال موجود لجميع الأشياء، بل حتى ما صنعه فأنَّه هو الذي أعطانا وسائل الإنتاج كلُّها، وعليه: فإنَّ المالك الأول في الحقيقة هو الله، وإنَّ مالكيتنا ما هي إلَّا وديعة ل أيام معدودة.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لتأمل خاسعين في الآيات التالية:

١- «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(آل عمران / ٢٦)

- ٢- «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ». (بقرة / ١٠٧)
- ٣- «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ فَإِنَّا تُصْرَفُونَ». (زمر / ٦)
- ٤- «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ». (بقرة / ٢٤٧)
- ٥- «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعَيْرٍ». (فاطر / ١٣)
- ٦- «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَأَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِسْتَقَالَ دَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ». (سبأ / ٢٢)

### شرح المفردات:

(الملك) بناءً على ما ورد في المقاييس هو في الأصل: القوّة على الشيء، ولذا ورد التمليل بمعنى التقوية، ثم استعمل هذا التعبير في ما يصبحه الإنسان من أشياء وذلك لماله من قدرة وقوّة عليها.

ولذا يطلق على الماء الذي يحمله المسافر (ملك)، لأنّ المسافر الذي يصطحب الماء (خصوصاً في الصحاري الحارة) يكون قويّاً ومهيمناً على عمله.  
 «ملك»: هو السلطان لقدرته في بلاده.  
 «ملكت»: يعني العزة والسلطنة.

«إملاك»: في العربية يعني الترويج، لاعتبارهم الزوجة ملكاً لهم!  
 وأخيراً (ملكة) هي الحكومة وعزّة السلطنة، ومن ثم أطلق على الوطن.

١. وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة أخرى حول هذا الموضوع متفقة مع الآيات أعلاه مثل: المائدة، ١٧-١٨.  
 ٢. -٤٠؛ الأعراف، ١٥٨؛ التوبة، ١٦؛ الإسراء، ١١؛ النور، ٤؛ الفرقان، ٢؛ ص، ١٠؛ الزمر، ٤؛ الشورى، ٤؛  
 الخرف، ٨٥، وغيرها.

## جمع الآيات وتفسيرها

**الله مالك الملائكة:**

قال المفسرون: إن الآية الأولى نزلت بعد فتح مكة، أو حينما كان النبي الكريم ﷺ مشغولاً بحفر الخندق قبيل معركة الأحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد اعتبر المنافقون ذلك تخيلات وتكهنات وتشبيهات بالحالات<sup>١</sup>.

وفي هذه الآثناء نزلت الآية المذكورة وأندرت الجهلاء بأن الله مالك كلّ البلدان حيث قالت: «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذْلِّلُ مَنْ تَشَاءُ» وليس الحكومات فقط وليس العزة والذلة بل: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>٢</sup>.

وقدرة الله عزّ وجلّ على كلّ شيء هي - في الحقيقة - دليل حاكميته على الأرض والسماء.

ومن الواضح أنّ لمالكية الله بعدها عاماً وحقيقة، في حين ما جاء في المورد الآخر في جملة: «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» يكون له بعد جزئي ومجازي.

ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتواهات الرسول الأكرم ﷺ أو عزة المؤمنين وذلة اليهود وما شاكل - كما يعتقد بعض المفسّرين - بـ«أنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الحكومات وكلّ عزة وذلة، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة، والجملة الأخيرة: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» هي في الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الإلهية العامة والمطلقة. واضح أنّ المشيئة والإرادة الإلهية التي استند إليها في هذه الآيات لا تعني أنّ الله يعزّ أو يذلّ أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب، بل إنه وضع في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئته وإرادته.

١. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٢٧؛ وتفسير الكبير، ج ٨، ص ٤.

٢. قال بعض الغوينين: الخير والإختيار لها مادة واحدة، والحسنات خير لأنّ كلّ إنسان يختارها (التحقيق، المفردات، تفسير الميزان في ذيل آية البحث).

فحينما يوفّق المسلمين يوماً لفتح الأندلس وهي بوابة أوربا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فإن ذلك حديث وفق تلك الأسباب التي هي مظاهر لمشئته الإلهية. وعندما يتسلط أمثال يزيد وجنجيز خان على الناس فعلّه نتيجةً لأعمال الناس أنفسهم حيث إنهم يستحقون مثل هذه الحكومات فقد ورد: «كيفما تكونوا يولّى عليكم». من هنا يتضح الجواب على الأسئلة التي تطرح حول آية البحث وليس بحاجة إلى توضيح أكثر.

٤٥٥

الآية الثانية تنظر إلى الإشكالات الواهية التي أثيرت من قبل اليهود حول تغيير القبلة بقولهم: هل بإمكان الله أن ينسخ حكماً ويحلّ حكماً آخر محله؟ وأن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للکعبه؟ فتقول: **﴿أَلمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**. وعليه هل يكون عجياً أن يقوم مثل هذا الحاكم العظيم بنسخ حكم؟ إنه ليس مطلاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمة أيضاً وهو مالك التدبير والتصرّف المطلق في الكون وفي عباده.

ولذا تضيف الآية في ذيلها: **﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ﴾**. إنه يعينكم في ضوء علمه بالمصالح والمفاسد وفي ظل حاكميته يسّن القوانين، ثم أن الله تعالى ليس له مكان لكي تتوجّهوا إليه في الصلاة، وعليه فإن قيمة المكان المتّخذ كقبلة - مع أنّ الكون بأسره ملك له - ناشئة من أمره بذلك.

وقد ورد وصف الله تعالى بأنه (ولي) و(نصير) في القرآن بكثرة، ويمكن أن يكون الاختلاف بينهما من جهتين: الأولى أنّ (ولي) يعني حافظ المصالح و(نصير) هو الذي ينصر الإنسان على عدوه، والأخرى: أنّ (ولي) هو الذي يؤدّي عملاً لشخص تحت ولايته، ولكن (نصير) هو الذي يعين الإنسان ليتغلّب على مشكلته.

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة إلى خلق الإنسان والحيوانات والتطورات العجيبة

تقول: «**ذلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ**»، فهو الخالق وهو المربّي ولذا فهو المالك والحاكم، ثم تجعل الآية هذه القضية مقدمة لإثبات توحيد العبادة وتضييف: «**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُصْرَفُونَ**».

فيما أيّها الغافلون الجاهلون ويأيّها التائهون في وادي الضلال! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الإعتراف بخالقية الله وربوبيته ومالكيته؟! هذا الجزء من الآية يثبت في الحقيقة (توحيد العبادة) استناداً إلى (توحيد الحاكمة) الله تعالى وحاكميته بالإسناد إلى مسألة الخلق التي يذعن حتى المشركون بأنّها مختصة بالله عزّ وجلّ.

٤٥٦

الآية الرابعة تنظر إلى قصّة طالوت وجالوت، فقد كان جالوت جباراً و مجرماً وحاكمًا على بنى إسرائيل وقد آذاهم كثيراً.

وقد قام النبي (اشموئيل)<sup>١</sup> بطلب من بنى إسرائيل بتنصيب (طالوت) الذي كان من القرويين الفقراء قائداً للجيش وحاكمًا على بنى إسرائيل!

أمّا الملا من بنى إسرائيل فقد احتجّوا على هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أرجح منه، وذلك لما لهم من ثروة وفخامة! إلا أنّ نبيّهم قال لهم بصرامة: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» وأضاف: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالبِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ». (القرآن / ٢٤٧)

وعليه فأنّه لا يكون حاكماً تكوينياً على عالم الوجود فحسب، بل إنّ الحاكمة القانونية والشرعية على المجتمع البشري هي لذاته المقدّسة وينήها لمن يشاء وإن كانت إرادته ومشيئته قائمة على أساس الأهلية واللياقة.

٤٥٧

١. احتمل بعض المفسّرين أنّه النبي شمعون أو يوشع ولكنّهما يبدوان بعيدين، أمّا بالنسبة ليوشع الذي كان وصيّاً لموسى عليه السلام فهو غير ممكن تقريباً.

الآية الخامسة تبيّن هذه المسألة في إطار جديد، فبعد بيان حاكمية الله على الشمس والقمر ونظام النور والظلم تستنتج بهذا النحو بقولها: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ». في حين ليس للعبودات من دونه حاكمية ولا مالكيّة حتّى بحجم الغشاء الرقيق الذي يغلف نوى التمر: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ».

وقد ذكر المفسرون واللغويون معانٍ مختلفة لكلمة قطمير، أشهرها هو الغشاء الرقيق الذي يفصل النوى عن التمر.

وقد فسّر البعض بأنه يعني التجوّف الأبيض الصغير الذي يوجد على ظهر النوى وينمو منه نبات التمر، وفسّر البعض بأنه رأس التمرة، وفسّر بعض آخر بمعنى الشّق الموجود على بطن النوى، أو بمعنى النطفة الحيّة الموجودة في بطن النوى.

ترتبط هذه المعاني الخمسة بنوى التمر التي كانت في متناول العرب، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل، ولكن الأشهر - كما ذكرنا - هو المعنى الأول وعلى كلّ حال هو كنایة عن الشيء الصغير والتافه الذي لا يؤبه له<sup>١</sup>.

والآية هذه دليل واضح على أنّ المالكيّة والحاكميّة لا تكون لأحد سوى الله عزّ وجلّ إلا أن تكون بمشيئته وهبته.

## ٤٥٦

وفي الآية السادسة والأخيرة جاء هذا المضمون في إطار جديد، حيث تخاطب النبي ﷺ: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» هل بإمكانهم أن يحلّوا عقدة من مشكلاتكم؟

ثمّ تقييم دليلاً على عجزهم في حلّ المشكلات وتضييف: «لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شُرِيكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ».

١. راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعاني؛ القرطبي؛ الميزان؛ المراغي؛ ومفردات الراغب، لسان العرب؛ ومجمع البحرين.

وعليه فانّهم ليسوا مالكين مستقلّين ولا شركاء ولا معاونين، فأي عمل هم قادرّون على إنجازه حتّى تسجدوا لهم وتعبدوهم؟!

بهذه الاستدلالات الواضحة ينفي القرآن الكريم كلّ شريك في المالكيّة والحاكميّة في عالم الوجود الواسع بصورة مستقلّة ومشتركة ومتعاوضة، وتعتبر ذلك كلّه مختصاً في الله، وينزّه الله عن كلّ شريك ومعين وناصر في عالم الوجود كله.

المستفاد من مجموع هذه الآيات السّتّ والآيات القرآنية المشابهة لها هو أنّ المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون في منظار الموحّد الكامل إلّا الله، ولا يملك أحد في أيّ موضع ومنصب جزءاً صغيراً، وبهذا لا يبقى للمشركيّن أيّ مبرّ لعبادة الأصنام أو ربّ الأنواع أو الملائكة وغيرها.

## توضيحان

### ١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكيّة والحاكميّة

الطغيان والغور والتمرّد والبخل والحسد حالات نفسية تنشأ غالباً من عقيدة الإنسان بأنّه المالك الحقيقي للأموال التي بحوزته، ويرى نفسه حرّاً فيما إذا استلم زمام الحكم في نطاق واسع أو ضيق، وهذه حالة مشوّبة بالشرك وهي منشأ لأنواع المعااصي والفساد الاجتماعي.

ولكن إذا ما نظر الإنسان إلى هذا العالم بمنظار توحيدِي، واعتقد - كما في الآيات - أنّ العالم ملك مطلق الله واعتبر نفسه - كما جاء في الآية ٧ من سورة الحديـد: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ» - أميناً بين يدي الله، وإستوعب هذا المعنى بوجوده كله، فكيف يمكن أن يقصر في أداء ما يريدـه صاحب الأمانة الأصلي أو يبخـل أو يحسـد؟ وكيف تكون هذه الأموال سبباً لغوره وطغيانـه، إن ما يملك من مال وثروة ليس له! فهل يغـترّ الموظـف في أحد المصارف بالملـايين التي تكون تحت تصـرـفـه كـلـ يوم؟

وهكـذا بالنسبة للـحكومـات والـمناصـب التي يتولــاها البعض، فــانــهم ليســوا مستــخلــفين فيــ

جزء صغير من عالم الوجود هذا، وعلى أساس هذا الفهم والرؤى، فلماذا الغرور والطغيان؟ ولماذا الظلم والفساد؟

إنَّ هذه الرؤى التوحيدية للعالم تعطي للإنسانية صبغة أخرى، صبغة إلهيَّة، صبغة السلام والصفاء والأمن ولون الإنفاق والإيثار.

٤٥٦

## ٢- إستغلال مفهوم (ملكية الله)

لا شك - وكما تقدم - أنَّ الله تعالى مالك عالم الوجود بأسره - وبغض النظر عن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة بهذا الخصوص فإنَّ الدليل العقلي شاهد على هذا الأمر، فانحصر واجب الوجود في ذاته المقدسة واحتياج الموجودات كلُّها إلى الله سبحانه وتعالى يكفي لإثبات هذا المفهوم ولا يتنافي مع هذا المعنى من المالكيَّة الحقوقيَّة والقانونيَّة لبني الإنسان في الإطار الذي يسمح به الله أبداً، وما يتشتَّت به البعض في قضيَّة (ملكية الله) لنفي آية (الملكيَّة الخاصة) فإنه استغلال ليس إلا، والعجيب إن ذلك يُطرح تحت عنوان الفقه الإسلامي، ويعطي - في الحقيقة - للاشتراكيَّة أو الشيوعيَّة لوناً إسلامياً.

وبوضوح أكثر نقول: إنَّ القرآن الكريم الذي أكد على مالكيَّة الله لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلق بـ(الإرث والخمس والزكاة والتجارة) أيضاً ويضفي الشرعية على الأموال المشروعة التي يتصرَّف بها القطاع الخاص، فقد جاء التعبير بـ(أموالكم) في ١٤ آية قرآنية، والتعبير بـ(أموالهم) في ٣١ آية - وقد وردت الكثير من التعاليم الالهيَّة في العديد من الآيات تأمرهم في كيفية التصرف في أموالهم، فلو كان مفهوم الملكية الإلهيَّة ينفي ملكية الإنسان، فما هو إذن مفهوم الآيات التي وردت في هذه الـ ٤٥ آية إضافة إلى آيات كثيرة أخرى تتعلق بهذا الموضوع؟

فالقرآن الكريم يقول: «وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ».

وفي موضع آخر: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...».

وفي موضع ثالث يقول: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَبَعِّدُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...».

(البقرة / ٢٦٢)

ويخاطب المرابين: «وَإِنْ تُبْعِمُ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ».

(البقرة / ٢٧٩)

أو كما ورد في الآية الكريمة: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَكَفُورُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آتَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوهُ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تُأْكِلُوهَا إِسْرَافًاٰ وَبِدَارًاٰ أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمُ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَ بِاللَّهِ حَسِيبًا».

( النساء / ٦ )

وقد وردت تعبيرات كثيرة تشير إلى هذا النوع من المالكيـة.

بالطبع، في الشريعة الإسلامية هناك أقسام أخرى من المالكيـة مثل «المالكيـة العامة» و«المالكيـة الحكـومة» بالإضافة إلى «المالكيـة الخاصة»، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، ولكن لا يوجد لأـي من هذه الملكـيات علاقة بـمالـكيـة الله سبحانه وتعـالـي، وبـتعـبـير مختـصر وهو أنـ توـحـيـدـ المـالـكـيـةـ لاـ يـتـعـارـضـ وـلاـ يـتـنـافـيـ معـ مـلـكـيـةـ أـفـرـادـ البـشـرـ أوـ طـبـقـةـ منـ مجـتمـعـ، أوـ المجـتمـعـ لـأـيـ شـيـءـ، بشـرـ طـ وـأـسـبـابـ وـرـدـتـ فيـ كـتـبـ الفـقـهـ الإـسـلـامـيـ بشـكـلـ مـفـصـلـ وـواـضـحـ.



## د) توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية)

### تمهيد:

من المعلوم إنّه ومن أجل تنظيم شؤون المجتمعات البشرية نحتاج إلى ثلاث سلطات، (السلطة التشريعية) التي تتکفل سن القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والحلولة دون ضياع الحقوق، و(السلطة التنفيذية) التي تنفذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتوالاها عادةً الحكومات المؤلفة من الوزراء والدوائر الحكومية.

و(السلطة القضائية) المسؤولة عن معاقبة المخالفين عن القانون وال مجرمين والمعتدين. في الرؤية التوحيدية الإسلامية تستمد هذه السلطات الثلاث من تعاليم الذات المقدّسة الالهية ولا يكون فيها حكماً جائزاً إلا بإذنه وأمره فهو الذي شرع القوانين وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة، وعليه فإنّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعيتها من حضرة القدس الإلهي طبق الشرائع والأوامر، وهذا المعنى له انعكاس واسع في الآيات القرآنية إضافةً إلى إمكانية الاستدلال عليه عقلياً.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنمعن خاسعين في الآيات القرآنية:

- ١- «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ». (المائدة / ٤٤)
- ٢- «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة / ٤٥)
- ٣- «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (المائدة / ٤٧)
- ٤- «وَإِنِّي أَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَسْتَعِنُ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْدَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ». (المائدة / ٤٩)
- ٥- «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء / ٦٥)
- ٦- «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ». (آل عمران / ٥٧) (يوسف / ٦٥)

- ٧- «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (القصص / ٧٠)
- ٨- «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (القصص / ٨٨)
- ٩- «وَمَا احْتَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذُلِّكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ». (الشورى / ١٠)
- ١٠- «أَفَغَيَرَ اللَّهُ أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الذِّي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا». (الأنعام / ١١٤)

### شرح المفردات:

«حُكْم»: على وزن (فُقْل) ويعني في الأصل - كما يقول الكثير من كبار اللغويين - المنع والصدّ<sup>١</sup> ومن ثمّ أطلق على (القضاء) و(الحكومة)، لأنّ القاضي والحاكم يمنعان الناس بأحكامهما الحازمة من مخالفتها أو ارتكاب الأعمال الممنوعة.

«حَكْمَة»: تعني الحديدية التي توضع في فم الحيوان أو أنفه كلجام، ولدى سحبه يتَّالِمُ الحيوان ويستسلم ويوجّد هنا معنى المنع نفسه أيضًا.

وفي (السان العربي): لـ(حكم) معانٍ مختلفة كالعلم والفهم والقضاء بالحقّ والعدل (حيث تصدّ هذه الأمور الإنسان عن المخالفات) ويطلق (حكيم) على من كان ذا معرفة كافية تصدّه عن ارتكاب الأعمال السيئة.

ومن اللازم التذكير بهذه النقطة وهي أنّ هذه الكلمة تستعمل في الموارد الثلاثة (التشريعية والقضائية والتنفيذية) حيث يطلق الحاكم على الموارد الثلاثة، ولذا فإنّ البعض

١. هناك آيات قرآنية كثيرة وردت بها المضمون أيضًا مثل السيدة، ٤٨، و٥٠: الكهف، ٢٦؛ الأعراف، ٨٧؛ يوسف، ٨٠؛ يوسف، ٤٥؛ هود، ١٠٩.

٢. المفردات؛ مقاييس اللغة؛ ومصباح المنير للفيومي.

من كتب اللغة تذكر أنّ أحد معاني (حكم) هو تفويض الأمر والفعل لشخص ما. ورد في كتاب (العين) أنّ لفظ (حكمة) يرجع إلى مفهوم العدل والعلم والحلم، ويقول صاحب الكتاب: إنّ هذه الكلمة فُسرت بمعنى (المنع) أو (المنع من الفساد)، وهذا ينسجم مع ما نقلناه عن اللغويين، والآيات المحكمات أطلق عليها هذا اللفظ لأنّ صراحتها ووضوحها يمنع من أي تفسير أو تأويل خاطيء.

## جمع الآيات وتفسيرها

**هن لم يحکم بما أنزل الله:**

في الآيات الأربع الأولى (الآية ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩ من سورة المائدة) عرض لمسألة توحيد الحاكمة بأوضح وجوهه.

تقول الآية الأولى والثانية والثالثة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... هُمُ الظَّالِمُونَ... هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وللمفسرين أقوال في هذه العبارات هل أنّها تتضمن مفاهيم مختلفة أو أنّها تشير إلى مفهوم واحد؟

بعض يعتقد أنّها تنظر إلى جماعة واحدة، وأنّها صفات متعدّدة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب: من يحكم بخلاف ما أنزل الله فانّه يخالف الله وينهض بوجه الله فهو كافر من هذه الجهة.

ومن جهة ثانية أنّه يوجّه ضربه للحق الإنساني فهو ظالم.

ومن جهة ثالثة أنّه يخرج من نطاق واجباته فهو فاسق (لاحظ أنّ الفسق يعني الخروج عن واجبات العبودية).

وقال بعض آخر: إنّ الآية الأولى والثانية - وبقرينة ما قبلها - تقصدان اليهود، في حين تتحدّث الآية الثالثة عن النصارى، وبما أنّ عداء اليهود للأحكام الإلهيّة أشدّ من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بينما حكم على النصارى بالفسق.

ولكنا نعلم أنّ نزول الآيات في موارد خاصة لا يحدّد مفاهيمها الكلية بتلك الموارد، وعليه فإنّ الآيات هذه تشمل جميع الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. إنّ صدق الظلم والفسق فيمن يرتكب هذه المعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون في حالة الرد لحكم الله والإعتقاد ببطلانه، لأنّ ذلك أمّا اعتقاد يلزمه إنكار الذات المقدّسة أو علمه وحكمته وعدله، وهذا يستوجب الكفر قطعاً، وهكذا إذا رجع إنكار هذا الحكم إلى إنكار القرآن أو رسالةنبي الإسلام عليه السلام.

ولكتّه إذا حكم بغير ما أنزل الله فقط وكان المنشأ فيه هو النفس مثلاً لا إنكار التوحيد أو النبوة فأنّه لا يستوجب الكفر.

وقد ورد في قوله تعالى: «فَاحْكُمْ بِيَنَّهُمْ إِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ». (المائدة / ٤٨)

وقوله تعالى: «وَإِنْ احْكُمْ بِيَنَّهُمْ إِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ». (المائدة / ٤٩)

وقوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوَقِّنُونَ». (المائدة / ٥٠)

إنّ الآيات الستّ هذه تؤكّد على هذا المعنى وهو (الحكم حكم الله فقط). إنّ هذه التعابير المختلفة وهذا التأكيد المثالى الذي ورد في هذه الآيات الستّ في سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهي أنّه لا يحقّ التشريع لأى مقام إلا لله، وكلّ من يفتى أو يقضي أو يحكم على خلاف حكم الله فإنه يقترف إثماً عظيماً وظلماً وينزع عنه ثوب الإيمان أيضاً.

بهذه يثبت توحيد الحاكمة التشريعية وحصر التشريع في ذات الله المقدّسة وحصر الحكم في حكم الله.

٤٥٦

الآية الخامسة تتحدّث عن مقام القضاء وتعتبره من مختصات رسول الله عليه السلام (الذين ينصبون من قبله أمّةً بالمعنى المطلق أو في خصوص القضاء) وتقول: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».

وعليه تكون علامات الإيمان الحقيقية ثلاثة: الإحتكام إلى النبي الأكرم ﷺ في كل اختلاف وعدم الشعور بالأذى من حكمه وتنفيذه بالكامل في الخارج، وبهذا فإن الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمة، أي الحاكمة في القضاء منحصرة في الله عز وجل (لأن النبي ﷺ ممثل عن الله).

٤٥٦

### الحكم لـه فقط:

الآية السادسة تقول بتعبير قصير: «إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

لقد تكررت هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً ولها مفهوم واسع حيث تتضمن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكويني والأحكام التشريعية، غير أن هذا التعبير في سورة الأنعام الآية ٥٧ وسورة يوسف الآية ٦٧ جاء في مورد الحكم الإلهي بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم.

على كل حال فإن الاختلاف في موارد التعبير هذه دليل واضح على أن مفهوم الآية واسع كما قلنا، ويعتبر كل حكم وأمر مختصاً في الله، في عالم التكوين وعالم التشريع.

٤٥٧

الآية السابعة وبعد أن وصفت الله عز وجل باستحقاق العبودية والحمد والثناء في الدنيا والآخرة تقول: «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»

وعبارة (وله الحكم) في الحقيقة دليل على انحصار الأهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عز وجل، لأن (المعبد) و(المحمود) هو من كان حكمه نافذاً في كل شيء وفي الجميع، وإن قال بعض المفسّرين أمثال ابن عباس: إن المراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم

القيامة<sup>١</sup> وليس بأيدينا أي دليل على تحديد معنى الآية، وقلنا مراراً: إن خصوصية المورد لا تمنع عمومية مفهوم الآية.

وعليه فإن الآية أعلاه تشمل توحيد حاكمة الله في عالم التكوين وفي عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (في تفسير الميزان إشارة إلى عمومية مفهوم الآية).<sup>٢</sup> وينبغي ملاحظة أن عبارة (له الحكم) تدل على الحصر من جهتين: إحداهما من جهة أن (له) مقدم، والأخرى من جهة أن الكلمة (الحكم) جاءت مطلقة أي أنها تشمل أنواع الحاكمية كلها.

والجدير ذكره أن انحصار المالكية في الله لا يمنع من أن يضعها الله في اختيار الأنبياء والأئمة المعصومين وعباده الصالحين، فالبحث يدور حول المبدأ الأصلي للحاكمية، كما أن إختصاص الحمد والثناء في ذاته المقدسة لا يمنع من أن يبني الإنسان على العباد الصالحين أو الوالدين أو المعلم، فهم يمثلون الواسطة في النغمة ولابد من ملاحظة أن هذه الأمور كلها من الله وهذا هو معنى توحيد الحاكمية.

٤٥٥

الآية الثامنة تتحدث أولاً عن توحيد العبادة ثم توحيد الحاكمية حيث تقول: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» ثم تقول بما يتضمن الدليل على هذا الحكم: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ» وتضيف أخيراً: «لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

هذه الآية تخصص العبادة في الله وهكذا البقاء والحكم والقضاء وإن اعتبر البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكويني وإرادة الله النافذة في كل شيء، واعتبرها البعض الآخر بمعنى القضاء يوم القيمة.

وقال البعض: إن الحكم هنا له جانب تشريعي فقط، غير أن الإطلاق هو الظاهر من الآية

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ٩٢.

٢. تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٧٠.

ويشمل كلّ حكم في عالم الوجود وعالم الشريعة والدنيا والآخرة. أمّا المراد من (الوجه) في العبارة: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ» فإنّ البعض فسّرها بمعنیة الأعمال الصالحة التي تنجز لله تعالى، فيما فسّرها البعض الآخر بمعنى الدين والقانون، والبعض الآخر بمعنى مقام ربّ.

ولكنا نعلم أنّ (وجه) يعني في الأصل (الصورة) وكما يقول الراغب: أنّ الوجه هو أوّل ما يواجه الأشخاص الآخرين وهو أشرف الأعضاء في الإنسان، ولذا اطلقت هذه الكلمة على الموجودات الشريفة، وبهذه المناسبة يطلق على ذات الله المقدّسة وقد استعملت بهذا المعنى في الآية ظاهراً.

وبما أنّ كلّ موجود يرتبط بهذه الذات الباقية والأبدية، فأنّه يتلوّن بلون الأبدية فإنّ دين الله وشرعيته والأعمال المنجزة من أجله والأبياء تكون خالدة وباقية لارتباطها بالله تعالى، وبهذا تجتمع التفاسير المذكورة في مضمون الآية.

٤٥٥

### عند الاختلاف ارجعوا إلى الله:

الآية التاسعة ترى (الحاكمية) بمعنى القضاء حيث تقول: «وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ».

أجل، إنّه وحده القادر على رفع الاختلاف فيما بينهم لأنّه عالم بكلّ شيء وله الولاية على الجميع.

وتضييف الآية: «ذُلِّكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ تَوَكَّلُوا إِلَيْهِ أُمِّيْبُ».

وهناك أقوال عديدة في تفسير هذه الآية، فالبعض اعتبرها ناظرة إلى الاختلافات والخصومات بين الناس الذين وجّب عليهم الإحتكام إلى النبي ﷺ، فيما اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى الاختلاف في تأويل الآيات وتفسيرها، في حين اعتبرها آخرون ناظرة إلى الاختلاف في العلوم المرتبطة بالمفاهيم الدينية والتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة الروح وأمثالها<sup>١</sup>.

١. نقلت هذه التفاسير الثلاثة عن المفسّرين في تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٥.

ولكنا لا نرى دليلاً لتحديد مفهوم الآية، بل كما قال بعض المحققين: إنَّ الآية تشمل كلَّ قضاء سواء كان في الأحكام أو في المفاهيم الدينية أو في معنى الآيات المشابهة أو غيرها. إنَّ الآية هذه من الآيات التي ثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهي أنَّ كُلَّ المسائل التي يحتاجها الناس قد وردت في الكتاب والسنة، ويكون كُلُّ قياس وتشريع وأمثاله باطلًا، فلو لا وجود هذه الأحكام كُلُّها في الكتاب والسنة فلا معنى لإرجاع جميع الاختلافات إلى الله فيها (تأمل جيداً).

والملاحظ أنَّ الفخر الرازي وبعض المفسرين قد أقرُّوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآية من جملة الأدلة المبطلة للقياس في الأحكام الفقهية<sup>١</sup>.

فالآية تقول: يجب إرجاع الحكم في جميع الاختلافات إلى الله، وبالطبع فإنَّ النبي ﷺ هو خليفة الله المصطفى من بين الناس، فلو لم يتضمن الكتاب والسنة طرق حلَّ للاختلافات في الأحكام والعقائد وما يتعلَّق بالشرع لكان إرجاع الاختلافات إلى الله عزَّ وجلَّ لا معنى له.

٤٥٦

الآية العاشرة والأخيرة تقول كاستنتاج عام عن لسان النبي ﷺ: «أَفَعَيْرَ اللَّهُ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا» وعليه فإنَّ (الحكم والحاكم والقاضي) هو ذاته المقدَّسة فقط لأنَّه عالم بكلِّ شيء، والقرآن أفضل دليل على علمه<sup>٢</sup>. وأما السؤال عن أنَّ الحكمية في أي شيء تكون؟ فإنَّ القرائن تشير إلى أنَّ المقصود هو

١. تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٩.

٢. «حكم»: كما يعتقد المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والشيخ الطوسي في (التبيان) يطلق على من لا يحكم إلا بالحق في حين أنَّ (الحاكم) يمكن أن يحكم بغير الحق، ولكن لم يتوضَّح من أين استفيد هذا المعنى إلا أنَّ القدر المسلم به هو أنه صفة مشبهة وتدلُّ على الدوام والاستمرار ويطلق على من يحكم باستمرار، والقصة المعروفة عن (الحكمين) في حرب صفين شاهد على نفي هذا المعنى، غير أنَّ هذه الكلمة أو الكلمة (حاكم) إذا استعملت في الله فإنَّها إشارة إلى القضاء والحكم المنزه عن كلَّ ظلم وخطأ وليس لها ارتباط بالأصل اللغوي.

الإحتكام إلى الله في حقانية الرسول الأكرم ﷺ.

وسبب النزول الذي ينقل في هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل: إنّ مشركي قريش إقتربوا على النبي ﷺ أن أجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود أو قساوسة النصارى؟ كي يخبرونا عنك بما يتوفّر لديهم من كتب سماويةٍ.

فنزلت الآية كجواب على إشكالهم: هل يوجد غير الله حكماً!

وذيل الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً بقولها: **«وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»**.

على كل حال فإنّ مفهوم الآية واسع ويحصر الحكمة في جميع الأمور دون استثناء في ذات الله المقدّسة لأنّا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهوم الآية أبداً.

٥٥٤

المستفاد جيداً من الآيات العشر السالفة هو أنّ الحاكمة ونفوذ الحكم والأمر في عالم الوجود وفي عالم الشريعة مختصّ في ذات الله المقدّسة.

والحاكمية بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى التنفيذ كلّها تتّشأ منه تعالى ومن يرغب في التصدّي لبعض هذه الأمور فلا بدّ أن يكون ذلك بإذنه وأمره سبحانه. غير أنّ الآيات المذكورة مختلفة، في بعضها يلاحظ فروع الحاكمة كلّها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط، ولكن المستفاد من المجموع هو مسألة (توحيد الحاكمة) بجميع أبعادها من هذه الآيات.

## توضيحات

### ١ - حاكمة الله في المنطق العقلي

لا شكّ أنّ كلّ عارف بالله مقرّ بتوحيد الخالق يذعن بنفاذ أمره في عالم الوجود، وعندما

١. تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ٧.

يتقبل حاكميته على عالم الوجود فأنه سوف لا يتردد في ولائه وحكومته التشريعية لأنَّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير فغيره لا يكون أهلاً للتشريع ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدير فأنه هو الذي يجب أن يحكم في مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضى في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكيَّة الله عزٌّ وجلٌّ وتدبره بدون إذنه، من جهة أخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسми للإنسان وروحه ويلبي حاجاته المادية والمعنوية ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة وطويلة، وأن يكون ذا ضمان تنفيذي كافٍ وذا تقبيل وانشداد في المجتمع الإنساني.

وبتعبير آخر يكون المشرع الحقيقي عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين. وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فأنه ناشيء من:

أولاً: فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين وال العلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلف كتب من قبل المفكرين تحت عنوان (الإنسان موجود مجهول) وما شاكل، فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

ثانياً: الإنسان موجود محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أنَّ كلَّ مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

ثالثاً: الإنسان غير مصنون عن الخطأ والإشتباه ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيير المستمرّ وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمان فيبادر لإصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب أخرى، ومن هنا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم اختباراً لا طائل فيه ولا نهاية!

وبقطع النظر عن مسألة مالكية الله وخلقيته لا يصلح أحد للتشريع أصلاً إلا من كان خالقاً لِلإنسان وعالماً بكل متطلباته الجسمانية والروحية وغنياً عن كل شيء وكل إنسان ومنزلاً عن كل خطأ واشتباه.

وواجبنا الوحيد هو تطبيق أصول القوانين الإلهية العامة على مصاديقها وجعل الأحكام العامة أحكاماً جزئية قابلة للتنفيذ.

٤٥٦

## ٢- الحكومة وديعة إلهية

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيّدة أنّ الحكومة وديعة إلهية، وعلى الحكام والمسؤولين العمل كنواب عن الله تعالى، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الأصلي للحكومة، أي الله سبحانه وتعالى في جميع المجالات.

وقد خاطب الله عزّ وجلّ النبي داود عليه السلام وهو ملك لأحد أوسع الحكومات في التاريخ البشري: «يَا دَاؤْدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُعِذِّلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ». (ص / ٢٦)

إنّ هذا التعبير يشير من جهة إلى أنّ الحكومة وديعة، وإلى المنهج والطريقة للحكومة الإلهية الشرعية والصحيحة من جهة أخرى.

٤٥٧

## ٣- شرعية الحكومات تستمد من الله فقط

في الإسلام والرؤيا التوحيدية تُنصب الحكومة من الأعلى وليس من الأسفل، أي من قبل الله عزّ وجلّ لا من قبل الناس، ويضمن الجانب الاجتماعي لها بأمره أيضاً.

توضيح ذلك: إنّ إحدى الفوارق الواضحة بين الرؤيا التوحيدية وبين الرؤيا المشوّبة بالشرك في قضية الحكومة هي أنّ الموحّد يعتقد أنّ الحكومة في جميع أبعادها (التشريعية

والتنفيذية والقضائية) نشأت من الله ومن ثم انتقلت إلى الأنبياء وأوصيائهم ثم الصالحين والعلماء في الأمم.

لابد أن يشعر هؤلاء الحكام بالمسؤولية أمام الله عز وجل، ويراعوا رضاه قبل كل شيء، وأن يكونوا خداماً مخلصين وأمناء لعباده.

إن مثل هذه الحكومة وبوحي من الرسالة الإلهية يمكنها قيادة البشر، لأن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المنحرفة والمشوبة بالمعاصي.

ومن الممكن أن يقال: إن الحكومة الإسلامية إذن ليس لها بعد شعبي بل هي أكثر ما تكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين، ولكن هذا خطأ كبير لأنّ مبدأ الشورى الذي تقرر في الشرائع التوحيدية قضية أساسية في الحكومة وأكّد عليها النص القرآني ويشهد له فعلنبي الإسلام عليه عليه السلام وهو صاحب مقام (العقل الكل) يدل على أن الله هو (مالك الملك) وأحکم الحاكمين) وهو الذي أمر بالمشورة مع الناس في أمر الحكومة وإشراكهم في هذا الشأن.

من هنا تكون الحكومة التوحيدية والإسلامية حكومة (شعبية دينية) ويعني ذلك الإهتمام بآراء الناس بأمر إلهي وذلك في إطار مباديء العقيدة والأحكام الإلهية طبعاً، وسيأتي تفصيل هذا الكلام بشكل كامل في مباحث الحكومة في الإسلام بإذن الله.

النتيجة هي أن الناس - مثلاً - عندما يتوجهون إلى صناديق الاقتراع في الحكومة الإسلامية لانتخاب رئيس الجمهورية أو نواب المجلس فإنّهم يلاحظون هذه النقطة وهي أنّهم أمناء الله تعالى، فالواجب هو أن يضعوا هذه الوديعة الإلهية التي تسمى بالحكومة في يد من تتجسد به القيم الإلهية، وإلا فأنّهم يخونون الأمانة.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» (النساء / ٥٨).

وقد ورد في الروايات الإسلامية، إن إحدى المصاديق المهمة للأمانة هي الحكومة، وقد تأكّد هذا الأمر في تفسير الدر المنشور حيث قال: «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة»<sup>١</sup>.

وعليه فانّهم لا يفكّرون أبداً بأي نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو الفئوية أو من هو الذي تربطهم معه الصدقة أو القرابة؟ من الذي يستأنسون به أم لا يستأنسون؟ بل ينبغي أن يراعوا الله عزّ وجلّ ورضاه والقيم الإنسانية والدينية السامية في كلّ موقف.

أمّا في الحكومات الديمocrاطية والشعبية في العالم الماديّ فيمكن أن تنظر هذه الأمور في آراء المفترعين من قبيل الميل الشّخصية والفئوية، الصراعات السياسيّة، المصالح الماديّة اللامشروعة وال العلاقات الخاصة وأمثالها.

لاحظ الفارق من أين وإلى أين؟

٤٥٥

#### ٤- الإيمان بتوحيد المالكيّة وتأثيراته التربويّة

مما ذكر يتّضح جانب من تأثير الإيمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الإعتقاد بحاكمية الله في جميع الأبعاد، وأنّ الحكومة وديعة إلهيّة عند الناس، فعند التعين سواء كان في المسؤوليات الكبيرة في الحكومة أو الصغيرة ينبغي أن يراعى فيه مبدأ الأمانة والوديعة الإلهيّة وعدم التضحية بالضوابط فداءً للعلاقات وعدم التضحية بمصالح المجتمع من أجل المصالح الشّخصية.

وأمّا من جهة الحكّام فانا نعلم بأنّ المشكلة الهامة في العالم هي مشكلة الحكّام المستبدّين الذين أضرموا النيران طيلة التاريخ في مناطق واسعة من العالم، أو في العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير للبشرية.

في هذا العصر قام (هتلر) بقتل عشرات الملايين، (ستالين) مسؤول عن مقتل ٣٠ مليون إنسان! حسب الإحصاءات المرؤّعة التي نشرت من قبل شعبه، ولا تزال أوضاع العالم بهذا النحو وان كانت بصوراً أخرى.

في حين لو كان الإنسان ذارؤّية توحيدية لآمن بأنّ الحكومة المطلقة مختصة بالله تعالى

وقد فوّضت إليه بإذنه عزّ وجلّ وإعانة عباده وأنّه خليفة الله في الأرض وعليه يجب أن لا يكون إنساناً مستبدّاً مغوراً وظالماً أبداً، وعندما يصل إلى الحكومة يقول كما قال علي عليه السلام: «... وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كثرة ظالم ولا سغب مظلوم لأنّي جلّ لها على غاربها ولستيت آخرها بكأس أوّلها ، ولأنّي تمّ دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»<sup>١</sup>.

أجل إنّه يرى الحكومة في كلّ الأحوال وديعة إلهية وهو أمينها ومسؤول أمام صاحبها الأول، وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة الحكومة في العالم بشرط أن تنفذ إلى أعماق الروح وتتلون الروح الإنسانية بلوتها.

ولا يصدق هذا الأمر على المتصدرين في الحكومة فحسب، بل يصدق على جميع العاملين في الحكومة والأمراء والقادة والمدراء والقضاة.

المعلوم من مجموع ما مرّ من أبحاث هو أنّ الحكومة في الإسلام ليس لها شكل استبدادي وليس من الطراز الديمقراطي الغربي، بل هي نوع من الحكومة الشعبية التي تعمل في إطار العقيدة ولها لون إلهي في أساسها، عن هذا الطريق تكتسب لوناً شعبياً وتنشأ كلّ امتيازاتها من هنا.

وهناك كلام طويل حول (الحكومة في القرآن) وموضوع البحث هنا هو (التوحيد في الحاكمية) و(نشوء الحكومة من الله) ولذا نوكل الباقى إلى البحث العام حول الحكومة بإذن الله.

## ٦) توحيد الطاعة

### تمهيد:

الكلام الأخير في باب أقسام التوحيد هو أنّ الإنسان الموحّد يعتقد بأنَّ الله وحده واجب الطاعة ولذا يضع طوق العبودية في رقبته ويفتخر بقوله: إِنِّي عبدٌ وَيَسْتَعِدُ لِلتَّضْحِيَةِ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ عَنِ اسْتَعْدَادِهِ لِتَنْفِيذِ أَوْاْمِرِ اللَّهِ تَعَالَى .

ويقوم بطاعة الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين ومبوع شيمهم بوصفها فرعاً لعبادة الله عزّ وجلّ ويحترم أوامرهم.

إِنَّه يفكّر بأمر واحد فقط هو رضا المحبوب الحقيقى وامتثال أوامر المولى الحقيقى، إِنَّه لا يشتري (رضا الناس) بـ(سخط الله) ولا (إطاعة المخلوق) بـ(معصية الخالق)، لأنَّه يرى ذلك شعبة من الشرك.

إنَّ هذا الفرع من التوحيد وهو (توحيد الطاعة) ينشأ في الواقع من التوحيد في الحاكمية الذي مرّ في البحث السابق.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل بخشوع في الآيات التالية:

١- «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَُّمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ». (المائدة / ٩٢)

٢- «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

(آل عمران / ٣٢)

٣- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». (النساء / ٥٩)

- ٤- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾. (التغابن / ١٦)
- ٥- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.
- (الشعراء / ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩) (آل عمران / ٥٠) (الزخرف / ٦٣)
- ٦- ﴿إِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءِ﴾. (الأعراف / ٣)
- ٧- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾. (الأحزاب / ٣٦)
- ٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَيِّعُ عَلَيْم﴾. (الحجرات / ١)
- ٩- ﴿إِتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (التوبية / ٣١)
- ١٠- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ \* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.<sup>١</sup> (يس / ٦١ - ٦٠)

### شرح المفردات:

(إطاعة) تعني في الأصل الإنقياد والتسلیم (وقد صرّح بذلك الكثير من اللغويين) ومن ثم أطلق على اتّباع الأمر.

وقد فرق البعض بين (الإطاعة) و(المطاوحة) ففسّر الإطاعة بمعنى الإنقياد وتنفيذ الأمر، والمطاوحة بمعنى الموافقة والإنسجام، ولذا يقول الخليل ابن أحمد في كتاب (العين): تستعمل (الإطاعة) في مورد الرعية بالنسبة للقائد، وفي مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل (طوعية) أو (مطاوحة).

١. هنالك آيات قرآنية كثيرة أخرى تتفق مع الآيات أعلاه مضموناً منها: الأنفال، ٢٠، ٤٦؛ النور، ٥٤؛ محمد، ٣٣؛ المجادلة، ١٣؛ النساء، ١٦؛ الأنعام، ١٥؛ يونس، ١٥؛ الزمر، ١٣.

## جمع الآيات وتفسيرها

**إليها نطح أهلك وحدك:**

إنَّ آية البحث الأولى وإن جاءت بعد تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأذلام إلا أنَّ محتواها لا يخفى كونه حكماً عاماً حيث تقول: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْدُرُوا»، وتضييف لدى تأكيدها على هذا الأمر: «فَإِنْ تَوَلَّهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ»<sup>١</sup>.

ومن الواضح أنَّ طاعة الرسول رشحة من رشحات طاعة الله تعالى وطاعته طاعة الله، لأنَّه لا يبيّن سوى كلام الله وأمره، ولعلَّ تكرار جملة (أطِيعُوا) إشارة إلى هذا المعنى، أي أنَّ الطاعة الأولى لها جانب ذاتي وأصلي والثانية لها جانب عرضي وفرعي.

٤٥٥

والآية الثانية تعكس هذا المضمون من خلال توجيه خطاب للنبي ﷺ: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» ذيل الآية يشهد جيداً بأنَّ التمرُّد يستوجب الكفر، التمرُّد الحادث عناداً وعداءً لأمر الله تعالى والنبي ﷺ، أو توسيع في معنى الكفر حتّى يشمل كلَّ معصية.

على أية حال فإنَّ الآية تؤكّد على وجوب طاعة الله ونبيه أي اتباع الكتاب والسنّة. النبي ﷺ في هذه الآية وإن كان معطوفاً على الله تعالى بدون واسطة ولكن بمحاطة الآية السابقة التي تقول: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي»، يتّضح أنَّ طاعة النبي الأكرم ﷺ هي فرع لطاعة الله تعالى.

٤٥٦

١. جزء الشرط في الآية ممحوف يقدّر بـ(قامت الحجّة عليكم)، أو (استحققت العقاب) أو (لم تضرروا بتوليكم الرسول) (تفسير مجمع البيان؛ الكبير؛ روح المعاني والمراجي في ذيل آية مورد البحث).

وهذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ علامه الحبّ الحقيقى لله ورسوله هي طاعتها  
وأتباعهما وإنّما كان حتّى كاذباً أو ضعيفاً جدّاً.

٤٥٥

الآية الثالثة تضيف طاعة أولى الأمر إلى طاعة الله ورسوله وتأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وهذا التعبير يدلّ بوضوح على أنّ الطاعة مختصة في الله ثم رسوله وأولي الأمر، ولحلّ  
أي نزاع لابدّ من الإستعانة بهم، وبدون ذلك فإنّ قواعد الإيمان بالمبداً والمعاد ستتززع في  
قلب الإنسان وروحه.

٤٥٦

الآية الرابعة تتحدث عن طاعة الله فقط حيث تقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾، فهي تأمر بالتقى أولًا وتجنب المعاصي لأنّ (التخلية) والتطهير يتقدّمان على  
(التخلية)، ثم تأمرنا ثانياً بالإستماع لأمر الله استماعاً يكون مقدمة للطاعة، وتأمر أخيراً  
بإطاعة أمره دون قيد أو شرط، وهذه الطاعة المطلقة مختصة في الله عزّ وجلّ، وما يظنه  
بعض من أنّ عبارة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ نسخت الآية ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِلُهُ﴾  
(آل عمران / ١٠٢) خطأ كبير لأنّ الآيتين تتحدثان عن حقيقة واحدة، لأنّ حقّ التقوى ليس  
سوى أن يكون الإنسان متّقياً قدر ما يستطيع.

الآية الخامسة التي جاءت على لسان الكثير من الأنبياء عليهما السلام تأمر أولًا بالتقى ثم طاعة  
الأنبياء وتقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقد نقلت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود  
وصالح ولوط وشعيب والسيد المسيح عليهما السلام في القرآن الكريم (مرة واحدة على لسان نوح  
(الشعراء / ١٠٨) ومرة أخرى على لسان هود (الشعراء / ١٢٦ و ١٣١) ومرة أخرى على لسان صالح

(الشعراء / ١٤٤، ١٥٥) ومرة على لسان لوط (الشعراء / ١٦٣) وشعيّب (الشعراء / ١٧٩) و/or مرتين على لسان المسيح (آل عمران / ٥٠ والزخرف / ٦٣) ومن المسلم به هنا هو أنَّ الطاعة ترتبط بالدرجة الأولى بمبدأ التوحيد وترك الوثنية ثم سائر التعاليم الدينية، ومثل هذه الطاعة هي طاعة لأمر الله لأنَّهم لم يتحدُّثوا إلَّا عنه تعالى.

४५

في الآية السادسة حديث عن متابعة الأحكام الإلهية، وهي تعبير آخر عن الطاعة إضافةً إلى تصريح الآية بعدم اتّباع غيره، وهذا النفي والإثبات يوضّحان (توحيد الطاعة) وتقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَبَعُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاء﴾، هذه الآية تبطل طاعة الغير أبداً كأن وفي آية حال إلا أن ترجع طاعته إلى طاعة أمر الله عزوجل.

وهذه الآية وأمثالها تشهد جيداً أن أحكام البشر وآرائهم مهما كانت فهي ليست أهلاً للإتباع (الامتثالها بالأخطاء إضافةً إلى عدم وجود دليل على وجوب طاعة الآخرين).

४५

الآية السابعة وبعد التصریح بعدم امتلاک أي رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أي خيار أمام أمر الله ورسوله تقول: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا». إن الآية تُبيّن في أولها وأخرها توحيد الطاعة وتعتبره علامه الإيمان ومعارضته تكون (ضلالاً مبيناً) وأي ضلال هو أوضح من أن يترك الإنسان أمر الله العالم الحكيم والرحمن والرحيم ويتجه لطاعة الآخرين؟!

४५

الآية الثامنة تخاطب المؤمنين، وقد ذكرت شؤون مختلفة في نزولها وكلّها تشهد على أنَّ بعض الأشخاص يتقدّمون أحياناً على الله ورسوله بالاقترابات ويقولون: لو أصدر

الأمر الفلاني لكان أفضـلـ، فنزلـتـ الآية تـنـذـرـهـمـ بـقـوـلـهـ: «يـأـيـهـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ لـاـ تـقـدـمـوـاـ بـيـنـ يـدـيـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ وـاتـقـواـ اللهـ إـنـ اللهـ سـيـعـ عـلـيـمـ».

وـمـنـ الـمـسـلـمـ بـهـ أـنـ اللهـ لـاـ مـكـانـ لـهـ حـتـىـ يـقـولـ: لـاـ تـقـدـمـوـاـ عـلـيـهـ، بـلـ أـنـ ذـلـكـ كـنـايـةـ عـنـ دـعـمـ التـقـدـمـ عـلـيـهـ فـيـ أـيـ عـمـلـ أـوـ كـلـامـ!»

عـلـىـ أـيـةـ حـالـ فـإـنـ الـآـيـةـ لـاـ تـعـبـرـ طـاعـةـ الـأـمـرـ الـإـلـهـيـ وـاجـبـاـ فـحـسـبـ، بـلـ تـقـولـ: كـوـنـواـ بـاـنـتـظـارـ أـوـ اـمـرـهـ فـيـ كـلـ عـمـلـ، وـبـعـدـ إـصـارـ الـأـمـرـ لـاـ يـنـبـغـيـ عـلـيـكـمـ التـقـدـمـ عـلـيـهـ أـوـ التـرـيـثـ فـيـ اـمـتـالـهـ فـالـمـسـرـعـونـ وـالـمـبـطـئـونـ مـخـطـئـونـ.

وـقـدـ جـاءـ فـيـ تـفـسـيرـ الـمـرـاغـيـ القـوـلـ عـنـ بـعـضـ عـلـمـاءـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ: إـنـ مـفـهـومـ التـعبـيرـ (لـاـ تـقـدـمـ بـيـنـ يـدـيـ الـإـمـامـ)ـ هوـ: لـاـ تـعـجـلـ عـلـيـهـ فـيـ أـدـاءـ الـأـعـمـالـ.

## ٢٥٣

### عبادة القادة والعلماء:

الـآـيـةـ التـاسـعـةـ تـذـمـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ لـكـوـنـهـمـ جـعـلـوـاـ مـنـ عـلـمـائـهـمـ وـرـهـبـانـهـمـ آـلـهـةـ مـنـ دـوـنـ اللهـ الـوـاحـدـ: «اـتـخـذـوـاـ أـحـبـارـهـمـ وـرـهـبـانـهـمـ أـرـبـابـاـ مـنـ دـوـنـ اللهـ».

وـقـدـ جـعـلـوـاـ مـنـ الـمـسـيـحـ بـنـ مـرـيـمـ مـعـبـودـاـ لـهـمـ أـيـضاـ: «وـالـمـسـيـحـ أـبـنـ مـرـيـمـ»ـ فـيـ حـينـ: «وـمـاـ

١ـ.ـ المـرـادـ مـنـ (ـتـقـدـمـوـاـ)ـ هـنـاـ هـلـ هـوـ بـمـعـنـىـ لـاـ تـقـدـمـوـاـمـ لـاـ؟ـ وـقـعـ كـلـامـ بـيـنـ الـمـفـسـرـيـنـ (ـالـأـوـلـ مـنـ بـابـ التـفـعـيلـ وـالـثـانـيـ مـنـ بـابـ التـفـعـلـ)ـ وـلـكـنـ جـمـلـةـ (ـبـيـنـ يـدـيـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ)ـ فـيـ الـحـالـةـ الـأـوـلـيـ يـكـوـنـ مـعـنـاـهـ دـعـمـ التـقـدـمـ عـلـىـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ، وـفـيـ الـحـالـةـ الـثـانـيـةـ يـكـوـنـ مـفـهـومـهـاـ هـوـ لـاـ تـقـدـمـوـاـ شـيـئـاـ عـلـىـ اللهـ وـرـسـوـلـهـ وـأـوـامـرـهـمـاـ وـالـمـعـنـىـ الـأـوـلـ هـوـ الـأـنـسـبـ.

٢ـ.ـ (ـأـحـبـارـ)ـ جـمـعـ (ـحـبـرـ)ـ أـوـ (ـحـبـرـ)ـ وـيـعـنـيـ فـيـ الـأـصـلـ الـأـثـرـ الـجـمـيلـ ثـمـ أـطـلـقـ عـلـىـ الـعـالـمـ وـالـمـفـكـرـ بـسـبـبـ الـأـثـارـ الـجـمـيلـةـ الـتـيـ تـبـقـىـ مـنـهـمـ بـيـنـ النـاسـ وـهـذـهـ الـكـلـمـةـ تـسـتـعـمـلـ فـيـ الـغـالـبـ فـيـ عـلـمـاءـ الـيـهـودـ وـقـدـ تـلـقـ أـحـبـانـاـ عـلـىـ غـيـرـهـمـ كـمـاـ لـقـبـواـ أـبـنـ عـبـاسـ بـ (ـحـبـرـ الـأـمـةـ).

«ـرـهـبـانـ»ـ جـمـعـ (ـرـاهـبـ)ـ وـقـالـ الـبـعـضـ: إـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ لـهـ مـعـنـىـ الـمـفـرـدـ وـالـجـمـعـ وـتـعـنـيـ فـيـ الـأـصـلـ الشـخـصـ الـذـيـ يـتـصـفـ بـخـوـفـ اللهـ وـيـظـهـرـ ذـلـكـ عـلـىـ أـعـمـالـهـ، وـتـلـقـ عـادـةـ عـلـىـ مـجـمـوعـةـ (ـالتـارـكـيـنـ لـلـدـنـيـاـ)ـ مـنـ الـنـصـارـىـ وـهـيـ مـجـمـوعـةـ هـجـرـتـ الـحـيـاةـ وـالـإـكـتـسـابـ وـالـعـمـلـ بـلـ وـالـزـوـاجـ أـيـضاـ وـاشـتـغـلـوـاـ بـالـعـبـادـةـ فـيـ الـدـيـرـ (ـمـفـرـدـاتـ الـرـاغـبـ،ـ الـعـيـنـ،ـ نـهـاـيـةـ أـبـنـ الـأـثـيـرـ،ـ وـتـفـاسـيرـ الـمـيـزانـ،ـ الـكـبـيرـ،ـ رـوـحـ الـمـعـانـيـ؛ـ وـرـوـحـ الـبـيـانـ؛ـ وـالـمـرـاغـيـ).

أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ومن المسلم به أن اليهود والنصارى لم يعتقدوا بالوهية علمائهم ورهبانهم ولم يعبدوهم ولم نعد الله تعالى أبداً، فلماذا إذن استعمل القرآن الكريم كلمة (رب) و (إله) فيهم؟!<sup>١</sup>

وردت الإجابة عن ذلك في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليهما السلام: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكتهم أحلى لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون».<sup>٢</sup>

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة أخرى في المصادر الشيعية والسنّية ومنها ما نقرأ في كتب عديدة: «عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله عليه السلام وفي عني صليب من ذهب فقال: ياعدي: اطرح عنك هذا الوشن وسمعته يقرأ آية: اتّخذوا أighbors وأهلاً من دون الله. فقلت له: يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله تعالى فيحرّمونه ويحلّون ما حرم الله فيستحلّونه؟ فقلت: بل، قال: ذلك عبادتهم».<sup>٣</sup>

وبهذا يتّضح أنّ اتباع وإطاعة أشخاص يأمرؤن على خلاف حكم الله يكون لوناً من الشرك.

٤٥٥

الآية العاشرة والأخيرة تخاطب جميع البشر: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابْنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا السَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ» و«أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

ومن المسلم به أنّ لا أحد يعبد الشيطان بمعنى الركوع والسجود والصلوة والصيام، فما هي العبادة التي نهي عنها؟ هل هي شيء غير الطاعة؟ أجل، إنّهم حينما يستسلمون لـما يريده الشيطان ويقدمون أمره على أمر الله فـأنّهم مشركون وعباد الشيطان، والشرك هنا

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣؛ وتفسير البرهان، ج ٢، ص ١٢٠ و ١٢١.

٢. تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٧٥ وورد هذا المعنى في تفاسير متعددة أخرى منها تفسير دار المنشور بفارق طيف.

بمعنى طاعة الأمر لا الركوع والسجود.

أين أخذ الله تعالى هذا العهد منبني آدم؟ فسره البعض بأنه (عالمن الذر) وفسره بعض أنه وصايا الأنبياء لأقوامهم، ولكن الظاهر أن الآية تشير إلى الوصايا التي تشبه العهد الذي كان الله تعالى عند هبوط آدم مع أولاده إلى الأرض، وقد قامت هذه الآية بتبيان ذلك: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَقْتَنَسُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ». (الاعراف / ٢٧)

وهكذا في خطابها لآدم وزوجته بقولها «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (الاعراف / ٢٢) والآية ١١٧ من سورة طه تخاطب آدم عليهما السلام: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ». ومن المسلم به أن مثل هذا العدو يكون عدواً لأبنائه أيضاً، لأن مخالفته لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله، ولذا أقسم من البداية: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخْرَتْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا حَسِنَكَنَّ ذُرْيَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء / ٦٢) وقوله الله تعالى: «قَالَ فَيَعْزِزُكَ لَا غُوَامِمٌ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْخُلَصِينَ». (ص / ٨٣ - ٨٢)

٤٥٥

## توضيحان

### ١ - الله تعالى هو المطاع المطلق

من مجموع الآيات السابقة يستفاد جيداً أن الله تعالى وحده هو (واجب الطاعة) في النظرية الإسلامية وفي المنظار القرآني وهكذا الذين تعتبر طاعتهم طاعة لله تعالى، وكل طاعة وتسليم أمم الأحكام والأوامر المخالفة لأمر الله يعدّ لوناً من الشرك والوثنية في المنظار القرآني.

وعليه فإنّ لروم طاعة النبي والأئمة: والوالدين هو بأمر الله كما يقول القرآن: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». (النساء / ٦٤)

كما يمكن إثبات هذه المسألة بالدليل العقلي، لأن المطاع المطلق هو من يكون عالماً

بكل شيء وحكيماً وخييراً ومنزهاً عن كل خطأ ورحيناً وقد اجتمعت هذه الصفات في ذات الله المقدسة فقط.

وإرادة الحكم والأصدقاء والأبناء والأرحام والأمنيات القلبية إن لم تتناسق مع إرادة الله فإن طاعتها تكون شركاً.

يقول الإنسان الموحد: لو انحرفت عن طاعة الله قيد أئملاه فاني قد أشركت لأنني جعلت له ندأً في طاعته.

## ٢- توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية

إن الأحاديث المختلفة التي وردت في مصادرنا الإسلامية أكدت على هذه المسألة أيضاً وهي أن أحد شعب الشرك هو الشرك في الطاعة ومن هذه الروايات:

أ) ورد في الحديث النبوى: «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف».<sup>١</sup>

ب) ونقرأ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا طاعة لملحق في معصية الخالق».<sup>٢</sup>

ج) وحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده».<sup>٣</sup>

د) في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام وهكذا عن الإمام الجواد عليه السلام: «من أصفع إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان».<sup>٤</sup>

ه) ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق».<sup>٥</sup>

١. صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٦٩.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦٥.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٨.

٤. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٩، وتحف العقول، ص ٣٣٩ (باختلاف يسير).

٥. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٩٣، ح ٦ (وهذا المضمون ورد أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام في أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣، ح ٤).

تُنْتَضِحُ مِنْ هَذِهِ الرَّوَايَاتِ الصَّرِيقَةِ وَالقَاطِعَةِ النَّظَرِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي مَسَأَلَةِ الشَّرْكِ وَتَمْيِيزِ  
الْمَوَازِينِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي تَوْحِيدِ الطَّاعَةِ.

إِلَهُنَا: إِنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ التَّوْحِيدِ مَعْقُدٌ وَمَشْكُلٌ، فَاهْدِنَا أَنْتَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الْمُلْتُوِيِّ.  
إِلَهُنَا: إِنَّ جَهَاتَ مُخْتَلِفَةٍ تَدْعُونَا لِطَاعَتِهَا مِنْ كُلِّ جَهَةٍ، فَالْهُوَى مِنَ الدَّاخِلِ، وَشَيَاطِينُ  
الجَنِّ وَالْإِنْسَنُ مِنَ الْخَارِجِ، وَنَحْنُ نَرْغُبُ فِي طَاعَةِ أَمْرِكَ وَحْدَكَ، فَكُنْ لَنَا عَوْنَانًا وَنَاصِرًا فِي  
هَذَا الطَّرِيقِ.

## الفهرس

٥ .....	المقدمة.....
٥ .....	الطرق إلى الله.....
٩ / براهين معرفة الله	
١٣ .....	٢- برهان التغيير والحركة.....
١٤ .....	شرح المفردات:.....
١٥ .....	جمع الآيات وتفسيرها.....
١٥ .....	إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوي:.....
١٩ .....	العلاقة بين الأفول والحدوث:.....
٢٢ .....	توضيحات.....
٢٢ .....	١- برهان الحركة ومقدماته .....
٢٣ .....	أ) تعريف الحركة.....
٢٣ .....	ب) وجود الحركة.....
٢٤ .....	ج) أركان الحركة.....
٢٤ .....	د) مجالات الحركة .....
٢٦ .....	٢- أدلة وجود الحركة الجوهرية.....
٢٨ .....	٢- إثبات وجود الله بواسطة برهان الحركة.....

٤- العالم متغّير وكلّ متغيّر حادث.....	٢٩
٥- حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة.....	٣٠
٢-برهان الوجوب والإمكان ( الغنى والفقر ) .....	٣٣
شرح المفردات:.....	٣٤
حاجة الجميع إلى الله:.....	٣٥
توضيحات.....	٤٠
١-برهان الوجوب والإمكان من الناحية الفلسفية.....	٤٠
٢-برهان الغنى والفقر في الروايات الإسلامية.....	٤٢
٤-برهان العلة والمعلول.....	٤٥
شرح المفردات:.....	٤٦
جمع الآيات وتفسيرها.....	٤٧
استجواب عجيب!.....	٤٧
توضيحان.....	٥٠
١-برهان العلة والمعلول في الفلسفة والكلام.....	٥٠
١-تعريف أصل العلية.....	٥٠
٢- شمولية قانون العلية وسعة تطبيقاتها.....	٥١
٣- جذور معرفة قانون العلية.....	٥١
٤- أقسام العلة.....	٥٣
٢-إيضاح برهان العلية.....	٥٤
٥-برهان الصدّيقين .....	٥٧
شرح المفردات:.....	٥٨
جمع الآيات وتفسيرها.....	٥٩
القرآن وبرهان الصدّيقين:.....	٥٩

٦١	بزوج الشمس دليل عليها:
٦٢	إحاطة الوجود الإلهي:
٦٣	هو الأول والآخر:
٦٥	هو نور العالم:
٦٧	توضيحان:
٦٧	١- برهان الصدقين في الروايات الإسلامية والأدعية.
٦٨	٢- إيضاح برهان الصدقين
٧٣	٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)
٧٤	شرح المفردات:
٧٥	جمع الآيات وتفسيرها
٧٥	٧- الخلق الثابت والراسنخ:
٧٧	عند مواجهة الأزمات:
٨٠	إقرار المشركين:
٨٢	عهد عالم الذرّ:
٨٩	حصيلة البحث عن عالم الذرّ:
٨٩	توضيحات:
٨٩	١- (عالم الذرّ) في الروايات الإسلامية
٩٢	٢- فطرة العقل أم القلب؟
٩٣	٣- شواهد حيّة على فطريّة الإيمان بالله
٩٣	أ) الحقائق التاريخية
٩٤	ب) الآثار التاريخية
٩٤	ج) الدراسات النفسيّة واكتشافات علماء النفس
٩٦	د) فشل الدعاية ضد الدين

٩٧ .....	هـ التجارب الشخصية في الأزمات.....
٩٧ .....	وـ شهادة العلماء على فطريّة الدين.....
٩٩ .....	٤ـ الفطرة في الروايات الإسلامية.....

### ١٠٣ / وحدانية الذات المقدّسة

١٠٣ .....	«أهم أصل في معرفة الله».....
١٠٧ .....	شرح المفردات:.....
١٠٩ .....	جمع الآيات و تفسيرها.....
١٠٩ .....	الذنب الذي لا يُغتفر:.....
١١١ .....	أعظم الظلم:.....
١١٢ .....	السقوط الموحش:.....
١١٤ .....	الجنة محرّمة على المشركين:.....
١١٤ .....	الله بريء من المشركين:.....
١١٧ .....	إبراهيم عليهما السلام الأسوة الحسنة في مقارعة الشرك:.....
١١٩ .....	توضيح: لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضية التوحيد والشرك؟.....

### ١٢٣ / دلائل التوحيد

١٢٥ .....	١ـ شهادة الفطرة على وحدانية الله (عزّ وجلّ).....
١٢٦ .....	جمع الآيات و تفسيرها.....
١٢٦ .....	حينما يشرق نور التوحيد:.....
١٢٨ .....	اللجوء إلى الله في الشدائـد:.....
١٢٩ .....	النور الوهـاج في الظلمات:.....

١٣٣	٢ - تناقض العالم
١٣٤	شرح المفردات:
١٣٥	جمع الآيات وتفسيرها
١٣٥	مظاهر التنسيق:
١٣٦	تعدد الآلهة:
١٣٨	توضيحات.
١٣٨	١ - النظرة العلمية لوحدة عالم الخلق
١٤٠	٢ - إيضاح برهان التمانع
١٤٣	٣ - برهان الوحدة والتمانع في الروايات الإسلامية
١٤٥	٢ - دليل صرف الوجود
١٤٦	جمع الآيات وتفسيرها
١٤٦	الله شاهد على وحدانية ذاته:
١٤٧	هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن:
١٤٩	توضيحات.
١٤٩	١ - إنّه حقيقة لا متناهية
١٥٠	٢ - الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً
١٥١	٢ - دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية.
١٥٣	٤ - دليل الفيض والهداية.
١٥٤	جمع الآيات وتفسيرها
١٥٤	دعوة الأنبياء العامة إلى الله الواحد:
١٥٥	هل تمتكون دليلاً على الشرك؟!
١٥٦	توضيحات.
١٥٦	١ - الفيض والهداية في الروايات الإسلامية.

١٥٧ .....	٢- برهان الترکب.....
١٥٨ .....	٢- التوحيد والأدلة النقلية.....

### مصادر الشرك الهامة / ١٥٩

١٦١ .....	١- إتّباع الأوهام.....
١٦٢ .....	شرح المفردات:.....
١٦٣ .....	جمع الآيات وتفسيرها
١٦٣ .....	الغور في عالم الأوهام.....
١٦٤ .....	أسماء بلا عناوين:.....
١٦٥ .....	الاستناد إلى الحدس والتخيّن:.....
١٦٩ .....	٢- اتّباع الحواس.....
١٧٠ .....	جمع الآيات وتفسيرها
١٧٠ .....	لماذا لا نرى الله؟؟.....
١٧١ .....	طّلبوا ذلك من موسى!!!.....
١٧٢ .....	دعني أرى الله في السماء!.....
١٧٣ .....	أيتوّقّعون أن يأتّي الله إليهم!.....
١٧٥ .....	توضيح: لماذا ألفوا عالم الحس؟!.....
١٧٧ .....	٢- المصالح الوهمية.....
١٧٧ .....	شرح المفردات:.....
١٧٨ .....	جمع الآيات وتفسيرها
١٧٨ .....	الأصنام شفّاعونا؟!.....
١٨٠ .....	توضيحات.....
١٨٠ .....	١- منشأ الإعتقاد بالشفاعة.....

٢ - تاريخ عبادة الأصنام والأوثان.....	١٨٢
٣ - عوامل أخرى للشك وعبادة الأصنام.....	١٨٣
٤ و ٥ - عواملي التقليد والاستعمار.....	١٨٥
شرح المفردات:.....	١٨٦
جمع الآيات وتفسيرها.....	١٨٧
عبادة الأصنام دين أجدادنا!.....	١٨٧
الجواب الدائم للمشركين:.....	١٩٠
توضيحات.....	١٩٢
١ - التقليد، عامل للنقد أم للإنحطاط؟.....	١٩٢
٢ - تزيين الشياطين وهو النفس.....	١٩٢
٣ - عامل الاستضعف والاستعمار الفكري.....	١٩٣
٤ - كلمةأخيرة حول عوامل الشرك.....	١٩٤

### أقسام التوحيد / ١٩٩

التقسيمات الأساسية:.....	٢٠١
١ و ٢ - توحيد الذات والصفات.....	٢٠٣
جمع الآيات وتفسيرها.....	٢٠٣
يامن تعالى عن الخيال والقياس والظنّ والوهم:.....	٢٠٣
توضيحات.....	٢٠٩
١ - المفهوم الدقيق لتوحيد الذات.....	٢٠٩
٢ - مفهوم توحيد الصفات.....	٢١٠
٣ - الدليل على توحيد الصفات.....	٢١٠
٤ - التوحيد في العبادة.....	٢١٣

٢١٤ .....	شرح المفردات:.....
٢١٤ .....	المفهوم الدقيق للعبادة:.....
٢١٦ .....	جمع الآيات وتفسيرها.....
٢١٦ .....	هو المعبود وحده:.....
٢١٩ .....	لا أعبد غير الله:.....
٢٢١ .....	إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا:.....
٢٢٥ .....	توضيحات.....
٢٢٥ .....	١- شجرة توحيد العبادة المثمرة.....
٢٢٦ .....	٢- روح العبادة والإحتراز من الإفراط والتفريط.....
٢٣٠ .....	٣- توحيد الوهّابيين المشوب بالشرك.....
٢٣٥ .....	٤- توحيد الأفعال.....
٢٣٥ .....	أ) توحيد الخالقية.....
٢٣٦ .....	شرح المفردات:.....
٢٣٦ .....	جمع الآيات وتفسيرها.....
٢٣٦ .....	هو الخالق لكلّ شيء:.....
٢٣٨ .....	خالقية الله للكون:.....
٢٤٢ .....	توضيحات.....
٢٤٢ .....	١- الخطوة الأولى نحو الشرك في الخالقية.....
٢٤٣ .....	٢- خطوة أخرى على طريق الشرك.....
٢٤٧ .....	ب) توحيد الربوبية.....
٢٤٨ .....	شرح المفردات:.....
٢٤٩ .....	جمع الآيات وتفسيرها.....
٢٤٩ .....	الله سبحانه وتعالى رب العالمين:.....

٢٥٣	هو المدبر للأمور:
٢٥٥	توضيحات.....
٢٥٥	١- التوحيد يعني حذف الوسائل!
٢٥٥	٢- تاريخ الديانات وخرافة الوسائل
٢٥٦	أ) آلهة الروم.....
٢٥٦	ب) آلهة اليونان.....
٢٥٧	ج) آلهة مصر.....
٢٥٨	د) آلهة يران.....
٢٥٨	ه) آلهة الصين .....
٢٥٨	و) مشركو العرب.....
٢٥٩	ز) آلهة بلدان أخرى .....
٢٦٠	ح) الإعتقاد بالمثل الأفلاطونية.....
٢٦١	٢- التفويض لون من الشرك.....
٢٦٣	٤- هل أنّ الملائكة تدبر الأمور؟.....
٢٦٤	٥- «توحيد الربوبية» في الأحاديث الإسلامية.....
٢٦٥	ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية).....
٢٦٦	شرح المفردات:.....
٢٦٧	جمع الآيات وتفسيرها.....
٢٦٧	الله مالك الملك:.....
٢٧١	توضيحان.....
٢٧١	١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية .....
٢٧٢	٢- إستغلال مفهوم (ملكية الله ) .....
٢٧٥	د) توحيد التقنيين (الحاكمية التشريعية).....

٢٧٦	شرح المفردات:.....
٢٧٧	جمع الآيات و تفسيرها .....
٢٧٧	من لم يحكم بما أنزل الله:.....
٢٧٩	الحكم لله فقط:.....
٢٨١	عند الاختلاف ارجعوا إلى الله:.....
٢٨٣	توضيحات.....
٢٨٣	١ - حакمية الله في المنطق العقلي .....
٢٨٥	٢ - الحكومة و ديعة الهبة.....
٢٨٥	٣ - شرعية الحكومات تستمد من الله فقط.....
٢٨٧	٤ - الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية.....
٢٨٩	ه) توحيد الطاعة.....
٢٩٠	شرح المفردات:.....
٢٩١	جمع الآيات و تفسيرها .....
٢٩١	إلهنا نطيع أمرك و حدك:.....
٢٩٤	عبادة القادة والعلماء:.....
٢٩٦	توضيحان.....
٢٩٦	١ - الله تعالى هو المطاع المطلق .....
٢٩٧	٢ - توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية.....